الإمارات
THE EMIRATES

مَـرَاوِد

مجلة منوعة تعنى بالتراث الثقافي

العدد 59 – أكتوبر، 2023، السنة السابعة

ملف العدد:
التراث والاستدامة

سلطان بن أحمد القاسمي
يفتتح «ملتقى الشارقة للراوي»

«الشارقة للتراث» ينال جائزة
«التميز في صون التراث» من
أكاديمية مغرب الحكايات

«الشارقة للتراث» يستقبل
ممثل منظمة اليونسكو
لدول الخليج واليمن

MARAWED Issue, 59, (October 2023), The seventh year

العدد 59 – أكتوبر 2023، السنة السابعة

صدر حديثاً

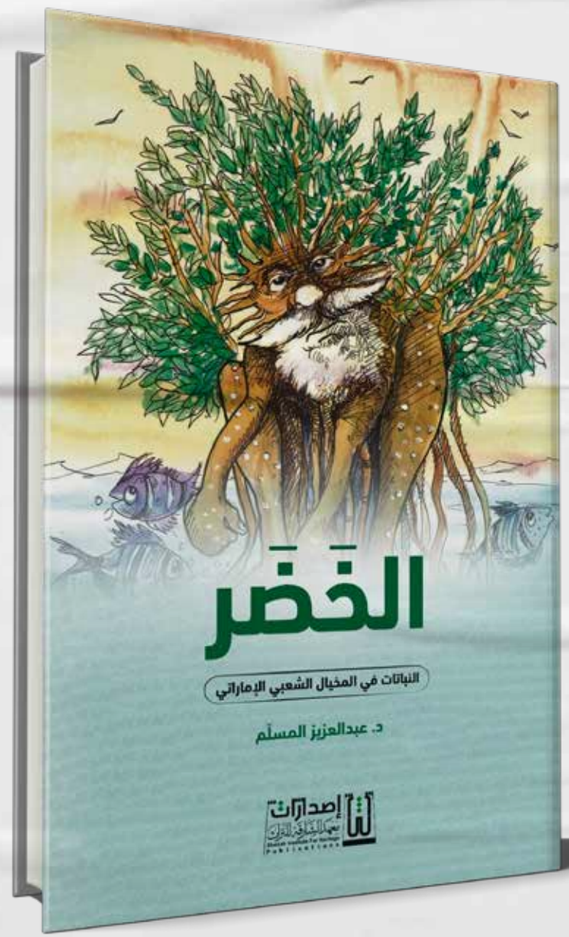

إدارة المحتوى والنشر
Content and Publishing Department
unesco
Centre
Under the auspices
of UNESCO
معهد الشارقة للتراث
SHARJAH INSTITUTE
FOR HERITAGE

مُرَاوِد

سياسة النشر

تعنى مجلة «مراود» بالتراث الثقافي الإماراتي بالدرجة الأولى، ثم العربي والعالمي، وتسعى من خلال أبوابها إلى الاضطلاع بتلك الغاية، والتركيز على موضوعات تراثية تتّسم بالجدة والموضوعية والتنوّع والشمول، ومقاربة التراث، بحثاً وتوثيقاً ودراسةً وتدقيقاً، كما تعمل المجلة على تتبّع تجليات التراث الثقافي في الأعمال الإبداعية الإماراتية والعربية من خلال الاحتفاء والتوظيف والاستحضار لمختلف عناصره ورموزه.

وتركّز المجلة على الموضوعات الثقافية والتراثية والإعلامية التي تلامس مختلف جوانب التراث الثقافي من مهن وحرف وألعاب وحكايات وأزياء وزينة وحلي وفنون وموسيقى.. وكل ما يتّصل بفروع التراث الثقافي وعناصره، محلياً وعربياً وعالمياً.

يشترط في المواد المقدّمة للنشر:

- الجِدّة والأصالة، وألا يكون سبق نشرها أو مقدّمة للنشر لدى مجلات أخرى.
- الموضوعية في الطرح والمصداقية في التناول.
- سلامة اللغة، وسلاسة الأسلوب.
- التوثيق العلمي وعزوُ كل قول إلى قائله.
- ألا تتضمن المواد ما ينافي المبادئ الأخلاقية والمقدسات الدينية أو يخدش الحياء، أو ينافي الذوق العام.
- ترفق مع المواد صور عالية الدقة والجودة.
- يراعى في ترتيب المواد المقدّمة للنشر الجانب الفني والموضوعي وفق رؤية هيئة تحرير المجلة.
- يحق لهيئة التحرير التصرف في صياغة المواد، متى كان ذلك ضرورياً، لتتماشى مع سياسة النشر، ومع الطرح الإعلامي المناسب للقارئ.
- إدارة التحرير غير ملزمة بشرح أسباب رفض نشر المواد ولا إرجاعها.
- المواد المنشورة لا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة، وإنما عن رأي كتّابها.
- تستقبل المواد والمشاركات على بريد المجلة الإلكتروني: **marawed@sih.gov.ae**

للتواصل مع إدارة التحرير:

0097165014898

marawed@sih.gov.ae

الافتتاحية

د. عبدالعزيز المسلّم

رئيس معهد الشارقة للتراث

رئيس التحرير

التراث والاستدامة

شهد عالمنا اليوم الكثير من التحولات، والتغيرات الكبرى التي طالت المجالات كافة، بما فيها التراث، وهي تغيرات عميقة، أفرزت معطيات جديدة، ظلت في تطور مستمر، خاصة مع انتشار الأوبئة والتلوث وغيرهما، ما تسبب في خسائر بشرية ومادية فاقت كل التصورات، وهي في تطور مطرد، وغدت مهددات خطرة على مستقبل البشرية. وفي غمرة هذا الواقع، بات موضوع الاستدامة من أكثر الموضوعات أهمية وحيوية؛ لما قد يسهم به في التصدي لتلك المخاطر أو التقليل منها على الأقل، استشرافاً لمستقبل أكثر أماناً، وهذا ما حدا صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، رئيس الدولة، حفظه الله ورعاه، يطلق عام 2023 عام الاستدامة، لجعل اليوم للغد، وهي مبادرة مهمة تنتظم ضمن الجهود الكبرى التي تبذلها الدولة من أجل تعزيز الاستدامة والتنمية المستدامة، بما يكفل تحقيق الأهداف المنشودة، وكانت إمارة الشارقة حاضنة لأول مدينة حققت الكثير من النجاحات، وحازت عدداً من الجوائز العالمية تقديراً لجهودها الاستثنائية في هذا المجال.

ومن هذا المنطلق سعينا في هذا العدد إلى البحث عن جوهر الموضوع، وبحث مختلف جوانبه، والغوص فيها، تحت عنوان: «التراث والاستدامة»، وذلك بغية التعرّف إلى صلة الاستدامة بالتراث في دولة الإمارات العربية المتحدة، وعلاقتها به، ثم ما هو الأفق المنظور لمستقبل التراث في نطاق تلك التحولات الكبرى؟ وفي العدد مقاربات عدة، ودراسات ورؤى متنوعة، استعرض فيها نخبة من الكتّاب جوانب قيّمة من عناصر التراث الثقافي، بما يشمله من معارف وفنون.

المحتويات

العدد 59 – أكتوبر 2023

مراود

الغلاف

10
ملف العدد
التراث والاستدامة

8
برامج وفعاليات
سلطان بن أحمد القاسمي يفتتح «ملتقى الشارقة للراوي»

50
موسيقا الشعوب
تحولات فن (النوبان) في الإمارات

54
فنون شعبية
فن الفجري

56
دراسة
النبات في الصورة الشعرية

60
خواطر
الشيخ أحمد الخميس قاضي الكويت ومعلمها

66
فضاءات
عن عالم القراءة

68
قراءة أدبية
«النبات والشجر».. كتاب للأصمعي عمره 12 قرنا

74
زاوية
متاحف الشارقة.. نموذج حي لجهود الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي في الحفاظ على التراث

80
ضوء
معبد الشمس إرث مستدام ومُسجل في قائمة اليونسكو

88
مقاربات
الطب الهندي في مواجهة أمراض العالم القديم

92
قصة التراث الشعبي
فولكلور الجسم الإنساني

مراود

مجلة منوعة تعنى بالتراث الثقافي

رئيس التحرير
د. عبد العزيز المسلم
رئيس معهد الشارقة للتراث

مستشار التحرير
د. ماجد بوشليبي
كاتب وخبير ثقافي

مدير التحرير
د. منّى بونعامة
مدير إدارة المحتوى والنشر

هيئة التحرير
أ. علي العبدان
أ. عتيج القبيسي
أ. عائشة الشامسي
أ. سارة إبراهيم

سكرتير التحرير
أحمد الشناوي

التصميم والإخراج الفني
منير حمود

التدقيق اللغوي
بسام الفحل

التصوير
قسم الإعلام

صورة الغلاف:
الأرشيف والمكتبة الوطنية

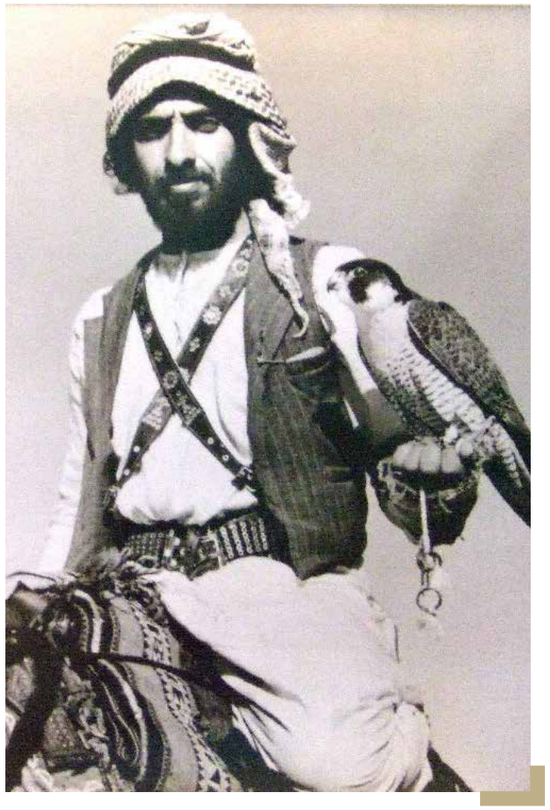

136
معارض تراثية
المعرض الدولي للصيد والفروسية
موروث الأجداد بطريقة عصرية

الآراء الواردة في المقالات، والتحقيقات، والمقابلات، تُعبر عن رأي أصحابها ومواقفهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي وتوجه المجلة، ويتحمل أصحابها المسؤولية الأدبية أمام الرأي العام، والقانونية أمام الجهات المختصة.

800TURATH
+971 6 5092666
marawed_sih
www.sih.gov.ae

ISBN 978-9948-37-768-9

عبق الماضي
98
الزمن الجميل لمدرسة المهلب والخليل (خورفكان)

استطلاع
102
تحت أشجار قصص ملتقى الراوي.. تستظل جلسات حوارية حول لنباتات وتكريم الرواة

افق
النباتات في أغاني النساء في صعيد مصر
107

حرف تراثية
النسجيات المرسمة في التراث العربي
112

كتابة ونقوش
الصحراء الأطلنتية
122

الموروث الشعبي
العالم الأخضر بين العلم والخيال
126

واحة القراءة
118
علم هندسة التراث العمراني

اصداء
130
ملتقى «الراوي» في الإعلام العربي والدولي

سلطان بن أحمد القاسمي

يفتتح «ملتقى الشارقة للراوي»

افتتح سمو الشيخ سلطان بن أحمد بن سلطان القاسمي، نائب حاكم الشارقة فعاليات الدورة الثالثة والعشرين لملتقى الشارقة الدولي للراوي في الثامن عشر من سبتمبر، بحضور كل من الشيخ ماجد بن سلطان القاسمي، رئيس دائرة شؤون الضواحي والقرى، وعبدالله محمد العويس، رئيس دائرة الثقافة، ومطر أحمد الخشري، رئيس هيئة الشارقة للثروة السمكية، ود. عبدالعزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقة للتراث رئيس اللجنة العليا لملتقى الشارقة الدولي للراوي، وعدد من كبار المسؤولين والمثقفين والرواة والمهتمين والإعلاميين.

ضيف الشرف

كرّم سمو الشيخ سلطان بن أحمد القاسمي، كلاً من علي شبيب خلف سالم الناعي، من دولة قطر، الفائز بجائزة الشخصية الفخرية، ومحمد سعيد محمد حمد البلوشي، وخولة محمد عبدالعزيز المناعي، من دولة قطر، الفائزين بجائزة الشخصية الاعتبارية، حيث حلّت دولة قطر ضيف شرف الملتقى في هذه الدورة، لما تمتلكه من مخزونٍ تراثيٍّ، وإرثٍ تاريخيٍّ، ممثّلة في أعلامِها وكنوزِها ورموزِها.

تكريم الرواة

كما كرّم سموه الرواة المكرمين من الكنوز البشرية في هذه الدورة، وهم: من علي فارس علي الكتبي، وخميس سالم محمد سالم النقبي، ومحمد راشد صبيح البدواوي، وموزة علي الدهماني، كما تفضل سموه بتكريم الفائزين بجائزة الشارقة الدولية للتراث الثقافي في دورتيها الثالثة والرابعة، إلى جانب أعضاء لجنة التحكيم.

«الشارقة للتراث»

ينال جائزة «التميز في صون التراث» من أكاديمية مغرب الحكايات

نال معهد الشارقة للتراث جائزة التميز في مجال صون التراث من الأكاديمية الدولية «مغرب الحكايات للتراث الثقافي اللامادي»، وذلك خلال حفل نظم في اليوم الختامي من فعاليات ملتقى الشارقة الدولي للراوي، في دورته الثالثة والعشرين، التي نظمت خلال الفترة 18–20 سبتمبر 2023، في مركز إكسبو الشارقة.

أفضل مؤسسة تسهم في صون التراث الثقافي وتنميته

جرى حفل التكريم في مسرح المعهد، حيث تسلم سعادة الدكتور عبدالعزيز المسلّم، رئيس المعهد، درع التميز من الأستاذة نجيمة طاي طاي، رئيسة الأكاديمية، باعتبار المعهد أفضل مؤسسة تسهم في صون التراث الثقافي وتنميته، وتقديراً لإسهامه

الجليل في إنجاح أنشطة وأهداف أكاديمية مغرب الحكايات.

«الشارقة للتراث»

يستقبل ممثل منظمة اليونسكو لدول الخليج واليمن

استقبل سعادة الدكتور عبدالعزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقة للتراث، في مقر المعهد، السيد صلاح خالد، ممثل منظمة اليونسكو لدول الخليج واليمن، وذلك في إطار تعزيز التعاون الثقافي المشترك، بحضور الأستاذة عائشة الحصان الشامسي، مديرة مركز التراث العربي. وتضمنت أجندة الزيارة إجراء جولة تفقدية للسيد صلاح

خالد يرافقه سعادة عبدالعزيز المسلّم وعدد من مديري الإدارات والمراكز، حيث تم الاطلاع على إمكانات المعهد ومرافقه والمراكز التابعة له، وشملت مكتبة الموروث، وقسم ترميم المخطوطات، ومركز المنظمات الدولية للتراث الثقافي، ومركز التراث العربي، والمعارض، والاستوديو الفني.

ملف العدد

التراث والاستدامة

التراث والاستدامة

فهد علي المعمري
باحث - الإمارات

إن الحديث عن التراث والاستدامة لهو حديث ليس بالأمر السهل، وليس بالحديث الواحد؛ بل هو حديث متفرّعٌ تتبعه أحاديث مرتبطة مع بعضها ارتباطاً وثيقاً، إن التراث هو تاريخ الأمة، وهو تاريخ الشعوب، والتراث هو إرث الأجداد للآباء، وإرث الآباء للأبناء، وهكذا تتوارث الأجيال تراث أجدادها وشعوبها، والسؤال الأهم، كيف نصل إلى استدامة التراث الشعبي؟ كيف نحقّق هذه الاستدامة؟ كيف نحافظ على هذا التراث؟ كيف يكون هذا التراث الشعبي جزءاً من حياتنا اليوميّة؟ أسئلة كثيرة تصبّ جميعها في قناة واحدة، وهي التراث والاستدامة.

ولكي نحقق الغاية المرجوّة في استدامة التراث لابد أن نحقق أهدافاً عدّة لنصل في نهاية المطاف إلى تراث مستدام ترتكز عليه الدولة في تحقيق غاياتها ورؤاها وأهدافها واستراتيجيّاتها عبر المدخلات والمخرجات، والتي تشكّل بالتالي استدامة التراث الشعبي في دولة الإمارات وفي بقية الدول والشعوب، وتأتي هذه الخطوات لتأصيل التراث الشعبي وبقائه ماثلاً للعيان، باقياً على قيد الحياة، وكأنه لم يغادرنا يوماً، أو يفارقنا يوماً، أو يبتعد عنّا يوماً، ولكنه بيننا؛ نعيش معه أمسنا ويومنا وحاضرنا ومستقبلنا، نحدّثه ويحدّثنا، نأخذ منه ويأخذ منّا، نعطيه من مستقبلنا ويعطينا من ماضيه.

نأتي الآن إلى كيفية العمل لنصل إلى استدامة التراث، وأرى من منظورٍ شخصي، بأن التراث باقٍ ما بقينا محافظين عليه، ومستمرين في التعامل معه، ولكن كيف يتسنّى لنا ذلك، هنا مكمن السؤال والجواب، ربما لو قمنا باتباع بعض الخطوات لاستطعنا استدامة التراث، وهو مصطلح لا يتفق مع إحياء التراث، فإحياء التراث هو مخاطبة التراث بلغة تحقق بقاء جزء من هذا التراث، وممارسة التراث بما يحاكي الماضي؛ وربما بشيء جديد، كأن تلبس الثوب الجميل الذي فيه كثير من التجديدات من الداخل، ولكنه أمام الناظرين هو الثوب القديم الذي نعدّه من التراث، وقس على ذلك جميع التراث المادي وغير المادي، أمّا استدامة التراث فهو محاكاة التراث، كما هو بكل مفرداته ومعانيه وأصوله.

ربمّا أجمل استدامة التراث في تسع نقاط، وهي من منظورٍ شخصي، خاضعة للزيادة والتوسع عند البعض، وهي:

1. وضع الخطط الاستراتيجية.
2. إقامة المحاضرات والأمسيات والأنشطة والفعاليات والمنتديات والملتقيات والمهرجانات والمؤتمرات والمعارض والأيام والقرى التراثيّة.
3. المحافظة على التراث العمراني الذي يؤصل الهويّة الوطنيّة.
4. الاستفادة والتنمية التراثيّة لكبار السن من خلال ممارسة التراث الشعبي، والاستفادة من تلك المخرجات المتمثّلة في الاستفادة المالية عبر الحِرَف الشعبية والصناعات التقليدية والمأكولات الشعبيّة.
5. تأهيل جيل يعرف ويمارس التراث الشعبي.
6. إنشاء المتاحف المفتوحة من خلال المباني والمنازل القديمة وبث الروح فيه لتعيش من جديد.
7. الاستثمار في مجال السياحة التراثيّة.

8. تأهيل الشباب والكوادر البشرية الوطنيّة في قطاع السياحة التراثيّة.
9. طباعة ونشر التراث الشعبي.

وإذا جئنا نفصّل القول قليلاً في كل نقطة من النقاط التسع التي ذكرناها، ونبدأ بالنقطة الأولى، وهي وضع الخطط والاستراتيجيات والتوجيهات، والتشريعات ودليل قواعد السلوك وإجراءات التراث المستدام، والمعاهدات والاتفاقيات الدولية والمفاهيم المتطورة في مجال استدامة التراث الثقافي والمناطق التاريخيّة، ومبادرة تنسيق المساحات الطبيعيّة الحضريّة التاريخيّة والمنهجيّة المتكاملة للمناطق التاريخيّة، إلى جانب حماية الجوانب غير الماديّة من التراث.

أمّا النقطة الثانية، وهي إقامة المحاضرات والأمسيات والأنشطة والفعاليات والمنتديات والملتقيات والمهرجانات والمؤتمرات والمعارض والقرى التراثيّة، وهذه الأمور جميعها تعمل على استدامه التراث، من خلال التوعية العامة بالتراث والموروث الشعبي، إضافة إلى ممارسة التراث الشعبي على مدار السنة بمختلف الأنشطة، فلو أخذنا مهرجان الشيخ زايد التراثي نموذجاً الذي يأتي تنظيمه في كل سنة عرفاناً بالدور المحوري للوالد المؤسس المغفور له، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه، في الحفاظ على تاريخ الإمارات ومشاعر الفخر للأجيال المقبلة في المستقبل، ويحتفي المهرجان بالإرث الثقافي لدولة الإمارات، كما يسلط الضوء على التنوع الغني للتقاليد المحليّة، ويوفر منصة ثقيفيّة لتعزيز مسيرة التنوير الثقافي، ونموذجاً آخر هو معرض أبوظبي الدولي للصيد والفروسيّة، ويتجلّى غنى المعرض وشموليته في الأقسام الـ11 المُتنوعة التي يضمّها، وتشمل قطاعات أسلحة ومعدات الصيد والرماية، ومُعدّات التخييم، والصقارة، والفروسية، الحفاظ على البيئة والتراث الثقافي والترويج لها، الفنون والحرف اليدوية، مركبات ومُعدّات الترفيه في الهواء الطلق، مُعدّات صيد الأسماك والرياضات البحريّة، المنتجات والخدمات البيطريّة، رحلات الصيد والسفاري وكل من المهرجان والمعرض يقام بتنفيذ دائرة الثقافة والسياحية بأبوظبي، وأيام الشارقة التراثيّة التي تثري زوارها على مدى ثلاثة أسابيع في كل سنة بالتراث والموروث الشعبي العالمي، وممارسة البيئات التراثيّة الثلاثة البحريّة والجبليّة والصحراويّة بجانب الفنون الأدائية الشعبية، ويتم تنفيذ هذه الأيام من قبل معهد الشارقة للتراث، وقبل أن نختم الحديث عن هذه النقطة نعرّج قليلاً إلى رحلة الهجن التي يقيمها مركز حمدان بن محمد لإحياء التراث في كل سنة، وهي محاكاةٌ لرحلات الأهالي قديماً من وإلى مختلف المناطق عبر الصحراء أو الجبال.

أما النقطة الثالثة، وهي المحافظة على التراث العمراني الذي يؤصل الهويّة الوطنيّة، فهذه النقطة تأتي من الأهميّة بمكان، حيث إن التراث العمراني يأتي في مقدمة بقاء القديم واتصاله بالحديث، كما تعمل استدامة المباني التراثيّة على جعلها دائماً في أفضل صورة يجذبان العديد من السائحين للدولة للتعرف إلى تراث وتقاليد الدولة بعيداً عن الأبراج والعمارة الحديثة المنتشرة، وبالتالي يكون لذلك عائد مادي إمّا يدخل في اقتصاد الدولة، وإمّا يسهم في الحفاظ على المباني نفسها وإعادة ترميمها وتطويرها، وبالتالي تحافظ على استدامتها.

أما النقطة الرابعة، وهي الاستفادة والتنمية التراثيّة لكبار السن من خلال ممارسة التراث الشعبي، والاستفادة من تلك المخرجات المتمثّلة في الاستفادة الماليّة عبر الحرف الشعبيّة والصناعات التقليديّة والمأكولات الشعبيّة، فإن الحرف التقليدية تعزز ارتباط الأجيال الجديدة بجذورها، وتكرس الماضي التليد في وجدانها، ما يعكس انتماءها الوطني، كما تأخذ الحرف التقليدية بيد المواطنين والمقيمين على حد سواء، وحتى السيّاح والزوّار لرحلة للماضي، الذي يعبق بروح التراث الإماراتي الأصيل، والاطلاع على المنتجات التقليديّة، بما فيها المواد والمهارات المطلوبة لإنتاجها، إلى جانب التعرف إلى الفن المعاصر بأيادي الحرفيّين والحرفيّات لتقديم أعمال مستوحاة من الحِرَف التقليديّة، وليس هذا فحسب، إذ تُكوّن روائع الحرف اليدويّة التي تُجسّد التاريخ العريق والتراث الأصيل والبيئة القديمة بدولة الإمارات حاضرة بقوة في شتى الفعاليات الثقافيّة والتراثيّة في الدولة، تسنح الفرصة لاستحضار موروثنا الزاخر، وإبراز الحِرَف التي ارتبطت بالآباء والأجداد، والحرص في الوقت ذاته على

رفـع القـدرات والمهـارات في تصميـم وتصنيـع وتسـويق المنتجـات المحليّـة، والحفـاظ عـلى الحـرف التراثيّـة، ورغـم كل هـذه المعطيـات يبقـى هنـاك أمـر مهـم، وهـو توفـير الدخـل المـادي مـن خـلال هـذه الحـرف التقليديـة، وبيعهـا في الأسـواق العامـة وفي المحافـل التراثيّـة، وبالتـالي تشـكّل اسـتدامة في الـتراث، وكسـب مـادي للقائمـين بعمـل تلـك الحـرف التقليديّـة.

فـإذا مـا انتقلنـا إلى النقطـة الخامسـة، وهـي تأهيـل جيـل يعـرف ويمـارس الـتراث الشـعبي، فإنهـا تتبـع النقطـة التـي قبلهـا، فـإنّ انخـراط الجيـل الحـالي لاسـيّما فئـة الشـباب في سـن العشريـن والثلاثـين الـذي يعمـل عـلى رفـع مكوناتـه وروافـده التراثيـة، مـن خـلال العمـل في الحِـرَف التقليديّـة والمشـاركة في الفنـون الأدائيّـة مثـل العيّالـة والرزيـف والعـازي، وكذلـك مهـارة الطبـخ في شـتّى أنـواع المأكـولات الشـعبيّة، وهـذا عامـل شـديد الأهميـة في مسـألة اسـتدامة الـتراث مـن جهـة، وكسـب المـال مـن جهـة ثانيـة، والتخصـص في بعـض فئـات الـتراث الشـعبي والإلمـام بمعارفـه مـن جهـة ثالثـة، وبالتـالي يقـوم هـؤلاء بعمـل تنشـيط الحـراك الـتراثي في المحافـل المتنوعـة للـتراث عـبر المهرجانـات والملتقيـات والأيـام والقـرى التراثيـة، وهـذا بـدوره يـؤدي إلى اسـتدامة الـتراث.

ويأخذنـا الحديـث إلى النقطـة السادسـة، وهـي تمثـل حلقـة البنـاء للنقطتـين السـابعة والثامنـة، وهـي إنشـاء المتاحـف المفتوحـة مـن خـلال المبـاني والمنـازل القديمـة وبـث الـروح فيهـا لتعيـش مـن جديـد، وهـذه المتاحـف المفتوحـة تُبْقِـي الـتراث العمـراني قائـم وينبـض بالحيـاة، ولايـزال يحتضـن الـزوّار كـما كان يحتضنهـم قبـل سـبعة وثمانيـة عقـود مضـت، وكأنـه بـاقٍ لم تغـيّره الأيـام والليـالي، ولم تعبـث بـه الريـاح والأمطـار، وبالتـالي تعمـل المتاحـف المفتوحـة عـلى أمريـن رئيسـين وهـما إحيـاء الـتراث العمـراني وصونـه وبقائـه في دائـرة الحيـاة، كـما أنـه يشـكّل مصـدراً للدخـل والاسـتثمار كونـه مـزاراً تراثيّـاً يتعـرف الـزوار مـن خلالـه إلى نمـط العـمارة التراثيـة في تلـك الدولـة؛ ومـا المـواد التـي تدخـل في بنـاء تلـك العامـرة التراثيّـة.

وتـأتي النقطـة السـابعة امتـداداً طبيعيـاً للنقطـة السادسـة، وهـي الاسـتثمار في مجـال السـياحة التراثيّـة، وهـذا الاسـتثمار يتطلـب المحافظـة عـلى الـتراث المـادي بالدرجـة الأولى مثـل القـلاع والحصـون والمربعـات والأبـراج والأفـلاج والمنـازل، والعمـل عـلى تأهيلهـا لتسـتقبل آلاف الـزوّار بشـكل يومـي، بحيـث توفـر دخـلاً ماليّـاً للدولـة، إضافـة إلى زيـادة الوفـود الزائـرة، ممّـا يكسـب الدولـة صفـة السـياحة التراثيّـة، وبالتـالي تصبـح وجهـة مهمـة لـكل مـن يعشـق الـتراث والعـمارة القديمـة. وكذلـك النقطـة الثامنـة تـأتي مُخرَجـاً للنقطـة السادسـة التـي ذكرناهـا سـالفاً، والنقطـة الثامنة هي تأهيل الشـباب والفتيـات والكـوادر البشريّـة الوطنيّـة في قطـاع السـياحة التراثيّـة، وذلـك يجتمـع أكـثر مـن مخـرج في هـذه النقطـة، فهنـاك الدخـل المـالي للدولـة، ثـم اسـتقبال الوفـود السـياحيّة بشـكل يومـي، لتكـون الدولـة وجهـة سـياحيّة يقصدهـا كل مـن يهتـم بالـتراث والآثـار، وأيضـاً إيجـاد الفـرص الوظيفيّـة لمختلـف الأعـمار لاسـيّما فئـة الشـباب، وهـذا بـدوره يؤكـد دراسـة التخصـص في قطـاع السـياحة في المنهـج الجامعـي، وبالتـالي تكـون الاسـتدامة في الـتراث هنـا في أوجهـا وذروتهـا.

ونختـم الحديـث بالنقطـة التاسـعة والأخـيرة، وهـي طباعـة ونـشر الـتراث الشـعبي، وهـذه النقطـة تتجـلّى أهميتهـا في حفـظ الـتراث والمـوروث وتدوينـه مـن صـدور الـرواة والذاكـرة المكانيـة، وجعلهـا بـين دفّتـي الكتـاب، لنظيف كل فئـات الـتراث المـادي وغـير المـادي، وكذلـك إعـادة طبـع الكتـب القديمـة والتـي يصعـب الحصـول عليهـا، وربمـا تكـون حفظـت في صفحاتهـا مـا لم يطبـع بعـد.

فـإذا مـا توصّلنـا إلى تحقيـق هـذه النقـاط التسـع ربمّـا اسـتطعنا تحقيـق الأهـداف والغايـات المرجـوّة في حفـظ الـتراث واسـتدامته؛ ليبقـى خالـداً تالـداً تتناقلـه الأجيـال ليبقـى شـاهداً عـلى تـراث الأمـم والشـعوب، وبالتـالي نحقّـق كل مـا نصبـو إليـه في اسـتدامة الـتراث.

التراث الثقافي والاستدامة

د. عادل الكسادي
باحث ومحاضر
بمعهد الشارقة للتراث

نتناول في هذا العرض الدور الذي يمكن أن يطلع به التراث الثقافي في الاستدامة أو في التنمية المستدامة، ونشرح هنا عدداً من محاور هذا الموضوع، ونبدأ بتعريف المصطلحات المرتبطة بهذا الموضوع، كمصطلح التراث الثقافي، ومصطلح الاستدامة والتنمية المستدامة، ومتى ظهر ذكر التراث في أدبيات الأمم المتحدة؟ والتطور المفاهيمي والتاريخي لمصطلح التراث الثقافي وعلاقته بالتنمية المستدامة، وأهداف التنمية المستدامة، وكيف يمكن الاستفادة من التراث في تحقيق أهداف التنمية المستدامة؟

تناولت المعاجم اللغوية والقواميس مصطلح التراث، ومنها معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب «فالتراث ما خلفه السلف من آثار علمية وفنية وأدبية، مما يعتبر نفيساً بالنسبة لتقاليد العصر الحاضر وروحه، ولاشك في أن التراث هو جزءاً من الثقافة بمعناها الأنثروبولوجي الواسع».

يشمل التراث الثقافي الأعمال المادية وغير المادية التي يعبر بها الناس عن قدراتهم الإبداعية مثل: اللغات، والطقوس، والمعتقدات والمعارف، والعادات والتقاليد، والفنون والحرف، والمواقع والآثار التاريخية، والأدب، والأعمال الفنية، والمكتبات. وينقسم التراث الثقافي إلى قسمين: القسم الأول هو التراث الثقافي المادي، ويشمل المباني والنقوش والتحف، والآثار، والأفلاج، والحصون، والأبراج.... إلخ، وكل ما خلفته الحضارات البائدة من عناصر التراث الثقافي المادي، كما يشمل هذا القسم التراث الطبيعي كالأنهار والبحار والأشجار والجبال.

والقسم الثاني هو التراث الثقافي غير المادي، أو التراث الثقافي المعنوي. ويقصد بعبارة التراث الثقافي غير المادي «الممارسات والتصورات وأشكال التعبير والمعارف والمهارات، وما يرتبط بها من آلات وقطع ومصنوعات وأماكن ثقافية، التي تعدها جزءاً من تراثهم الثقافي». و«التراث الثقافي غير المادي هو العادات والتقاليد والقيم والآداب والفنون والحرف والمهارات وشتى المعارف الشعبية التي أبدعها وصاغها المجتمع عبر تجاربه الطويلة التي يتداولها أفراده ويتعلمونها بطريقة عفوية، ويلتزمونها في سلوكهم وتعاملهم، حيث إنها تمثل أنماطاً ثقافية مميزة تربط الفرد بالجماعة، كما تصل الحاضر بالماضي. وبذلك فهو - أي التراث - يشكل هوية المجتمع وشخصيته الحضارية».

اقتصر تعريف اليونسكو للتراث في بادئ الأمر، على بعد محدد يتصل بالبقايا الأثرية أو المادية التي خلفها الإنسان عبر العصور، غير أن معانيه ومدلولاته تطورت تدريجيّاً، وتشعبت لتشمل التراث غير المادي الذي ينطوي على المخزون الذهني للشعوب والمجتمعات

الحية، وما أنتجته من تراث يتناقل بالتواتر، من جيل إلى جيل، عبر شبكة الشفاهية أو الممارسة وغيرهما. لقد اتسع مفهوم التراث الثقافي في وقتنا الحاضر ليتناول الثقافات البائدة منها والحية على السواء، سواء ما كان يتصل بآثارها ومواقعها التاريخية ومخلفاتها المادية الأخرى، أو ما يدور منها في فلك روحانيات الشعوب وذاكرتها.

عُرِف التراث الثقافي غير المادي، حسب الاتفاقية التي صدرت عن اليونسكو في باريس 17 أكتوبر 2003م، وسُميت بـ«اتفاقية صون التراث الثقافي غير المادي»، بأنه: «الممارسات، والتصورات، وأشكال التعبير، والمعارف، والمهارات وما يرتبط بها من آلات، وقطع ومصنوعات، وأماكن ثقافية، والتي تعتبرها الجماعات والمجموعات، وأحياناً الأفراد، جزءاً من تراثهم الثقافي. وهذا التراث الثقافي غير المادي ينتقل من جيل إلى جيل، ويقع بعثه من جديد من قِبل الجماعات، والمجموعات طبقاً لبيئتهم، وتفاعلهم مع الطبيعة ومع تاريخهم، وهو يعطيهم الشعور بالهوية والاستمرارية، بما يسهم في تطوير احترام التنوع الثقافي، والإبداع الإنساني».

الاستدامة بمعنى استمرار الشيء ودوامه، والاستدامة هي «تحسين نوعية الحياة البشرية، حين نعيش ضمن الطاقة الاستيعابية للنظم البيئية الداعمة». استخدم مصطلح الاستدامة لأول مرة في ثمانينيات القرن العشرين، وعُرّف من قبل مفوضية الأمم المتحدة للبيئة والتنمية في عام 1987 بأن التنمية المستدامة هي التنمية التي تفي بحاجات الوقت الحاضر دون المساس بقدرة الأجيال المقبلة على تلبية حاجاتها الخاصة.

لقد تطور مفهوم الاستدامة على مدى العقود الخمسة الماضية، وفي قمة الأرض سنة 1992 في ريودي جانيرو في البرازيل، توسع مفهوم التنمية المستدامة ليضمن العناصر المكونة الثلاثة وهي: حماية البيئة، والنمو الاقتصادي، والمساواة الاجتماعية، والجوع، ولاتزال هناك العديد من المشكلات والتحديات التي تواجه الإنسانية، ومن أكبر تلك التحديات «التغير المناخي»، نقص المياه، عدم المساواة، وغيرها من المشكلات والتحديات التي لا يمكن أن تحل بشكل فردي، وكان لزاماً على المجتمع الدولي التعاون من أجل تعزيز التنمية المستدامة مراعين في ذلك البعد الاجتماعي والاقتصادي والبيئي. ومن أجل تحقيق ذلك والتزاماً بدورها المنوط به، وافقت الأمم المتحدة على

أجندة 2030 للتنمية المستدامة التي صدرت سنة 2015 محتوية على أهداف التنمية المستدامة 17، وداعية دول العالم إلى الالتزام بتحقيق هذه الأهداف ضمن خططها الاستراتيجية والتنموية، واضعين في الاعتبار أبعاد التنمية المستدامة الثلاثة الاقتصادي والاجتماعي والبيئي، وأخيراً إضافة الثقافة كبعد رابع، وعمود رئيس من أعمدة التنمية المستدامة.

والتنمية المستدامة هي مصطلح بيئي، اقتصادي، اجتماعي، رسمت به هيئة الأمم المتحدة خريطة التنمية البيئية والاجتماعية والاقتصادية على مستوى العالم، هدفها الأول هو تحسين ظروف المعيشة لكل فرد في المجتمع، وتطوير وسائل الإنتاج وأساليبه، وإدارتها بطرق لا تؤدي إلى استنزاف موارد كوكب الأرض الطبيعية حتى لا نحمل الكوكب فوق طاقته.

متى ظهر التراث في خطط وأهداف التنمية ا لمستد ا مة ؟

على الرغم من المطالبة بإدراج الثقافة كبعد رابع من أبعاد التنمية المستدامة في مؤتمر مكسيكو سيتي سنة 2010، إلا أنها لم تذكر بشكل فاعل سوى في خطة 2030 التي تضمنت الأهداف 17 للتنمية المستدامة، ولأول مرة يشار إلى التراث الثقافي والطبيعي بشكل مباشر كأحد مقاصد الهدف 11 من أهداف التنمية المستدامة، وهو الهدف الخاص بجعل المدن والمستوطنات البشرية شاملة الجميع وآمنة وقادرة على الصمود ومستدامة.

الهدف 11 من أهداف التنمية المستدامة ينص على «جعل المدن والمستوطنات البشرية شاملة للجميع وآمنه وقادرة على الصمود ومستدامة. وتنص الغاية الرابعة من هذا الهدف إلى تعزيز الجهود الرامية إلى حماية، وصون التراث الثقافي والطبيعي العالمي».

إن الهدف النهائي لاتفاقية صون التراث الثقافي غير المادي، هو صون التراث الثقافي غير المادي بما يتلاءم ومتطلبات التنمية المستدامة، وإمكانات إسهامه في تحسين نوعية الحياة، وإيجاد مصادر دخل للجماعات المستهدفة، وتطوير إسهامات وتجليات التراث الثقافي غير المادي في التنمية المستدامة، فالتراث الثقافي كائن حي تبدعه الجماعات من جديد بصورة مستمرة، وأنه يسهم في كثير من الحالات، ليس فقط في التنمية الاقتصادية المستدامة للمجتمعات المحلية والجماعات والمناطق التي يعيشون فيها، فالأهم من ذلك ربما هو إسهام هذا التراث وعملية صونه في التنمية الاجتماعية المحلية والجماعات وازدهارها.

الإمارات
ودورها في استدامة التراث

فاطمة سلطان المزروعي
رئيس قسم الأرشيف الوطني

منذ أن أطلق صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، رئيس الدولة، حفظه الله، عام 2023 عاماً للاستدامة، بدأت دولة الإمارات حالة من الاستنفار في جميع الميادين، فسعت إلى إقامة المبادرات والفعاليات والأنشطة المنوعة التي تسلط الضوء على تراثها الغني، وذلك امتداد لنهج الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رحمه الله، في الحفاظ على البيئة المستدامة.

تحرص دولة الإمارات العربية على إقامة العديد من المهرجانات والفعاليات السنوية التي تحتفي بالتراث المحلي، وتسعى للحفاظ عليه، ومن أبرزها سباقات القوارب الشراعية، وسباقات الهجن، ومهرجان قصر الحصن، ومهرجان الشيخ زايد التراثي، ومهرجان سويحان، ومهرجان الظفرة، ومهرجان ليوا للرطب، ومهرجان الراوي، وفعاليات أيام الشارقة التراثية، لقد استطاعت دولة الإمارات أن تعمل على حماية التراث عبر استدامته والحفاظ عليه، من خلال هذه المهرجانات والفعاليات وغيرها، لقد لعبت المؤسسات التراثية الدور الكبير عبر المشاركة والتعبير عن تراثها في معارض الصيد والفروسية ومهرجان التراث البحري، لقد كان لهذه المهرجانات قيمة كبيرة لدى أبناء الإمارات، فأحيت رياضات الأجداد وهواياتهم، كسباق الهجن والقنص والتجديف، وساعدت على إقامة المعارض وعمقت جسور التواصل عبر الأجيال، بتضمين التراث في المناهج التعليمية، لتكون جزءاً من تربية النشء في مراحله الدراسية.

لقد ارتبطت المجالس الإماراتية في المجتمع الإماراتي بالتنشئة الاجتماعية والتعاون والتكاتف والترابط والتواصل والتربية وتنشئة الأجيال والعمق الثقافي، والهوية الشخصية لصاحب المجلس، ولا يمكن لأحد أن يدرك أهمية هذا العنصر المادي في المجتمع الإماراتي، إلا إذا كان على وعي كامل بالعمق الثقافي الذي يمثله المجلس ودلالاته وأهميته الرمزية المرتبطة بشخصية الفرد الإماراتي، تعود فكرة المجالس إلى ما قبل الثلاثينيات، ولا تزال تعقد حتى الآن، فقد حرص الحكام على عقد مجالسهم أو ما يعرف بالدواوين أو البرزة التي يفد إليها الأعيان والأدباء ووجهاء البلد والشعراء، يتبادلون فيها الآراء، ويفد إليها

عامة الناس وذو الحاجات، لقد شكلت تلك الملتقيات والمجالس الاجتماعية رافداً مهماً ساعد على إثراء ثقافة الحوار، والتعرف إلى الآخر، كما أن المجالس كان لها الدور الكبير في ظهور كثير من البوادر الثقافية، وقد أسهمت في دعم النهضة الثقافية وغيرها من المبادرات التي تبنتها المجالس المفتوحة، من خلال طرح الرؤى والأفكار، وتبادل الآراء حول العديد من القضايا والظواهر الاجتماعية، ولاسيما في شهر رمضان الذي تعقد فيه كثير من الجلسات والحوارات، ويحرص على حضورها كثير من النخب والشخصيات العامة، ويمثل الحرص على عليها جزءاً من الحرص على الثقافة الإبداعية المستدامة، لقد استطاعت دولة الإمارات أن تسوق تراثها عالمياً، وتجعل منه تراثاً مستداماً، من خلال الترويج له والاحتفاء به، لقد استطاعت أن تقدم نموذجاً عربياً أصيلاً للانفتاح على الحداثة والمستقبل، دون التفريط في الهوية والأصالة والانتماء، لقد أصبحت نموذجاً عالمياً في التعايش والحوار والتفاهم بين مئات الجنسيات المختلفة، لقد أسهمت المؤسسات التراثية في الدولة والمتاحف الحكومية والخاصة في تنظيم كثير من البرامج المستدامة، وتنظيم المهرجانات الثقافية، وإنشاء المراكز الثقافية والمتاحف والمعارض وورش العمل والاحتفاء بالفعاليات التراثية، والحفاظ على المواقع والمعالم التاريخية والسعي نحو ترميمها، حيث تمثل الأبنية التاريخية اليوم في شكلها الهندسي والمعماري جانباً مهماً من تاريخ الدولة والمجتمع الإماراتي، حيث يعود بعضها إلى العصر البرونزي، أو من خلال أهميتها التراثية، ما يجعل ترميمها ضرورة مهمة وأمراً ملحاً، يحتم علينا الحفاظ عليها، لقد قامت الدولة بجهود كبيرة في سبيل الحفاظ على المباني التاريخية وترميمها وصيانتها، رغم المخاطر الكبيرة التي تكتنف عملية الترميم، منذ عام 1985 تم ترميم قرابة 160 مبنى تاريخياً، شملت قلاعاً وأبراج مراقبة ومباني سكنية ومساجد وغيرها، بحسب تقرير مجلة «الحصن»، الصادرة عن بنك أبوظبي التجاري منها قصر الحصن في أبوظبي، الذي يعود بناؤه إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ويعد من أكثر المباني التاريخية التي جرى ترميمها، نظراً لأهميته التاريخية والحضارية بالنسبة لإمارة أبوظبي والإمارات بشكل عام، كما تم ترميم مسجد الجاهلي، الذي يعود تاريخه إلى القرن التاسع عشر، ومنزل حمد بن هادي الدرمكي، الذي يعود تاريخه للقرن الثامن عشر، وقلعة الجاهلي التي تم ترميمها بدقة خلال السنوات الأخيرة. وتواصل هيئة أبوظبي للثقافة والسياحة دورها في ترميم المباني التاريخية في إمارة أبوظبي، حيث تضم مدينة العين العديد من المباني التاريخية الطينية، التي تشكل جزءاً من التراث المتميز لإمارة أبوظبي، والتي تحتاج إلى حماية عاجلة، بسبب طبيعتها الهشّة، والتدهور الحاصل لها، حيث أطلقت الهيئة برنامج ترميم الطوارئ في عام 2008، لتلبية الاحتياجات العاجلة لحفظ هذه المباني، وتقييم الأضرار، واتخاذ تدابير فورية لمساعدتها على البقاء، كما تواصل بلدية دبي إعادة ترميم قرابة 160 مبنى تاريخياً، منها قلاع وأبراج مراقبة ومبان سكنية ومساجد وأسواق، وتهدف إلى زيادة العدد إلى 220 معلماً بحلول عام 2016، من بينها منطقة الشندغة، وتم التركيز بشكل خاص على منزل الشيخ سعيد آل مكتوم، الذي يعود تاريخ بنائه إلى عام 1896، كما سعت بلدية دبي لإنجاز أكثر من 20 مشروعاً من مشاريع ترميم وتأهيل المباني التاريخية، انطلاقاً من أهمية الحفاظ على التراث، تم ترميم عدد من المباني الأثرية مثل: حصن الفهيدي، المدرسة الأحمدية، بيت التراث، بيت الوكيل، مجلس الغرفة في منطقة الجميرا، وبرج نهار، والبراحة، وقرية حتا التاريخية وغيرها... و تتولىّ «إدارة التراث العمراني» عمليات إعادة البناء، التي لا تقلّ دقّة عن عمليات الترميم. وتتم إعادة البناء من خلال دراسة متأنّية، يقوم فيها الأجداد والأبناء الذين سكنوا في هذه البيوت أو هذه المناطق، بتقديم المساعدة، بالاعتماد على عدد من الإثباتات اللازمة من صور ووثائق. وتتمّ عملية البناء بالمواد القديمة التي كانت تُستخدم في حينها، ولا تأخذ المواد الجديدة في الاعتبار، فمثلاً يستخدم الحجر القديم، المرجاني، وليس الطابوق، بل الحجر الصدفي، ومواد الجبس، والخشب والصاروج والنورة. ولابدّ من أن تكون هذه العملية مترابطة مع بعضها.

ولا تترك المباني التاريخية من دون صيانة أو ترميم لفترة طويلة؛ لأنّها سرعان ما تتأثّر بعوامل الطبيعة والظروف المناخيّة. كما تقوم «إدارة التراث العمراني» بمراقبة 200 مبنى تراثي في إمارة دبي.

وغني عن الذكر أن ترميم المباني القديمة في الإمارات، كما في غيرها من الدول، يعتبر إحياءً لماضي الدولة وحضارتها، وما يزخر به تاريخها من ثراء وغنى، كما يوثّق لحقب تاريخية موغلة في القدم، تعبّر عن عراقة المكان وتنوّعه، وهذا ما يفسّر بوضوح عناية واهتمام المؤسسات الحكومية المختصة بالعكوف على ترميم المباني القديمة في الدولة، والمحافظة على تاريخها وتراثها، وتحويلها إلى أماكن سياحية مهمة.

لقد استطاعت دولة الإمارات خلال أكثر من خمسين عاماً أن تحقق رؤيتها، فمنذ عام 1971 قدمت نموذجاً عالمياً يدل على عظمة هذه الدولة التي أصبحت معالمها محطات مستدامة. لقد تصدرت دولة الإمارات مصاف الدول العالمية بمعالمها التراثية وهندستها للمستقبل بقيادة صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، رئيس الدولة، في جعل الإمارات قوة اقتصادية متنوعة مستدامة، والانتقال من عالم الصحراء إلى عالم متحضر مستدام، يسهم في الحفاظ على الهوية والتراث المحلي.

استدامة التراث..
رؤية وتطلعات للمستقبل

مريم سلطان المزروعي
كاتبة - الإمارات

أعلن صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، رئيس الدولة، عام 2023 عام الاستدامة، تحت شعار «اليوم للغد»، شعار يجسّد نهج الإمارات وأهدافها ورؤيتها في مجال الاستدامة ومسؤوليتها في مواجهة التحديات، لترك إرثاً إيجابياً للأجيال المقبلة، وذلك لتسريع وتيرة التنمية المستدامة، ولا يمكن أن نغفل الدور الذي تقوم به دولة الإمارات العربية المتحدة للمحافظة على الموروث الثقافي والاجتماعي والاقتصادي الذي يصب في جميع المجالات، بتعددها من خلال الجهات والمؤسسات المعنية بالمحافظة على التراث، فالموروث مرتبط بالثقافة والتراث، والاستدامة هي إحدى أهم ركائز إطار العمل بشأن التراث الثقافي، وذلك لقدرتها على تعزيز رأس المال الاجتماعي، وحماية البيئة والتراث والطاقات المتجددة؛ بحيث التغير يكون للأفضل، وجعلها أكثر استدامة عبر تفجير طاقات وإمكانات التنمية المستدامة من أجل مستقبل مشرق وعالم أفضل .

يعدّ التراث جوهر الهوية ودليل الانتماء الذي يميز به شعب عن آخر، ويشكل بصمته وحاضره ومستقبله، وإذا جئنا إلى تعريف التراث المستدام، فهو دور التراث بأنواعه ومستقبله في التنمية المستدامة، من خلال مناقشة القرارات والخيارات التي يمكن اتخاذها وصولاً للتنمية المستدامة دون التغرب عن الهوية والانتماء، والتراث عامل مهم في التنمية الحضرية المستدامة دون التغرب عن الهوية والانتماء، ولتحقيق ذلك يكون بالاهتمام بالمباني التراثية وأثرها في مستقبل مستدام وتسليط الضوء على المباني والأماكن التاريخية ودورها في الحفاظ على الهويات المحلية، فضلاً عن البحث في سبيل استعادة مواقع التراث المعرضة للدمار والخطر، وإعادة ترميمها باستخدام تقنيات ومهارات ومواد التجديد التقليدية كجزء من التنمية الحضرية المستدامة اجتماعياً وبيئياً. إن أحد أهم وجوه التراث المستدام يتجلى في زيادة تقدير للتراث الطبيعي، مع الاهتمام بالإدارة الاستراتيجية للمناظر الطبيعية والحفاظ على الحياة البرية والتنوع البيولوجي، ويشمل التراث المستدام دور السياحة أيضاً، فالمهم هو الحفاظ على هوية المجتمعات، وضمان استمرارية التقاليد والأنشطة الثقافية التراثية التي تدخل في إطار «التعبير الثقافي».

إن تشكل الموروث الثقافي مصدراً مهماً من مصادر الثقافة الإماراتية؛ إذ يجسد خصوصيتها في عادات المجتمع وتقاليده، وقد أسهم هذا في تنوع مصادر هذا الموروث، وتنوع البيئة الجغرافية في مجتمع ما قبل النفط، بتنوع بيئاته الجغرافية المتنوعة بين الساحل والصحراء والجبال والريف أو المزارع، الذي شكّل في مجموعه ملامح ثقافية مجتمعية، ربط بينها بنظام قبلي له عاداته وتقاليده وقيمه، وقد قامت المؤسسات المجتمعية بدور بارز في إظهار القيم الحضارية والتراثية والتاريخية للدولة، والقيام بمسؤولياتها، وأحيت رياضات الأجداد وهوياتهم كسباقات الهجن والقنص والتجديف، وأقيمت المعارض التي تُعرف بالمشغولات اليدوية التراثية، وعمقت جسوراً متينة من التواصل بين الأجيال عبر إحياء العادات والتقاليد المجتمعية الأصيلة في نفوس الأبناء وسلوكهم، وتتشابك فيه المفردات والمعطيات بآليات الاستدامة وترفدها بالوقت نفسها، فالجانب المادي من التراث يتضمن المتاحف التراثية والترويج والتسويق للتراث العمراني والبعد الاقتصادي والسياحة الثقافية والتوازن بين التنمية المستدامة ومتطلبات السياحة والحفاظ على التراث العمراني والسياحة، وأثرها في

الحفاظ على التراث العمراني، وهذه المباني الأثرية والتراثية، هي الأكثر وضوحاً في عكس ما تتلقاه من استدامة في الحفاظ عليها وبث الحياة بين جنباتها، وإبراز ثمار الاستدامة ونتائجها، فالاستدامة في هذا الجانب مهم للمحافظة عليها، لأنها انعكاس لحضارة المنطقة وتطورها، وتحول المفهوم تدريجياً من حماية المباني التاريخية إلى مفهوم الحفاظ المستدام وعملية الإبقاء وصون المنشأ جنباً إلى جنب، مع الأخذ بعين الاعتبار صون وبقاء المنشأ وعلاقتها بنسيجها الحضاري وخصائصها وارتباطاتها به، من خلال الترميم والتجديد للمباني التراثية، وتحويلها إلى متاحف أو مزارات سياحية، والحفاظ على المباني التراثية وحمايتها ودعمها وإعادة إنشائها.

إن الإمارات ارتبطت بالاستدامة، وتشربت بمفاهيمها والمبادئ التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ، وركناً أساسياً لتطور وتقدم البلاد، وقد أصبحت من أكثر الدول سعياً للاستدامة، بجهودها ومبادراتها وسياساتها واستثماراتها السياحية للمناطق التراثية، فلقد سعت بكل قوة لتوثيق العديد من تراثها في منظمة اليونسكو، إلى جانب إنها سعت إلى ترميم وإعادة تشييد العديد من القلاع والآثار القديمة، وتحويل بعضها إلى متاحف ومراكز لعقد المؤتمرات والدورات والورش لاستقبال الطلبة ومحبي التراث والسياح، كما اهتمت

باستقطاب الأجداد وحافظي التراث، ودعمت الباحثين واهتمت ببحوثهم لتوثيق التراث، واتباع منهجيات وأساليب للتعامل لتحقيق تراث مستدام مع الاهتمام بالأبحاث والدراسات الحديثة للبيئة التراثية المستدامة، والأبعاد والجوانب الحضرية لاستدامة المناطق التاريخية، والمفهوم المتغير للأصالة والسلامة وانعكاساته على مواقع التراث العالمي، وإدارة المناطق التاريخية وتنميتها وتطويرها، إلى جانب الشراكة والتعاون بين المؤسسات العامة والخاصة، واستخدام تقنيات حديثة وتطبيقات لإيجاد حلول ذكية للحفاظ على التراث والممارسات المستدامة ضمن وسائل الإعلام الاجتماعية المعلقة بالمواقع التاريخية. الجهود مستمرة في مجال صون التراث وضمان استدامته. وأكبر مثال «متحف الشندغة» في حي الشندغة، أبرز المناطق التاريخية في إمارة دبي، وشاهد على نشأة الإمارة وازدهارها، ويروي تاريخ الإمارة وتراثها العريق، ويحمل بين جنباتها عبق الماضي بمساحاته الشاسعة ومرافقه المتنوعة ومشروعاته المرتبطة بالتراث، يعتبر أكبر متحف تراثي في الإمارات، يسرد قصة عالمية للإنجاز البشري، يأخذنا إلى مستقبل مشرق بشكل مبتكر وخلاق ومبدع وكنوزه المرتبطة برؤية ورسالة الدولة، بسياسة استثمار الثقافة وعناصرها في مجال الصناعات الإبداعية، والهدف منها تعزيز التنمية المستدامة للمجتمعات والاقتصادات الحديثة، بهدف خلق فرص استثمارية إبداعية.

كما وجه صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، بتحويل منطقة الشندغة إلى متحف مفتوح، يعرض للعالم قصة دبي الملهمة، ويعرّف بإنجازاتها الفريدة، بما لها من أبعاد إنسانية وحضارية، يلخصها سموه في كلامه العميق إلى العالم: «متاحفنا منارات ثقافية، وشواهد على تراثنا الأصيل، نريد للعالم أن يتعرف إلى قصة دبي وتاريخها العريق، كانت ملتقى التُّجار والباحثين عن حياة أفضل، وستبقى القلب النابض لحضارات العالم ثقافياً وإنسانياً».

الاستدامة والتراث

د. سالم زايد الطنيجي
كاتب وباحث تراثي - الإمارات

يعدّ التراث الثقافي من أهم العوامل التي تميز الشعوب، وتشكل جوهر هويتها، إنه يمثل الإرث الذي يتركه الأجداد للأجيال القادمة، حيث يشمل العادات والتقاليد والمعارف والفنون التي تميز مجتمعاً معيناً، إن الحفاظ على هذا التراث يعدّ مسؤولية جماعية وطنية ودولية، إذ يسهم في تعزيز الانتماء والانفتاح على التنوع الثقافي.

وعلى الرغم من أن التراث يعدّ مصدراً للفخر والهوية، إلا أنه يواجه تحديات كبيرة ناتجة عن التقدم التكنولوجي والتغيرات الاجتماعية، فقد يتعرض التراث لخطر الاندثار أو التشويه نتيجة للضغوط البيئية والاقتصادية والثقافية.

يأتي مفهوم الاستدامة للمساعدة على التصدي لهذه التحديات. إن الاستدامة تعنى بتحقيق التوازن بين تلبية احتياجات الأجيال الحالية دون المساس بقدرة الأجيال القادمة على تلبية احتياجاتها، وبالتالي، فإن الحفاظ على التراث يعد جزءاً أساسياً من مفهوم الاستدامة، حيث يتعين علينا العمل على توفير الحماية والرعاية لهذه الثروات الثقافية من خلال اتخاذ التدابير الضرورية. وتتضمن استراتيجيات الاستدامة للتراث توثيق ودراسة الموروثات الثقافية، وتطوير برامج للتثقيف والتوعية بأهميتها، ودمجها في الحياة اليومية للمجتمعات. كما يجب تشجيع المبادرات التي تدعم الحرف اليدوية والفنون التقليدية، وتعزيز التفاعل بين الأجيال لنقل المعرفة والمهارات.

بالإضافة إلى ذلك، تتطلب الاستدامة أيضاً تحقيق توازن بين التطور الحضري والحفاظ على البيئة الطبيعية والمناظر الطبيعية التي تشكل جزءاً من التراث. يجب أن تكون هناك خطط محكمة للتنمية تأخذ في اعتبارها الحفاظ على الأماكن التاريخية والمعمار والمناطق الطبيعية.

إضافة إلى الجهود التي يجب بذلها للحفاظ على التراث الثقافي، يجب أيضاً تشجيع التواصل والتبادل الثقافي بين الشعوب والثقافات المختلفة. يمكن أن تسهم هذه العمليات في تعزيز التفاهم المتبادل وتقوية العلاقات بين الأمم، مما يسهم في بناء جسور السلام والتعاون الدولي.

علاوة على ذلك، يتوجب علينا أيضاً توجيه الاهتمام إلى تطوير المناهج التعليمية لضمان تضمين التراث الثقافي كجزء أساسي منها. يجب أن يكون التعلم عن التراث شاملاً ومتاحاً للجميع، سواء في المدارس أو من خلال وسائل التعلم الرقمية والمكتبات المتاحة على الإنترنت. من ناحية أخرى، يجب تعزيز دور الجمعيات والمؤسسات الثقافية في دعم الفعاليات والفعاليات الثقافية والفنية. إن توفير المنصات التي تسمح للفنانين والحرفيين بعرض مواهبهم وإبداعاتهم يعزز من حيوية التراث، ويشجع على استمرارية هذه الفنون والصناعات التقليدية.

وفي السياق نفسه، تلعب السياحة الثقافية دوراً كبيراً في تعزيز الاستدامة. توفير فرص للزوار لاستكشاف المواقع الثقافية والتاريخية، يمكن أن يكون مصدراً للدخل والتنمية المحلية. ومع ذلك، يجب أن تتم هذه الأنشطة السياحية بشكل مستدام، مع مراعاة حماية البيئة والحفاظ على التراث بشكل صحيح.

ولذلك يظهر التراث والاستدامة تكاملاً وثيقاً بين الحفاظ على الثروات الثقافية، وضمان استمرارية هذا الإرث للأجيال القادمة. إن الاستثمار في التراث يعزز التنمية المستدامة، ويعكس الاهتمام بالتنوع الثقافي الذي يثري الحضارات، ويمكّنها من الازدهار.

الاستدامة في القرآن الكريم

القرآن الكريم يحث المسلمين على الاستدامة وحماية البيئة، هنا بعض الأمثلة من القرآن الكريم تتعلق بالأكل والشرب:

1. تدبير الموارد» :وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً« (الفرقان: 67) المسلمون مطالبون بعدم إسراف الموارد وعدم التبذير، سواء كان ذلك في الطعام أو أي نوع آخر من الموارد.
2. الأكل بالمعقول: «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» (الأعراف: 31) القرآن يحث على تناول الطعام والشراب، ولكن من دون إسراف. الاعتدال في الأكل أمر مشجع.
3. التكافل ومشاركة الطعام: «وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً» (الإنسان: 8-9) القرآن يشجع على مشاركة الطعام مع المحتاجين والفقراء.
4. الاهتمام بالبيئة: «وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا» (الشعراء: 205) القرآن يحث على عدم تدمير الأرض والحفاظ على البيئة.
5. استخدام الموارد بحذر: «وَلَا تُبَذِّرْ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُبَذِّرِينَ» (الأنعام: 141) الإسراف في استخدام الموارد محظور ومذموم.
6. التدبير الجيد للطعام: «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» (الأعراف: 31) القرآن يحث على تناول الطعام بما يكفي للإنسان دون إسراف.

هــذه بعض الآيات التــي تعكس قيم الاســتدامة والحفاظ على البيئــة من القرآن الكريم فيــما يتعلق بالأكل، لكي يتشــجع المســلمون على التعاطي مع الموارد المتاحة في البيئة بحذر واعتدال وعــدم التبذير والإسراف.

الإستدامة في التراث الثقافي

العــمارة التقليديــة: كان الأجــداد والآبــاء يقومــون بتطبيــق مفاهيم الاســتدامة بشــكل عفــوي وفطري، ويســتخدمون الأدوات ومــواد البناء مــن الطبيعة، وهي متوافــرة بكثرة ويســهل الحصــول عليها مــن دون عناء، وعادةً مــا كانوا يقومون ببنــاء الحصون والقــلاع والأبراج والبيوت، ســواء من الطين أو من العرش (ســعف النخيل) والأماكــن الدينية من الطين والجص في البيئة الســاحلية، أمــا في البيئــات الصحراوية والجبلية فكانوا يســتخدمون الطــين والأحجــار، وجذوع النخيــل في الأعمــدة، والحصر في الســقف، وكانــوا مدركــين جيــداً فوائدهــا الجمــة للإنســان والبيئة أمــا الأضرار فــلا شيء يذكر.

مميزات العمارة التقليدية

- صديقــة للبيئة وبــاردة في الصيف، وتتلاءم مــع البيئة، حيــث إنها لا تلــوث البيئة، ولا تضر الإنســان أبداً.
- تراعــي متطلبــات البيئة، حيــث إن المواد منهــا وإليها، وهي مناســبة للبيئــة التي يســكنها البشر.
- اســتخدام الطــين في البناء من مــواد البيئــة، ويوجد بكــثرة في الأوديــة التي تكــون مجــرى للوديان.
- هذا يــؤدي إلى التقليل من اســتخدام الكهرباء لأغراض التكييــف والتبريــد والتدفئــة، كــما نــرى اليــوم مــن ممارســات ضــارة ومؤثــرة في البيئة.
- بالتــالي هــذه المــواد الطبيعيــة تقلل مــن الانبعاثات الكربونيــة التــي غالباً ما تكــون مضرة بالبيئة والإنســان.
- توفــير الميــاه وهنــا الاســتهلاك في الزمــن الماضي لهــذا المــورد كان بســيطاً، ويعتمد بشــكل كلي على حاجة الإنســان.
- الوضــوء: مثلاً كانــت تســتخدم الأباريق (جمــع إبريق)، وهــذا يخفف مــن هدر المــاء الــذي نــراه في عصرنا الحــاضر، وهــذا يخالف ما نــراه في زمننا الحــالي الذي تســتخدم فيــه المضخــات الكهربائية لضخ المــاء وهنا يحدث الهــدر الكبير.
- الاســتحمام اليومي: كان في الماضي اســتخدام الماء بقــدرٍ محدود، وعكــس ما نراه في العــصر الحالي الذي تــم فيه تركيــب (البانيوهــات) بالحــمام، وأيضــاً تركيب الأحــواض الخاصة بالبيــت، التي تحتــاج إلى كميات كبيرة جداً لملئها واســتخدامها.
- الزراعــة: كانت تــروى بكميــات معقولة، خاصةً أشــجار النخيــل، حيث تــروى بعــد ســبعة أيــام، أمــا الزراعة الخضراوات كانــت تزرع في فصل الشــتاء، حيــث لا تحتاج إلى كميــات من الميــاه، نظــراً لاعتــدال الطقس وعدم الحاجــة إلى الــري اليومي.
- النخيــل: كانــت تبنى منــه البيــوت مثل (العــرش) جمع ومفــرده عريــش، وتبنــى مــن ســعف النخيــل، وهي مناســبة وملائمــة للبيئــة الصحراويــة وبــاردة نوعاً ما في فصل الصيف، كذلك اســتخدام الحــصر في الجلوس والصناعــات الأخرى المشــتقة مــن ســعف النخيل مثل (الصرود)، (المشــب)، (المكبــة)، الحبال من ليــف النخيل، وهــذه المــواد جميعها صديقــة للبيئة.
- عميــات الطبخ اليوميــة: كانت الوجبات تطبــخ على النار التــي توقد من أشــجار البيئة، مثل حطب الســمر وحطب الغــاف وحطــب الرمــث أحيانــاً، وكذلك حطــب الأرطى، وقد اعتاد أبنــاء الإمارات في الزمــن الماضي على قص الأغصــان اليابســة فقط، وعــدم قص الأغصــان الخضراء إيمانــاً بالحفاظ عــلى أشــجار البيئة، وعدم اســتخدام القــص الجائر، ومن الجوانب الجميلــة أنهم في الماضي كانوا يســتخدمون الرمــاد في الزراعــة للمحافظة على قلويــة التربة، وعادة الرمــاد يحفظ الأشــجار من العفن والفطر الــذي يصيب بعض النباتات عندمــا تكون صغيرة، ومن ثــم يقضي عليهــا فتموت.
- التدفئــة: كانــت في الماضي مــن النار، وهنــاك اقتصاد واضح واســتهلاك محــدود للحطب في التدفئــة وخاصةً في فصل الشــتاء.
- الغســيل والاســتحمام: كانت الكميات المستخدمة في هذه العمليــات قليلــة، وتفي بالغــرض دون هدر في الميــاه كــما كان في المــاضي، وهــذا ينســحب على غســيل الملابــس، وكانــت تغســل بكميــات قليلة من الصابــون، وكانــت تجفــف في الشــمس ولا تســتخدم أدوات كما نــرى في وقتنا الحاضر مــن تجفيف للملابس في الغســالة، والــشيء الآخــر الملابس كانــت قليلة، ولم تعــد كميات مــن الملابس المســتخدمة في وقتنا الحــاضر، التي تحتــاج إلى كميات للغســيل عــلى مدار الأسبوع.
- التنقــل: كانــت الدواب من جــمال وحمير هــي الوحيدة الموجودة أمام النــاس، وكذلك المــشي، لذلك نرى أن هذه الوســائل كانت صديقة للبيئة، حتــى فضلاتها كانت مفيــدة للغطاء النباتي في البيئة المعاشــة.

وفي النهايــة، يجب علينا أن نــدرك أن التراث الثقافي هو جزء لا يتجزأ مــن الثروات الوطنية والعالميــة، وإن التزامنا الحفــاظ عليــه وترويجــه يعكــس اهتمامنــا بمســتقبل الأجيــال القادمة، ويقــوي من تعزيز التفاهــم والتضامن بين شــعوب العالم.

الموروث وتحديات العصر

د. فهد حسين
أكاديمي وناقد - البحرين

حين تشرع في الكتابة عن الموروث الشعبي، ينتابك الخوف والاضطراب والتردد؛ لأنك لا تعرف من أين تبدأ حكايتك، ومن أي مخزون ستستقي معلوماتك، فهناك القول الشفهي، والخبر المكتوب، والعلم والتنظير تجاه هذه الطاقة الإنسانية التي أبدعها الأجداد والآباء عبر العصور والأزمان، في كل التراث الإنساني المحلي وغير المحلي، ولكن أي تراث الذي نريد؟ إنه التراث الذي يعبر عن تجارب الإنسان في شكل لوحات فنية أو لغوية أو غنائية وإيقاعية أو إيماءات، سواء في حكاياتنا الشعبية أو في علامات التسلية والحزاوي، أو ملاحمنا الأسطورية التي تعبر عن تاريخ بعض تجاربنا، سواء أكانت شعراً أم نثراً.

لذلك ننطلق من تلك الدعوات التي كرّستها منظمة اليونسكو، ليكون تراث الشعوب مكان دراسة وتقدير عند الأمم، خاصة بعد إيمانها بضرورة التأمل في أصالة العمل الإنساني وثقافته المتوارثة عبر الأجيال التي أسهمت وتسهم في وصول التراث والثقافة المعنيين بالموروثات الشعبية والإنسانية إلى الآخر، وبين الحداثة والمعاصرة التي تسعى دائماً إلى توظيف هذه الموروثات في حياتنا اليومية عبر الغناء والشعر والتمثيل والسلوك الاجتماعي، وغير ذلك.

من هنا جاءت نهاية القرن العشرين ليكون مفصلاً وتحدياً لمن لا يرى ضرورة الاهتمام بالتراث، حيث أوجدت اليونسكو صيغة التعامل والتفاعل مع تراث الشعوب المختلفة، باعتباره تراثاً إنسانياً ليس ملكاً لفرد دون غيره، فإذا كان الماء والهواء والطعام ممنوحة لكل كائن حي، فإن التراث هو ملك لنا نحن بني البشر جميعاً بعيداً من المكانية والمحلية والعرقية والدينية واللغوية، والإثنية؛ لذا جعلت منظمة اليونسكو وغيرها من المنظمات المنشغلة بالتراث المادي وغير المادي، الشفاهي والمدون ليكون ثقافة بين الناس، يتناولونها في أي لحظة كانت، وبخاصة حين يكون تناولنا له منطلقاً من رؤية ثقافية وفكرية وتجديدية، حيث يأخذ هذا الاتجاه لمجموعة من الاهتمامات الرئيسة، وكيفية قراءته وتحليله وتفكيكه، ورسم الخطط التي تعمل على حفظه وإعادة تشكله وفق متطلبات المرحلة التاريخية، وعواملها الاجتماعية والثقافية والفكرية، وطبيعة التوجهات عند المشتغلين والمهتمين بهذا التراث، إذ لا ينبغي أن ننظر إلى ما وصلنا من تعبيرات شفاهية أو مخطوطات أو مصادر مختلفة على أنها مواد تاريخية وينتهي الأمر، بل أن ننظر لها من زوايا مختلفة متعددة المشارب والاتجاهات، وأن تكرس لها المؤثرات والملتقيات والندوات والمحاضرات في الحرم الجامعي، وفي المؤسسات الثقافية والتراثية والأدبية والفنية المتنوعة الرسمية والأهلية من أجل بناء رؤية فاحصة تسهم آنياً ولاحقاً في كيفية المحافظة على هذه التركة التي لا تقدر بثمن، وهذه الكنوز التي قدمها لنا الإنسان القديم عبر السنوات والقرون والأزمان.

ولم تأت هذه الاهتمامات أو العناصر مصادفة، بل كانت مخاض تجارب إنسانية سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية، وظروف معيشة، وإذا كان الواقع المعيش آنذاك، وتجارب الإنسان عنصرين مهمين في هذا التراث، فإن المتخيل الذي أتقن ذلك الإنسان توظيفه وجعله يتمحور حول رؤيته وتطلعه، فهو في الوقت ذاته عنصر مهم في تكوين التراث الشعبي وبنائه واستمراره وارتباطه بالإنسان عبر العصور وحتى اليوم، حتى بات التراث الشعبي وتلك الموروثات الثقافية تأخذ مساحة كبيرة في الذاكرة الإنسانية، ذاكرة الشعوب، وذاكرة المكان والزمان، وهذا ما يجعلنا أكثر قرباً من تراثنا وشعبويتنا الثقافية، ليس بهدف التقوقع داخل محيط دائرته، وتسييج الدائرة بالأقفال، بل لكي ندرس تاريخنا الشعبي وتراثنا وأهميته في تواصله مع موروثات الشعوب الأخرى، ولمعرفة موقعنا الثقافي ودور تراثنا تجاه الصراعات الثقافية والتراثية، وأهمية المحافظة على هذا المخزون في ظل التجديد والتحديث والتطوير. ونحن حينما ندعو إلى دراسة تراثنا والتأمل في

المنجـز الثقـافي لهـذا الـتراث، فإننـا نؤكـد فى الوقـت نفسـه نبـذ كل الموروثـات التـي تكـرس الشـعوذة والبعـد عـن العقـل، وإسـعاد الإنسـان، والأخـذ بمـا يزيـد مـن دورنـا الحضـاري والثقـافي والشـعبي، وتأصيـل هويتنـا التي راحـت تعصـف بهـا التحديـات المعـاصرة، خاصـة عنـد الشـباب الـذي لا يعـي دوره في المجتمـع والحيـاة، فلـم يعـد الـتراث بالنسـبة إلى شـباب هـذا العـصر ذا قيمـة إنسـانية أو مهمـة حياتيـة، لذلـك واجـب علينـا، ولكيـلا يبتعـد المرء عـن تراثـه ومكوناتـه، ثـم يضعـف تدريجيـاً، ويـذوب في زحمـة العمـل اليومـي، والشـحن غـير المبرر مـن تلقـي الثقافـات الأخـرى دون وعـي، فإننـا محتاجـون اليـوم لمـد جسـور الثقافـة والتواصـل الفعـلي بـين ثقافتنـا الشـعبية التـي تؤصـل تاريخنـا ومـا هـو جديـد وعـصري وحـداثي.

وحـين النظـر إلى العـالم نـرى الكثـير مـن الشـعوب تحـاول أن تعطـي تراثهـا ومخزونهـا الثقـافي أهميـة كـبرى؛ لـكي يسـتطيع أن يعـزز قيـم الهويـة والمكانـة الاجتماعيـة والسياسـية، وكل مـكان لا يوجـد فيـه مخـزون ثقـافي وتـراثي، فإنـه بعيـد عـن حركـة التاريـخ الإنسـاني، ألم نـدرس أن العـراق تحمـل بـين دفتيهـا ثمانيـة آلاف سـنة مـن الـتراث الثقـافي والحضـاري؟ ألم نـدرس حضـارة مـصر الفرعونيـة، وكذلـك حضـارة الشـام، ومنطقـة الخليـج العـربي؟ ألم نـدرس حضـارات الـدول الغربيـة؟ إذ يوجـد بين هـذا الحضـارات والثقافـات الثقافـة الشـعبية والعلاقـات الإنسـانية اليوميـة مـن عـادات وتقاليـد وأعـراف، وطقـوس تـؤدى في مناسـبات مختلفـة، مثـل: الـزواج والطـلاق، والـولادة، والختـان، وفي حالـة الوفـاة، وفي الحـروب، والكـوارث والفيضانـات، وفي مناسـبات كثـيرة، فـلا اسـتغراب أن يكـون لهـذه الـدول اهتـمام كبـير بتراثهـا، بـل إنـه المؤكـد بذلـك؛ أي حافـظ هـؤلاء عـلى تراثهـم وحضارتهـم، وعـلى مكتسـباتهم الثقافيـة والتنظيريـة التـي جعلتهـم يقـرؤون الـتراث ويحافظـون عليـه، ونحـن لسـنا بعيديـن عـن هـذا الطريـق الـذي سـلكه الأولـون مـن آبائنـا وأجدادنـا، الذيـن عملـوا عـلى بنـاء تراثنـا وأوصلـوه لنـا؛ لهـذا واجـب علينـا أن نقـوم بمـا ينبغـي مـن أجـل الإسـهام في قـراءة الـتراث، وحفظـه وتحليلـه وتقديمـه لأبنـاء جيلنـا والأجيـال القادمـة، وإلى الآخـر.

إن العـصر الحـالي، ومـا يحملـه مـن تناقضـات وتقلبـات عـبر الفضائيـات أو الشـبكة العنكبوتيـة، يسـهم بشـكل غير مـبرر تجـاه الحضـارة الإنسـانية الأصيلـة، ويحـاول أن يفـكك العلاقـات الإنسـانية، عـلى الرغـم مـن مناداتـه إلى أن كل هـذه التطـورات هـي في مصلحـة الإنسـان وتخدمـه. لكـن الواقـع يقـول عكـس ذلـك؛ لأننـا نريـد أن نتمسـك بما يؤكـد هويتنـا وثقافتنـا وعلاقاتنـا، وأيضـاً يعطينـا دور التواصـل مـع العـالم الآخـر ثقافيـاً وحضاريـاً، وهنـا علينـا إقنـاع أنفسـنا بـدور الثقافـة المحليـة والشـعبية والإبداعيـة، ومـا يضمـه هـذا الـتراث مـن تركـة شـفاهية وكتابيـة، تلـك التـي تؤصلنـا وترسـمنا عـلى خريطـة الثقافـة العالميـة، وخاصـة في الـذكاء الاصطناعـي الـذي بـات مخيفـاً في تشـويه مـواد الـتراث، فيـما بـين الإضافـة أو الحـذف أو المـزج مـع المورثـات الأخـرى مـن دون وعـي منـه.

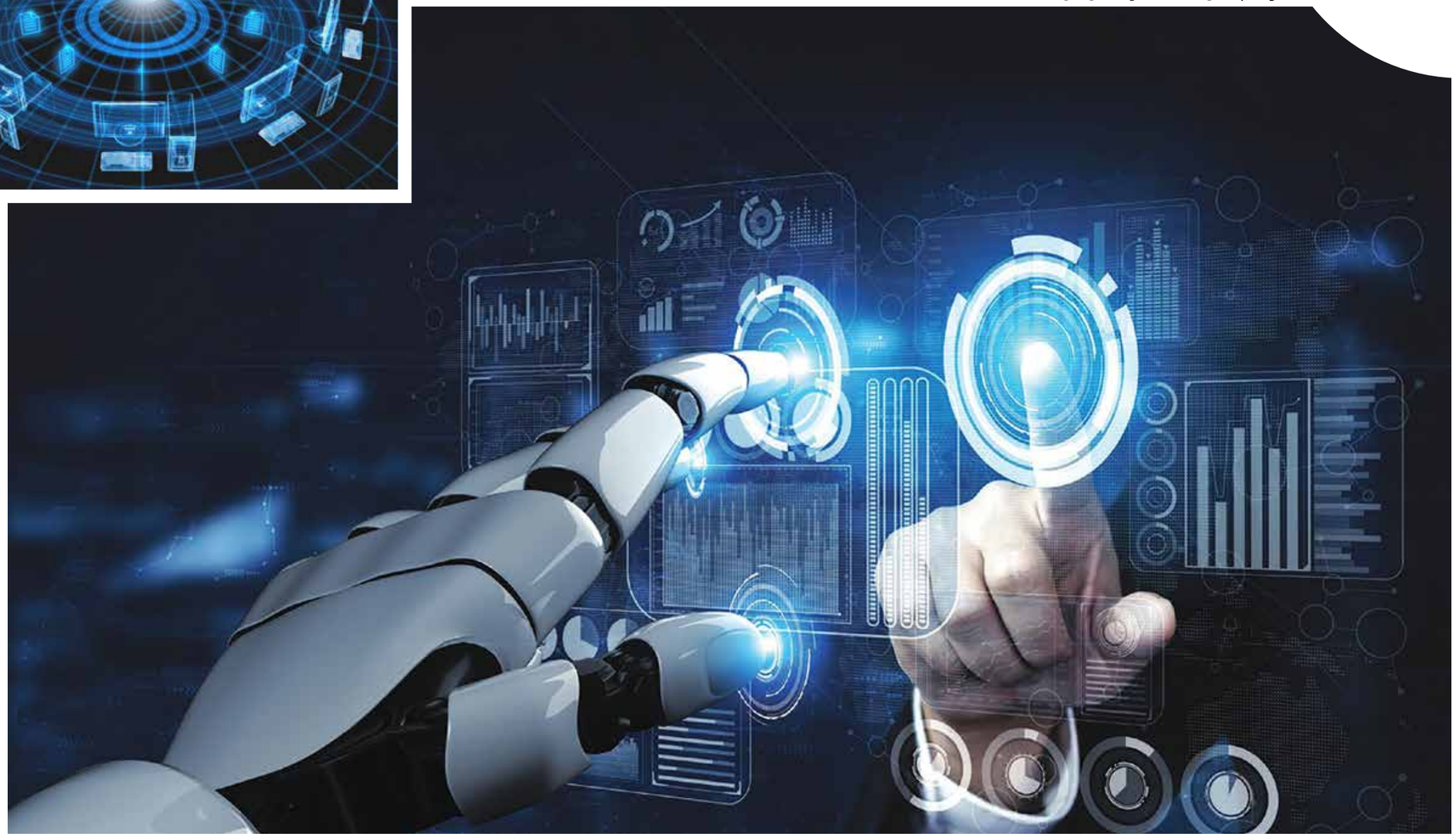

استدامة التراث..
والنهج الإماراتي

خالد صالح ملكاوي
باحث وإعلامي - الأردن

من الجميل حقاً أن يتم إنصاف التراث، وجعله أحد مكونات التنمية المستدامة التي ظلت لعقود تركز على التنمية الاجتماعية والاقتصادية مع الأولويات البيئية فحسب. ومن المفرح أن نجد بعض الحكومات المستنيرة، وقد تمسكت بتراثها وغذَّته بمقومات الحيوية والبقاء، لوعيها بأهميته في مسيرة نجاحها، إلى جانب التحديث الذي احتضنته بعناية، فغدا التراث المستدام، في نهجها، يشكل اليوم أصلاً أساسياً للتحول البيئي. وباتت التنمية المستدامة تعتمد على تشجيع ودعم التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية معاً.

ما من شك في أن مصطلح الاستدامة مرتبط بمفاهيم التنمية في العالم المعاصر، وظهور ما يعرف اليوم بالتنمية الشاملة المستدامة، والاستدامة في جوهرها غاية تستوجب التخطيط لها ضمن استراتيجيات تأخذ بعين الاعتبار كل عناصر سيرورة الحياة للفرد والمجتمع، ولكل أوجه الحياة فوق هذه المعمورة. وبذا، فهي شأن تنموي جماعي، تضطلع به الدول وحكوماتها، ما يجعل التنمية المستدامة مرتبطة بشكل وثيق بمفاهيم التنمية والتحديث الاقتصادي والاجتماعي والبشري، وتتطلب من المجتمعات قدرة واعية لإدارة مسيرة استدامتها بطرقها ووسائلها الخاصة بها، للوصول إلى توفير احتياجاتها الحالية دون المساس بقدرات الأجيال المستقبلية على أن تلبي احتياجاتها. فالاستدامة هي نموذج حياة، يضبط تلبية حاجات الحاضر دون التعدي على مقومات تلبية حاجات الأجيال المستقبلية، يعمل على تحقيق تنمية طويلة الأمد، تستهدف مواءمة التنمية الاجتماعية والاقتصادية مع الأولويات البيئية، من أجل الحدّ من التدهور البيئي الحالي، وتغير المناخ، مع الحفاظ على الموارد الطبيعية قدر الإمكان، بما لا يتعدى قدرتها على التجدد في المستقبل. ولعل الأمم المتحدة حددت ذلك في تعريفها مفهوم «الاستدامة» الذي ورد في وثيقتها الصادرة عام 1987م. بعنوان «مستقبلنا المشترك»، إذ تقول الوثيقة: «الاستدامة هي التنمية التي تستجيب لاحتياجات الوضع الراهن، مع الأخذ في الاعتبار الإمكانات المطلوبة من أجيال المستقبل لتأمين متطلباتها». ما يعني أن جوهر الاستدامة هو حماية أرضنا ومواردنا وبعضنا بعضاً، من أجل غدٍ أفضل.

ومع التطورات الحديثة في مجال الاستدامة، تطورت الاعتبارات لتشمل إلى جانب العناصر المادية للطبيعة ومواردها عنصراً معنوياً يخص الموروث الثقافي، وغدت الاستدامة الثقافية ركيزة خاصة بمفهوم الاستدامة واعتباراته، فباتت التنمية المستدامة تعتمد على تشجيع ودعم التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية معاً، وذلك لإدراك الأهمية المتزايدة للاستدامة الثقافية في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والبيئية، فهي ذات أهمية خاصة، تكمن في قوتها المؤثرة في الناس الذين هم غاية الاستدامة ووسيلتها؛ فالقرارات الخادمة للاستدامة، والتي تُتَّخذ في سياق المجتمع، وتحتاج إلى

استجابة أفراد المجتمع لها، تنقلها بتميز معتقدات ذلك المجتمع التي يحملها موروث المجتمع الثقافي. وإلى جانب تلك القوة الفاعلة للتراث في نجاح الاستدامة، فإن للعديد من العناصر التراثية أهمية اقتصادية كبرى، كونها من أهم الموارد الاقتصادية، إن أُحْسِنَ توظيفها وأُتْقِن العمل على استدامتها. فإلى جانب أهمية المضامين التي تختزنها العناصر التراثية بأبعادها الوطنية والحضارية والتاريخية، التي يشكل الحفاظ عليها وتعزيزها في النفوس، وتعريف الآخرين بها غاية عليا في مفهوم «التراث المستدام»، فإن ثمة أهمية اقتصادية ثقافية كذلك، تستدعي الوصول إلى أفضل الطرق للمحافظة على الآثار والمباني واستدامتها، والعمل على جعلها دائماً في أفضل صورة لجذب العديد من السائحين؛ للتعرُّف إلى تراث وتقاليد شعب هذه المباني التي تشهد على جانب من حضارته، وتعرض بعض تراثه، وتحتضن صوراً من إبداعاته.

الاستدامة وتجارب إماراتية حيوية

لدولة الإمارات العربية المتحدة تجربتها المكثفة في تعزيز مفهوم الاستدامة؛ فهي من أكثر دول العالم سعياً لخدمة الاستدامة، وذلك بجهودها واستراتيجياتها الملهمة ومبادراتها الريادية، وبسياساتها وتشريعاتها السبّاقة، وباستثمارها السياحي للمناطق التراثية، ورفع الوعي بقيمتها، وبسبل تنمية التراث العمراني واستدامته، وباستنهاض همم وعزائم مكونات المجتمعات المحلية لتشجيع المشاركة المجتمعية، إذ تعلن العام الحالي عاماً للاستدامة، تعزيزاً لسجلّها الثري في الحفاظ على الاستدامة، ما بوّأها مكانة ريادية عالمية؛ فهي شريك ملتزم ومسؤول وموثوق على المستوى الدولي، وهي في موقع مثالي لتعزيز الإجماع الدولي على تصميم وتنفيذ حلول مبتكرة وعملية.

فقد شهدت الإمارات خلال العقود الماضية تحوّلاً بارزاً في إطار عملية التنمية الثقافية واستدامة التراث، وتعزيز جهود الحفاظ على هوية شعب الإمارات وثقافته، وذلك من خلال ما زرعه المؤسس المغفور له، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه، من تمسُّك بالتراث واعتزاز به، بالتوازي مع تعزيز مكانة الإمارات كإحدى أكثر دول العالم تطوراً حضارياً وانفتاحاً فاعلاً على العالم وثقافاته وحضاراته، وتأثيراً إيجابياً في الحوار بين الثقافات المختلفة.

وغدا للإمارات نهجها الواضح في تمتين العلاقة بين التراث والعصر، لتجعل منها وحدة متداخلة بعرى وثيقة، تخدم بناء نموذج إماراتي خاص لمستقبل يستوعب الفعل الإنساني الإيجابي دون تعصب، ويحتضن الإبداع البشري بلا حدود، ويضيف إلى استدامة التنمية التي ينشدها الجميع منارات تعين كل الساعين إلى منفعة الإنسان وسلامة البشرية، وتحفظ للأجيال الإماراتية حقها التاريخي في بصمتها الثقافية المتجددة في العطاء العصري الذي يشهد على جذوة الأصالة في نسيج تكوينه.

فعبر العديد من المبادرات، برزت الجهود الإماراتية في تحويل التراث، بشقيه المادي والمعنوي، إلى نمط تتوافر فيه خصائص التماهي مع التطور والتنمية التي تشهدها في مختلف القطاعات، وجزء من الهوية المجتمعية، لتتجسد مفاهيم التراث في مختلف أشكال الحياة، ابتداءً من الاهتمام بالتراث المادي المرتبط بالمتاحف والأماكن الأثرية، وصولاً إلى التراث المعنوي والفنون والعادات الموروثة، ولتسهم هذه المكونات التراثية في تكوين الفرد والارتقاء بقدراته، وتلعب دورها في بناء هوية وطنية يشعر أصحابها بالفخر والاعتزاز بأنفسهم، دون تعالٍ، ودون اختلاق صراع مع الثقافات الأخرى، وانعزال عنها، بل بانفتاح على مختلف ثقافات العالم وحضاراته الأخرى واحترام لها.

وتعكس المهرجانات والمعارض والمسابقات التراثية المتنوعة التي تشهدها كل إمارات الدولة على مدار العام جانباً عملياً مهماً من الرؤية الإماراتية في استدامة التراث. ومن أبرز هذه الفعاليات مهرجان قصر الحصن ومعرض الصيد والفروسية ومهرجان الشيخ زايد ومسابقة شاعر المليون في أبوظبي، والمهرجانات والفعاليات السنوية التي دأبت على احتضانها الشارقة؛ لتغطي معظم ميادين التراث، والتي نجحت في استقطاب المشاركين والزوار من كل مكان في العالم، مثل أيام الشارقة التراثية، والملتقى الدولي للراوي، ومهرجان الفنون الإسلامية، إلى جانب ما تقيمه دبي من فعاليات سنوية، مثل مهرجان دبي وتراثنا الحي، وسباق القفال للسفن الشراعية المحلية 60 قدماً.

وتُوّجت الجهود الكبيرة التي قادتها الدولة منذ عام 2005م، في إطار حرصها على صون وإحياء واستدامة مقوّمات التراث الإماراتي الأصيل، بالحصول على أهم اعتراف عالمي بمشروعية جهودها وغناها الحضاري، وذلك بتسجيلها العديد من عناصر موروثها الثقافي كتراث ثقافي إنساني يخصّ البشرية، وإدراجها في القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية في منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو).

واليوم، ليس ثمة من لا يعترف بأن دولة الإمارات التي جعلت للتراث استراتيجيات تخدم نهجها في استدامة هذا المكوّن المهم والأساسي في بناء الفرد والمجتمع، وتعزيزها بعناصر الصمود والثبات، وتحصينها ضد أسباب الوهن التي قد يحملها المستقبل في مستجداته، قد نجحت في دخول القرن الحادي والعشرين، وهي تحتل موقعاً متميزاً على المستويين الإقليمي والدولي، وتمتلك كل مقومات التطور والتحديث، وفي الوقت ذاته تتمسك بشخصيتها الأصيلة وسماتها الخاصة، المتمثلة في تراثها الحضاري العربي - الإسلامي الحامل أسباب بقائه وعناصر استدامته.

علاقة التراث بالاستدامة

د. مهدي الشموط
محاضر لغة عربية
في كليات التقنية العليا

تعد علاقة التراث بالاستدامة من العلاقات التي تشغل بال الدارسين وهم يبحثون عن الرابط بين التراث والاستدامة، وذلك من أجل تأصيل الاستدامة والبحث عن دلالتها واستخدامها عند الأهل قديما.

ونستطيع أن نضع سؤالاً مفتاحياً لهذا المقال، وهو هل عرف القدماء الاستدامة؟

وهل كانت حياتهم – على الرغم من بساطتها وقلة الكلفة فيها ــ تحتاج إلى تكريس الاستدامة وتعليمها؟

وماذا تعني الاستدامة بالنسبة لهم؟

عند البحث في مصطلح الاستدامة، نجد المادة الأولى لهذه المفردة مأخوذة من (دوم) دام يدوم، وتعني الاستمرار، وتركيبها مع استدام تعني الاستمرارية؛ فالمفردة تعني ديمومة الأشياء، والمحافظة عليها، ومحاولة الإبقاء عليها أكثر وقت ممكن، وعند العودة إلى محرك البحث (غوغل) نجد أن الاستدامة بمعناها البسيط: تطلق على جميع جوانب الحياة التي يرجى بقاؤها وللحيلولة دون نضوبها ونفادها كالموارد الطبيعية مثلاً، إلا أن المصطلح قد يطلق أيضاً على نظم شاملة، تؤثر عناصرها في استدامة المنظومة؛ فوجب الاهتمام بها، وتحديد أولوياتها والعمل على صيانتها وحفظها من النفاد.

ومن خلال التعريف السابق للاستدامة، نجد أنها تعني الحفاظ على المقدرات الطبيعية والإبقاء عليها وصونها وتنميتها وتعزيز بقائها والحث على ذلك، وإذا ما أردنا الربط بين ذلك وبين التراث، نجد أن الأهل قديماً كانوا يعيشون حياة يكتنفها الشح وقلة الموارد؛ لذلك من الطبيعي أن تكون الاستدامة في مجتمعهم نمط حياة؛ لأن الماء والكلأ واللباس والراحلة وكل ما يحتاجونه قليل، ولا يكاد يكفيهم لذلك كانوا حريصين أشد الحرص على الاقتصاد والإبقاء على ما كان لديهم كي يكفيهم ويكفي أبناءهم، وكأنهم يتمثلون حديث النبي، صلى الله عليه وسلم: «ما عال من اقتصد»؛ أي ما افتقر من اقتصد.

ومن أهم ما يشير إلى الاستدامة الأمثال الشعبية التي تعد مرجعاً مهماً لمن يريد أن يتعرف إلى أسلوب الحياة في ذلك الزمن، ومن المعلوم أن الأمثال تعكس تجربة حقيقية عاشها الأهل، وتدل على حكمة قائلها، وخبرته في الحياة، والأمثال الشعبية التي تحث على الاستدامة كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قولهم:

- كل شيء بده تدبير حتى الميّه في البير: وهذا مثال على ضرورة الاقتصاد في كل شيء حتى في ماء البئر، والتدبير بمعنى الاقتصاد.
- قرشك الأبيض ليومك الأسود: وهو مثال على ضرورة الاقتصاد في المال؛ لذلك شبه القرش الذي يكون وأيامك مقبلة بالقرش الأبيض، وفائدته تظهر حين يعضك الدهر بنابه فتعرف قيمة ذلك القرش في ذلك اليوم الأسود (إدارة مالية).
- على قد لحافك مد رجليك: وهذا المثل يمثل ضرورة أن يتكيّف الإنسان مع وضعه المادي كي يستطيع العيش ضمن إمكاناته المتاحة.
- من رقّع ما عري ومن دبّر ما جاع: وهذا المثل يؤكد فكرة استغلال الأشياء حتى آخر رمق؛ وكل من يفعل ذلك لن يجوع ولن يعرى.
- الأطفال أطعميهم مرق وألبسيهم خرق: وهذا المثل يبين أن الأطفال لا يهتمون باللباس، والفائدة الحقيقية تكون في الأكل الذي يساعد على بنية الجسم، أما اللباس فلا يهم وهذا من باب الاقتصاد.
- وفر حطباتك الكثار لعمك شهر آذار: وهذا فيه تصريح على ضرورة التوفير في الحطب حين يكون كثيراً، وربما ذلك في الصيف والتوفير لشهر آذار الذي يبدأ فيه

البرد؛ فيحتاج الإنسان إلى الدفء الذي من أهم لوازمه الحطب.

- اللي يوفر من غداه لعشاه ما تشمت فيه أعداه: وهذا المثل يبين أهمية الاقتصاد في الأكل فيخبئ المرء من طعام الغداء إلى العشاء؛ كي تكون لديه كفايته التي تغنيه عن شماتة الأعداء.

والأمثلة كثيرة أكثر من أحصيها؛ وهي تمثل حصيلة تجربة الأهل قديماً، وفيها دعوة إلى الاقتصاد الذي يؤدي إلى ديمومة الأشياء وإطالة أمدها والاستفادة منها كي تبقى وتدوم. وهي مثال حي أن الاستدامة كانت نمط حياة وأسلوب عيش، وفي حال إهمالها سيكون هناك جوع وعري وفقر وحاجة وعوز، وهذا كله لم يكن يحتاج لتدريس أو إرشاد من قبل مؤسسات متخصصة، فالبقاء في ذلك الزمن الجميل كان للمقتصد، والأشياء على قدر الحاجة واستنزافها يؤدي إلى ضياعها.

ثانياً: إعادة تدوير الأشياء: من اللافت للنظر أن حياة الأهل قديماً كانت تجبرهم على تسخير كل شيء؛ ليستفدوا منه، فهم حين يشترون أطباق الحلوى، يقومون باستخدام تلك الأطباق بعد نفاد الحلوى؛ لحفظ الأشياء؛ كالملح والسكر والسمن وبعض أنواع الأطعمة.

وهم أيضاً حين يحضرون الملابس للابن الأول؛ يخبئونها لأخيه من بعده؛ لأن المعروف أن الأطفال يكبرون بسرعة، فتجد اللبسة نفسها تتكرر من طفل لأخيه، وقد تهديها الأم لجارتها حين تصغر على طفلها.

وهذا كله من باب إعادة الاستفادة من الأشياء وفي حال أصبحت الثياب غير صالحة للباس؛ فإنهم يصنعون منها غطاء لبعض أشياء البيت، وكثير منهم يستخدمها للغنم أو المعز أو الإبل فيما يسمى بـ(الشملة)، وهي ما يوضع للثدي كي لا يشرب ابن الماعز أو الغنم أو الإبل الحليب قبل حلبه، فيكون بمثابة عازل أو غطاء للثدي عن الرضيع.

ثالثاً: استغلال كل شيء في الذبيحة بدءاً من الجلد الذي يدبغ، ثم يتحول إلى فراش، وهو ما يسمى بالجاعد، ويكون جميل الشكل يفرش في البيت، أو تحويل الجلد، وخصوصاً جلد الخروف الصغير إلى لباس (فروة) تقي صاحبها أذى القر والحر، أو تحويله إلى (سعن) أو (زكرة)، وهي التي يوضع فيها اللبن، ويخض ليستخرج الزبدة والحامض (الشنينة)، والسمن والجميد، وهي من الحاجات الضرورية التي يحتاجها الأهل في البادية والقرى ممن يعيشون على المواشي، وانتهاء بالكرش والمصران الذي يستخدم أيضاً في بعض الطبخات الخاصة بعد تنظيفهما جيداً.

رابعاً: استغلال كل شيء في المحصول الزراعي بدءاً من القمح، ثم أعواد القمح التي تصنع تبناً ثم بيع بقايا (المحصيد) أو وهبه لمن لديه غنم كي تأكل الأغنام ما تبقى من محصول، وبهذا تعود الأرض كما كانت خلواً من أي شيء يدل على أنها كانت مزروعة، وربما يكون هذا المثال واقعاً حتى هذا الوقت عند كثير من المزارعين الذين يستغلون كل شيء ينبت في الأرض، فما لا يأكله الناس تأكله الدواب، وما لا تستطيعه الدواب كالنوى الذي يخرج من الزيتون، يصنع على هيئة حطب يباع على أصحاب الأفران والمواقد، ليكون مادة مهمة للمدافئ؛ وذلك في فصل الشتاء.

ومن خلال ما سبق نجد أن الاستدامة عند الأهل قديماً واقع عملي، وحياة فرضتها عليهم الظروف القاسية والموارد الشحيحة والإمكانات البسيطة؛ لذلك لابد من التوفير وإعادة التدوير لكل ما هو موجود، وكل ذلك كان بدهياً على السليقة دون تعليم وإرشاد، بل كانت الحاجة هي المحفز الرئيس لذلك.

إمارة الشارقة أنموذجاً

ترميم المباني التاريخية..

استدامة التراث المادي

سارة إبراهيم
كاتبة - مراود

بدأ ترميم المباني التاريخية والقديمة في الإمارات بعد الطفرة الاقتصادية التي شهدتها الدولة، فتطورت حياة المجتمع، وتركت الأسر بيوتها، وتغيرت متطلبات الدوائر الخدمية، فكانت الحاجة للانتقال والاتساع، بفضل التطور المعيشي، وكان لزاماً على المؤسسات الحكومية أن تفكر جدياً في الحفاظ على ما هو باق من تراث مادي يشهد على ماضي البلاد.

يقصد بالتراث الثقافي المادي كل أثر محسوس ينطوي على قيمة حضارية، خلفته الأجيال السابقة حكومة وشعباً، ونخص في تناولنا جزءاً من التراث المادي غير المنقول، أي المنشآت والمعالم المعمارية والقرى والمدافن والمدن الأثرية والقنوات النائية، وما إلى ذلك من معالم ثابتة، وهي تختلف عن التراث المادي المنقول الذي يعني الممتلكات المنقولة كاللقى الأثرية على اختلافها.

وتحتضن دولة الإمارات تراثاً عمرانياً متنوعاً، وتشير المصادر إلى أنها تزيد على ثلاثة آلاف معلم وموقع أثري يمتد بعضها في تاريخها لآلاف السنين، من بينها المدافن والمعابد والقلاع والحصون والمساجد والمساكن التقليدية والمدارس وغيرها، واستطاعت إمارة الشارقة أن تتبوأ مكانة مميزة محلياً وإقليمياً في المحافظة على تراثها العمراني، وبحسب معهد الشارقة للتراث، فإن عدد المباني المرممة يصل إلى خمسة وثمانين معلماً، منذ أن بدأت ورش ترميم المعالم التاريخية في الثمانينيات من القرن الماضي.

وأقرّ المؤتمر العام لليونسكو في عام 1972م، اتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي، وتضم 38 مادة، من بينها ما يعنى بحماية التراث الثقافي الذي يشتمل على آثار من أعمال معمارية ونحت وتصوير على المباني والعناصر والمواقع التي تتضمن أعمال الإنسان والمشتركة بين الإنسان والطبيعة، ولكل دولة طرف في الاتفاقية أن تعين وتحدد الممتلكات الواقعة في إقليمها وواجبها في المحافظة على التراث.

التراث العمراني وتحديات الحفظ

يعد التراث العمراني كنزاً يستحق المحافظة عليه ومنحه كل الاهتمام، كونه يمثل الثروة الحقيقية لكل دولة، فهو جزء من هويتها، وجزء شاهد على تاريخ تحولاتها، وهو كذلك الطريقة لاستكشاف حياة الأولين، وما واجهتهم من صعوبات وطبيعة عيش، كما أنه الوسيلة للتعرف إلى كيفية عيش تلك الحياة، وبعض العادات والتقاليد التي اكتنفت عيشهم، فمن تصاميم تلك المباني نتعرف إلى ما كان مسموحاً أو محظوراً في العرف الاجتماعي، والأدوار الأسرية، بالإضافة إلى المعرفة المادية بالمواد الخام التي استخدمت وماهيتها، وإن كانت محلية خالصة أو كان بعضها من دول أخرى، وهو ما يشير كذلك إلى علاقات ربطت البيئة المحلية بغيرها من الخارج.

تعرضت المباني القديمة إلى العديد من العوامل التي عرضتها للاندثار، أو أبقت على أجزاء منها، كما أن هنالك منها التي صمدت بشكل هو الأقرب لشكلها الطبيعي، ومن أهم المخاطر التي واجهتها هي عوامل التعرية الطبيعية، والترميم والصيانة الخطأ دون الالتفات إلى المكونات الأصلية، وإهمال كثير منها، مما عرضها للانهيار، بالإضافة إلى العمارة الحضرية، وشق الطرق التي عرضت الكثير منها للإزالة.

لقد شهدت الشارقة الكثير من عمليات الترميم وإعادة التأهيل للمعمار التاريخي والتراثي فيها، وتخلل ذلك الكثير من الصعوبات، حيث شهدت في فترة ما سابقة عدم اهتمام بكثير من الأبنية، وتم هدمها أو هدم أجزاء منها، ويذكر في كتاب «مشكلة حفظ المباني التراثية في المناطق الحضرية بإمارة الشارقة» لجراهام أندرسون، أن العمارة القديمة التي شيدها بصورة فردية التجار وأرباب الحرف اليدوية والبناؤون قد أهملت ونظر إليها بتعال من جهة المخططين الذين فضلوا صيانة بعض النصب الأثرية، وتلك النصب لا تعطي وحدها صورة متكاملة للبنية التي كانت جزءاً منها، فهي كواجهات تاريخية منعزلة، ففي عام 1971م تم هدم قصر الحاكم (الحصن) من أجل شق شارع ذي مسارين تحفّه من جانبيه عمارات متعددة الطوابق

تشغل طوابقها الأرضية المصارف، وأطلق عليه اسم «شارع البرج»؛ لأنه تقرر ترك برج من القصر القديم فيه، كما أننا لا نجد إلا القليل جداً من الأدلة على وجود الخانات «مبنى مربع ضخم بداخله فناء يستخدم كمخزن»، والحمامات بالشارقة التي ضحوا بها لأجل التخطيط الحضري الحديث. مشيراً إلى أن بلدية الشارقة تبنت بأمر من صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى للاتحاد حاكم الشارقة، مقترحات عمرانية قدمت من قبل جهات عدة، تم استدعاؤها للمدينة أثناء فترة منتصف الثمانينيات للمحافظة على التراث العمراني.

رؤية وخطة حافظة للتراث

يقول صاحب السموّ الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى للاتحاد حاكم الشارقة: «إنّ التراث هو المرادف لوحدتنا الإنسانية، ندين للتراث، ولكل الحضارات القديمة التي كرّست سيرتها لتترك بصمتها في التاريخ الإنساني».

شهدت المباني العمرانية في إمارة الشارقة الترميم على مراحل زمنية عدة، ومن قبل جهات مختلفة، إلا أنها اجتمعت على تنفيذ رؤية وخطة صاحب السموّ الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، من بينها بلدية الشارقة منذ منتصف الثمانينيات، ومن ثم تولى قسم الترميم والصيانة في إدارة الآثار والتراث في دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة أعماله في قلب الشارقة ومحيطها، بعدئذ تأسس معهد الشارقة للتراث تطوراً له وتماشياً مع حرص حكومة الشارقة على حفظ وصون التراث المادي وغير المادي في الإمارة، وازدياد مهام الحفاظ والترميم، لتنتقل إلى مدن الإمارة كافة.

ومن بين أبرز المباني الدينية التي شملها الترميم في فترة التسعينيات، ومقتبل العام 2000م مسجد الدليل في الشويهين، مسجد المناعي ومسجد النابودة في المريجة، ومن البيوت كان بيت الشيخ سلطان بن صقر القاسمي (البيت الغربي) بيت النابودة والسوق القديم وسوق العرصة ومجلس إبراهيم المدفع وبيت الشيخ عبدالله المحمود وبيت سعيد الشامسي (الطويل) وبيت الشيخ عبدالله بن سلطان القاسمي، وكل ذلك في المريجة، وبيت السركال وبيت الشيخ محمد القاسمي وبيت تريم في الشويهين، ومن المباني الدفاعية حصن الشارقة وسور الشارقة ومربعة «الركن الجنوبي الشرقي» بيت الشيخ عبدالله بن سلطان القاسمي في المريجة، وبرج الفلج في الفلج، مربعة علي بن راشد في الخان، وحصن كلباء وحصن دبا وبرج وحصن الذيد.

وقد خضعت بعض تلك الأبنية لإعادة ترميم في وقت لاحق، وتغيير وظيفتها، حيث كان الهدف من ذلك أن تظل حاضرة في الفعاليات والمناسبات ذات العلاقة في الشأن الثقافي والتراثي والتاريخي، فمنها من أصبح متحفاً ومركزاً للفعاليات والفنون ومعلماً سياحياً، كما هي حال فندق البيت الذي ضم كلاً من بيوت إبراهيم المدفع، عيسى المدفع، عبدالرحمن المدفع، عبدالله المحمود، ومجلسي إبراهيم المدفع والنابودة، فليس الغرض من الترميم هو مجرد الحفاظ بل إحياؤه ليظل نابضاً بين الناس ولهم.

ولعل من أبرز الأسواق التي عمل معهد الشارقة للتراث على ترميمها سوق التمر، الشناصية، العرصة، صقر، كما توسع في مشروعات الترميم في المناطق الوسطى والشرقية، اللتين تزخران بالعمارة الدفاعية، حيث انصب اهتمام إدارة الحفاظ العمراني والترميم على إعادة ترميم وصيانة تلك المواقع، شملت حصن الذيد، ويضم المشروع إعادة بناء البرج الرابع للحصن والحفاظ على قنوات الأفلاج هناك، مع إضافة عناصر سياحية وتراثية في المنطقة المحيطة بالحصن، أما منطقة خورفكان التراثية، فتضمنت نزل الرياحين، وهو مجموعة بيوت قديمة في المنطقة التراثية، كما تضم متاحف شخصية، وبيوتاً للحرف التقليدية. واشتمل مشروع تطوير حصن

في على الحصن ومركز الشرطة، وهو برج مراقبة تابع للحصن ومحطة الوقود ومقهى بنيت في الستينيات. وينطوي مشروع خور كلباء التاريخية على إعادة بناء حصن خور كلباء ومتاحف شخصية وإعادة بناء المنطقة التراثية وبناء فندق تراثي.

الترميم والاستدامة

كشفت أعمال الترميم أن أبنية الشارقة وبالأخص بعد الحرب العالمية الثانية بنيت من الأحجار المحلية والجص، وتسمى تلك الأحجار (الحصى)، وهي حجارة البحر الصغيرة وحصى يسمى «بيم»، وهي في الغالب الأبنية التي استطاعت أن تبقى حتى ترميمها في مركز المدينة القديمة.

ونقف هنا على أبرز البنى المعمارية التي شهدت ترميماً وإعادة تأهيل في الشارقة، ونبدأها بتقسيم تلك البنى التي تقع تحت العمارة الدينية من جوامع ومساجد ومدارس، والعمارة الدفاعية من حصون وقلاع، وعمارة مدنية على اختلافها كالأسواق والمجالس والبيوت. ونظراً لاختلاف البيئات التي تضمها إمارة الشارقة، فإنه بطبيعة الحال ستختلف بشكل أو بآخر طبيعة البنى ومواد البناء، ففي مدينة الشارقة الساحلية فإن الحجر البحري والمرجاني هما مواد البناء الأساسية، وكون الحجر المرجاني قد حرم دولياً استخراجه من البحر، فإن عمليات الترميم اعتمدت على الحجر الكلسي، ومن بين البيوت التي رممت بيت حمد المدفع بقلب الشارقة الذي اتسم تصميمه بوجود البراجيل التي كانت آنذاك نظام التبريد المنزلي، وتعتبر خورفكان من المناطق الجبلية والساحلية، وهو ما ميز طابع البناء المعماري فيها باستخدام الحجارة الجبلية، بينما تعتبر مادة العمارة الأساسية في البيئة الصحراوية كمدينة الذيد هي الطابوق الطيني المصنوع من الطين، مضاف له القش والرمل، ومن ذلك نجد حصن الذيد، كما أن العمران في مدينة كلباء كان من الحجر الجبلي والوديان على اختلاف أحجامها، بالإضافة إلى الحجر البحري والمرجاني اللذين تشترك معهما في البناء، وكان الأخير يحرق لاستخراج الجص كمادة رابطة، بالإضافة إلى مادة اللبن، وتعتبر الأخشاب في أغلب بناء تسقيف المباني التراثية، ومن أهمها الجندل المستورد من إفريقيا، كما شاع استخدام جذوع النخيل المحلية والدعون والحصر من سعف النخيل، كما كان يستورد خشب البامبو.

تبدأ عمليات الترميم والصيانة بحسب خبير الترميم والصيانة عبدالستار العزاوي في عدد من مراجعه ذات العلاقة، بعملية التوثيق، وهي ضبط الحقائق العملية من خلال جمع المعلومات عن المكان والمبنى أو المباني، وما ذكر عنها في المصادر والمراجع، وتصويرها بشكل علمي ومفصل لكل أجزائها، ومن ثم رسم خرائط خاصة بالمعلم وتضمينه المقاسات بشكل دقيق وتوضيح المواد الأولية قبل الصيانة والترميم وبعدهما، يلي تلك العملية التي تستمر حتى خلال العمل، مرحلة التنظيف والكشط ويقصد بالتنظيف إزالة ورفع الأنقاض المتراكمة بداخل المعلم حتى تلك المحيطة بها، كما تتم إزالة أي إضافات دخيلة على المعلم، بعدها تتم عملية الكشط والغرض منها رفع التراكم عن الأرضيات والجدران والسقوف والذي بدوره يكشف عن مواد البناء الأصلي.

وتعتبر مرحلة التنقيب والكشف مرحلة مهمة، كونها توضح تخطيط العمران، وأهمها كشف أسس الجدران التي تفضي إلى التعرف إلى غرف تابعة للمبنى الأصلي أو أعمدة وسلالم على سبيل المثال. ويتطلب الترميم بعد ضبط مقاسات العمران وتحديد مواقع الجدران والمداخل والتعرف إلى الأسس التنفيذ وفق خطة واضحة ومحكمة، فيبدأ الحفر والتحري لمعرفة العمق وحالة وشكل أسس الجدران، وكما يتطلب حفر خندق في الداخل أو الخارج مواز للجدران، لغرض تنقيه الأسس من أي شوائب ومواد غير مساعدة لتماسك مواد الترميم الحديثة وأسس البناء القديمة.

تحوّلات فن (النوبان) في الإمارات

نظرةٌ أنثروبولوجيّة

علي العَبْدان
مدير إدارة التراث الفني
معهد الشارقة للتراث

يختص هذا المقالَ بالنظر في تحوّلات أحد الفنون الموسيقية الشعبية في الإمارات، هو فن النوبان، كأنموذجٍ يمكنُ قياسُ غيرهِ من الفنون عليه، وذلك في ضوء المنهجيْن التطوريّ والانتشاريّ في علم الإناسة (Anthropology)، إذ من خلال هذيْن المنهجيْن يمُكننا فهم وتفسير ظاهرة التغيّر في الفن الشعبيّ، عبرَ استقراء ومُعايَنة تأثير العوامل الجغرافية، والديموغرافية، والاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، في مختلِف جوانب الفن الأدبية (النصوص)، والأدائية (الرقص والإيماءات والتعبير البَدَنيّ)، والفنية (الألحان والأجناس الموسيقية والإيقاعية)، والحِرفية (صناعة الآلات وما يتعلق بها)، والاجتماعية (الأداء المُشترَك للرجال والنساء)

إن فن النوبان هو أحد الفنون التي جاءت إلى منطقة الإمارات وعموم سواحل الخليج العربيّ منذ نحو مائةٍ وخمسين عاماً، ويرجع أصله إلى إقليم النوبة، الذي يقعُ بين مصر والسودان، لذلك سُمّيَ هذا الفن في الإمارات خاصة بفن النوبان، كما يُطلقُ عليه في الخليج بشكلٍ عام اسم (طنبورة) أو (فن الطنبورة)، نسبةً إلى الآلةِ الرئيسةِ التي تُعزفُ فيه، وهذه الآلة كانت تستعملُها في الأصل قبائل (البجّه) في إقليم النوبة، وتُسمى هذه الآلة في السودان (الطنبور) بالتذكير، لكنه ذو حجمٍ صغيرٍ قياساً بالطنبورة الخليجية، ومن النوبة انتقلَ هذا الفن إلى البحر الأحمر، ثم اليمن، وعُمان، وسواحل الخليج العربي، ومن ثم إلى جنوب العراق، كما وصلَ إلى مكة، ففي عام 1889 التقطَ المستشرقُ الهولنديّ كرستيان سنوك هيروخرونيه صورةً تُظهرُ "عازفَ طنبورة في مكة، معه راقص منجور، وستةُ رجالٍ سُود في وضع الانتظار" .

وأصبح هذا الفن مشهوراً ومعروفاً لدى أهالي معظم هذه المناطق، ويُعد الآن من فنونهم الشعبية المعتمدة، والمُلاحَظ أن حجمَ واسمَ هذه الآلة قد تنوّعا بانتقالها، حيث نجدُ آلة تشبهها في بلدان البحر الأحمر تُسمى (سمسميّة)، وتُستعملُ حالياً في مدينة بورسعيد في جمهورية مصر العربية، وأيضاً في غرب المملكة العربية السعودية، حيث تُعزفُ في فن (الخبيتي)، وكذلك فن (الينبعاوي)، كما تطوّرَ (الطنبور) النوبيّ أو السودانيّ إلى (الطنبورة) الخليجية، التي أصبحت أكبرَ حجماً كما ذكرنا، ويُقالُ إن كلا الحجميْن قديم، وأن أحدَهما يُستعمل لأداء الفن، والآخر لحفل الزار والعلاج الروحي، وبالإضافةِ إلى ذلك طالت فن النوبان تطويراتٌ عدة، لم يكن جميعها إيجابياً بالضرورة، فبعضُ التطويرات عادت سلباً على الشكل التقليديّ لهذا الفن، وفيما يلي عرضٌ لستةِ تحوّلاتٍ أو تطوّراتٍ حصلت لفن النوبان نتيجة عواملَ مختلفة، مع الأخذ في الاعتبار أنني أعني بكلمة "تطور" هنا التحوّلَ من طَوْرٍ إلى طَوْر، وليس المعنى الاعتياديّ، الذي هو التقدم:

1. تطور آلة (الطنبورة):

الطنبورة، وتُسمى أيضاً طنبرة، هي الآلة الرئيسة المستعملة في فن النوبان، ونتيجةً لانتقال هذا الفن عبر بلدانٍ عدة في مراحل تاريخية مختلفة، لها ظروفها الخاصة؛ تغيّرَ حجمُ الآلة كما علمنا آنفاً، وقد يعود ذلك جزئياً إلى وفرة مواد الصناعة في البلدان التي انتهى إليها هذا الفن، إذ يُلاحظ أنها بلدانٌ مطلةٌ على البحر، ولها موانئ تجارية هامة (بورسعيد، جدة، ينبع، الشارقة، دبي، البحرين، الكويت، البصرة)، تأتي إليها مختلفُ أنواع الأخشاب، كما قد يعود الأمر من جانبٍ آخر إلى شُحّ المواد الأصلية التي كانت تُصنع منها الآلة في الموطن الأصليّ للفن، لكن هذا كله احتمال، وقد ذكرتْ من قبل أن للطنبورة حجميْن في الأصل، وأن لكلٍ منهما استعمالاً خاصاً، ولذلك، فمن المُستغرَب الاقتصارُ على أحد الحجميْن في معظم المناطق المذكورة آنفاً، فهي هناك إما كبيرة، وإما صغيرة.

2. تطور آلات الإيقاع في فن النوبان:

توجد ثلاثة أنواع من الطبول المُستعملة في فن النوبان في الإمارات، تُسمّى: (الراس)، و(الوسط)، و(امجينبُوَّه)، وتتميّز هذه الطبول بأنها تُغطّى بالجلد من جانبٍ واحدٍ فقط، ويبقى الجانبُ الآخر مفتوحاً، وكان العزفُ على هذه الطبول قديماً يختلف عنه الآن، حيث كانت تُدفن في الرمل من الجانب غير المُغطى بالجلد منها، وذلك من أجل أن يكون صوتها "مكنون" كما يُقال في هذا الفن، أي غير ظاهر بصورة قوية، وذلك لكي يُناسبَ طبيعة صوت الطنبورة، أما الآن فلم تعد الطبول تُدفنُ في الرمل، بل توضعُ لها قواعد خشبية، أو تكون مغلقة بالجلد من الجانبيْن. إن السببَ الرئيس في تغيير صناعة هذه الطبول – حسب ملاحظتي الخاصة – يعود إلى التغيير الحَضَريّ الذي شهدته الإمارات خلال الخمسين عاماً الماضية، فحين كانت ساحات المُدن الإماراتية في الماضي رمليّةً، كان تقليد دفن طبول النوبان مُتبعاً، بل كانت له وظيفةٌ موسيقيةٌ كما علمنا، ولكن حين أصبحت الساحات والميادين العامة التي يُؤدى فيها هذا الفن مرصوفةً بالأحجار الصناعية ونحوها (Interlock) تعذّر دفنُ تلك الطبول، ولمّا كان مُمارِسو هذا الفن بحاجةٍ إلى بقاء فنهم واستمراريّته اضطروا إلى إغلاق الجانب الفارغ من كل نوع من الطبول، إما بإضافة جلدٍ جديد، وإما بوضع قطعةٍ من الخشب الرفيع، لكنّ ذلك أثّرَ كثيراً في طبيعة تجسيد الإيقاع المصاحب لهذا الفن،

إذ إن الصوت الصادر من تلك الطبول بعد إغلاقها من الجانبيْن أصبح عالياً جداً، وطاغياً على صوت الآلة الرئيسة (الطنبورة)، لذلك يطالب الكثير من الفنانين الشعبيين بتخصيص مساحاتٍ رمليةٍ في المهرجانات التراثية لأجل أداء الفنون الشعبية كما كانت عليه في الماضي بما يضمنُ بقاءَ الأصالة حسب رأيهم. لكنّ موضوعَ الأصالة غيرُ مؤكَّدٍ إلا جِهَوياً أو إقليمياً فقط، فالصورة التي نشرَها المستشرقُ الهولنديّ هيروخرونيه لفرقةِ طنبورة في مكة عام 1889 تُظهِرُ طبولاً مُغطّاةً بالجلودِ من الجانبيْن.

3. تطور آلة (المنيور):

آلة المنيور / المنجور، هي حزامٌ عريض من الجلد أو القماش، يُعلقُ عليه الكثيرُ من ظلوف الماعز، ويُلبَسُ المنيور حولَ الخصر عند أداء النوبان، حيث يُصدِرُ صوتاً كصوت اهتزاز "الشخليله" عندما يهز لابسُها خصرَه مصاحباً آلة (الطنبورة) على إيقاع هذا الفن"، وإذن فالأصل في آلة (المنيور) استعمالُ أظافرُ أو أظلاف الماعز، ولكن حين جاء هذا الفن إلى سواحل الخليج العربيّ استُبدِلت الأظلافُ بالقواقع البحرية، ولا يخفى ما في هذا التطوير من الأثر البيئيّ، ففي ساحل الإمارات مثلاً تقِلُّ أعدادُ الماشية، وتكثرُ في الداخل، ولذلك لا يمكن الحصول على الكثير من الأظلاف، في حين يتوافرُ الكثيرُ من القواقع على الساحل، كما استعملَ بعضُهم فيما بعد أغطية زجاجات المشروبات الغازية التجارية التي وردت إلى الإمارات منذ أوائل الستينيات تقريباً، وقد رأيتُ بنفسي (منيوراً) بهذا الشكل في السبعينيات، لكن هذا التطوير لم يَدُم، وعاد استعمالُ أظلاف الماعز في هذه الصناعة بسبب انتشار الوعي بأهمية الحفاظ على الحِرَف الشعبية كما كانت عليه.

4. انحسار مشاركة النساء للرجال في هذا الفن:

فن النوبان هو أحد فنون الإمارات الشعبية القليلة التي يشترك في أدائها النساءُ مع الرجال ، وقد لاحظ الباحثُ أنه مع تطور المفاهيم الاجتماعية والثقافية أخذت هذه المشاركة في الانحسار تدريجياً، وتناقص عددُ النساء اللاتي يقبلن بالمشاركة، إلا أن المطالبات بالحفاظ على فنون الأداء كما هي؛ بالإضافةِ إلى تقديم الحوافز المادية التشجيعية؛ قد أعادَ الأداءَ المشترَك إلى هذا الفن.

5. تطوّر النصوص الأدبية في فن النوبان:

كانت نصوص فن النوبان في الماضي البعيد مقتصرةً على النصوص النوبيةِ الأصلية، ولكن مع مرور الوقت وتغير الأذواق دخلت نصوصٌ متنوّعة إلى هذا الفن، الأمر الذي خلقَ له وجهاً من التعدديةِ الثقافية والأدبية.

6. ابتداع نوع من فن النوبان:

أنواع أداء فن النوبان لا تختلفُ في معظم المناطق التي يوجد ويُؤدّى هذا الفنُ فيها، فهي ثلاثة أنواع: القادري، والنُوبي، والحَبْشي، إلا أن هذا الفن قد عرفَ نوعاً نادراً في الإمارات، يُسمى: سواحلي، ونصوصُهُ سواحيلية، أي من شرق إفريقيا، وهذا يُفسّرُ الاسمَ من ناحية، كما يُشيرُ إلى الهُويّة الثقافية لمَن ابتدَعَه من ناحيةٍ أخرى، وهم المواطِنون من أصول شرق إفريقية، وهذا بُعدٌ إنسانيٌّ آخَر. أخيراً أقول إن قدرة الفن الشعبيّ على التكيّف والبقاء مثيرةٌ للاهتمام الإنسانيّ / الأنثروبولوجيّ، فمعظم أنواعه كانت قد دخلت في أطوارٍ وتحوّلاتٍ عديدة، وتغيّرت بعضُ سِماتِها بفعل عواملَ مختلفة، ومن تلك العوامل تغيّر البيئة، واختلاف العادات والتقاليد، واستعمال أجناسٍ موسيقيةٍ جديدة، وتكييف الآلة الموسيقية الشعبية لهذه الأجناس الموسيقية الجديدة، ومن خلال ملاحظة مختلف العوامل التي أدت إلى حصول تغيّراتٍ في الفن الشعبيّ، قد تكون نوعيّةً أحياناً كثيرة، يمُكنني القولُ بأن مبدأ (الصراع من أجل البقاء) كان مُحرّكاً أساسياً في تلك التطورات التي حصلت للفنون الشعبية، فمن أجل بقاء الفن الشعبيّ كان الفنانون والحِرَفيّون يستجيبون للتأثيرات الطارئة، ويدخلون فيما يمكن أن يُسمّى (ظرف التكيّف مع المُتغيّرات)، ومن ثَمّ أصبح الفن الشعبيّ قابلاً لإدخال التعديلات الضروريّة للإبقاء عليه حيّاً ومستعملاً.

فن الفجري

علي العشر
خبير تراث فني
معهد الشارقة للتراث

الفجري نوع من الغناء الشعبي، يختص به الرجال فقط، حيث إنه يؤدى جماعياً.
وللفجري طابع خاص، هو أنه وجداني فريد، كما أن أداءه الغنائي يتميز بالطابع الكورالي الجماعي من النوع الاستجابي المعروف منذ القدم، وفيه إيقاعات مميزة وصعبة، إلى أبعد ما يمكن أن يتصور الخيال، إذ إن إيقاعات الفجري دائمة التغير والتلون، وذلك بسبب أنواع التشكيلات الإيقاعية التي ترافق الوزن الإيقاعي الأساسي الطول.
فن الفجري هو فن ترفيهي غير عملي؛ بمعنى أنه لا يؤدى في أثناء رحلات الغوص، ولكن يؤدى من بعد رجوع البحارة من الغوص، حيث يؤدى غالباً في الشتاء، وفي مجالس الفن، حيث يتجمع البحارة للتسلية من بعد معاناتهم عناء التعب في رحلتهم الطويلة.
اسم الفجري مستعمل للدلالة على تلك الأغاني البحرية المسلية التي تؤدى على اليابسة أو على ظهر السفينة، ولكن خارج ساعات عمل البحارة.
ويسمى فن الفجري بهذا الاسم فقط في مملكة البحرين وفي دولة قطر، وفي بعض مناطق المملكة العربية السعودية، مثل منطقتي دارين والدمام، أما في دولة الكويت وحتى إن كانت أغاني التسلية هذه موجودة، فإنهم لا يسمونها بهذا الاسم، فهذه اللفظة؛ أي لفظة الفجري تستخدم في الكويت للدلالة على نوع آخر من الأغاني مختلف عن هذا كل الاختلاف، ويسمى فن الفجري.

أنواع الفجري:

لغناء الفجري خمسة أنواع متعارف عليها، وهي البحري ثم العدساني، وهما أصعب أنواع الفجري، ثم يأتي بعدهما الحدادي ثم المخولفي ثم الحساوي.
وعليه سوف نتحدث عن هذه الأنواع، إن شاء الله، في الأعداد القادمة، وبالتفصيل عن كل نوع منها.

النبات
في الصورة الشعرية

محمد عبدالله نور الدين
كاتب وناقد ـ الإمارات

يحقق العنصر النباتي في القصيدة التوازن النفسي للشاعر والمتلقي، إذ إنه يدل على الحياة واستمراره، ويبقى دليلاً على السعادة والرفاه في هذه الأراضي القاحلة من أراضينا، وعليه، فإن الشعراء طالما وظفوا العنصر النباتي في قصائدهم وبالذات صورهم الشعرية.

يقول تعالى: «وجعلنا من الماء كل شي حي»، فالماء هو الحياة عند الإنسان وفي المناطق الصحراوية مثل أغلب أجزاء شبه الجزيرة، فإن شح المياه جعل الغطاء النباتي محدوداً، فازدادت أهميته جداً، لدرجة أن المطر أصبح رمزاً للسعادة والعشب رمزاً للرفاهية وهما عنصران جداً بسيطان وعاديان في المناطق الخصبة من الكرة الأرضية، وانطلاقاً من هنا فإن الشاعر بصفته باحثاً عن الجمال، فقد زيّن قصيدته كثيراً بالعناصر النباتية حتى وظفها في الصور الشعرية، فعلى سبيل المثال: نجد الصورة الواقعية الآتية:

دارنا جنات مزروعة بالنخل والكل يجنيها
والفواكه لي زخر نوعه في الإمارات ونواحيها
والزهر لي فايع فوعه راحة النفس ومناويها
دار عز وناس مرفوعة بالجدا وكتاب باريها
خير عم الشعب وجموعه في رخا وفي خير راعيها
بالزجنجل خضّب صبوعه بوخصر هايف ولافيها
المناظر والرخا روعة نعمةٍ من عند واليها[1]

وهنا صورة واقعية أخرى تبين أثر الأشجار الخضراء على مزاج الشاعر، فتقول عوشة بنت شملان، وهي على ما تبدو مسافرة نحو الساد:

ريح الشير فجج أذنيه وابرانيه من كل الايهاد
كيفات ودروبٍ عذيه وين الظبي يرتع ولا يصاد
يا رب كان اليه منيه تجعل مماتي رملة الساد[2]

فالشاعر يكفيه أن يصف الواقع كي يحقق النشوة التصويرية لدى المتلقي؛ لأن وقع استرجاع المناظر الخلابة له تأثير قريب من وقع الصورة الشعرية، والصورة الشعرية توظف النبات في كل أوجهها بدءاً من التشبيه، كما هو في المثال الآتي:

خصّني من قبل لا اخصه بالسلام وبالترحيبِ
حي لي متحنّي قصه بوجديماتٍ شرى الحيبي

هنا يشبه الشاعر رجل المحبوب بالحيب من شدة البياض صفاء الشكل والملمس، وكما في القصيدة التالية للمغفور له الشيخ زايد:

عود موزٍ رابي بجنة بازغٍ زاخر وغريافي
غصن والخالق مسوّنه خالقنّه بحسن لاوصافي

هنا لا يكتفي الشاعر بتشبيه المحبوب بشجرة موز، وإنما هناك امتداد تصويري لهذا التشبيه وهو أنه ينمو في الجنة، طبعاً الجنة هنا لها دلالتين أي قد تكون بستاناً على الأرض أو جنة الخلد ووجود دلالتين لمفردة واحدة تنعش خيال المتلقي، مثل ما فعل في اختيار مفردة «رابي» للعود فأخرج التشبيه من بساطته إلى مستوى الاستعارة، فالعود إن كان نابتاً في الجنة يختلف عن العود إن كان رابياً؛ لأن المفردة تستخدم للإنسان، وبها يخرج التشبيه إلى المستوى الاستعاري أيضاً.

أما على المستوى الاستعاري، فهنا مثال من قصيدة للشيخ خليفة بن شخبوط، وفيها استعارة العود الهائف لوصف المحبوب الذابل بعد أن تقدم به السن:

يا عود ريتك هايف ... ومنك اسقطت لاوراق
بونك مظل ونايف ... وكل قلب لك شفّاق
تزهو بفرع وصنايف ... ومقيل للعشاق

وهنا استعارة أخرى:

يا عويدٍ قل منفوعك ... ما بهرق في السبخ سعنا
غرّني طولك ومنسوعك ... وانت شروى الشوع ما تعنى
لو نخل بنقطّع يدوعك ... ما نبا قيظك ولو يعنا[3]

وهنا مثال آخر واستعارة أخرى لجمال المحبوب:

موزٍ على العامد عروقه ... زاخر ولا ياه السهامي
في شفه النفس معتوقه ... يلين يرجع بالسلامي[4]

تقول سلمى بنت الماجدي في قصيدتها اليتمية:

إلى سفّت الشعّار خوصٍ مضاعف
تنقّيت من خوص الخوافي قلوبها

وفي تالي القصيدة تقول في صورة كلية:

لي قبْض عُود الشّكْل قمصان عاقل
خَذْها بروفٍ لا انّسارى هدوبها
ولي قبض عُود الشّكْل قمصان جاهل
خذها بزوفٍ وأرّث الشِنْع ثوبها

هنا تنتقل الصورة إلى مستوى الكناية؛ لأنه لا يقصد فقط عود الشكل إنما يريد أيضاً الإشارة إلى التريث في الأمور فالعاقل من يتعامل مع الأمور بحكمة، وإن استشكل عليه أمرٌ معين لم يتكبّر عن سؤال من هو أعلم منه وأكثر خبرة في ذلك المجال، والجاهل يظن أن القوة والشدّة، هي الحل، فيكون إفساده للأمور أكثر من إصلاحه لها، ولأن الأخطاء يختلف أثرها وحجمها بالمستوى الوظيفي للشخص، فإنّه من الطبيعي أن تكون أخطاء مَن يعتلي السُّلَّم أكبر وأشد فداحة!

وفي قصائد من التراث نجد الصورة المعتمدة على الكناية منتشرة مثل:

قدرتي يا ناس لومية ... وطلبة المحبوب رمانه
والمصيبه قال روبية ... والمخابي ما بها آنة[5]

زارعٍ في البيت رمّانه ... ونخلة وحده ولومية
ما اثمرن والأرض رويانه ... شوكهن لي قطّع ايديه[6]

زرعت صرم بين نقيان ... عييت من سقيه ولا شب
هل في الصديق يضيع الاحسان ... شروى الشجر لي يازم مْغب[7]

لي يخضّب كفه بحنّا ... لا تظن العهد يوفي به
لو عطيته السلوّ والمنّا ... والذي يطلب له تجيبه
مول لا تحسن به الظنّا ... اتله ويبين لك عيبه[8]

ولا يكتفي الشعراء بالكنايات، وكما أشرنا في بداية المقال يبدأ الشاعر بإسقاط مشاعره على الطبيعة، ويشخّص أو يأنسن العنصر النباتي، كما في المثال التالي مع شجرة اللوز:

أشتكي لله يا اللوزة ... كم خويٍّ مُر يندافِ
صابغ الاجدام واليوزة ... والعطر في خده ارضافِ
لو دريت الزين باحوزه ... كان باسلّم له آلافِ[9]

أو مع شجرة الليمون في المثال الآتي:

اسميك (بالحل) يا اللومية ... تذرين المستخيف
ركنج (عودج) ظلل عليه ... يوم ملاقي الوليف[10]

وأخيراً، نجد قصائد تنقل الصورة الشعرية من مستوى التشخيص إلى الصورة الشعرية الكلية، مثل حوار التالي مع خشكارة كانت أمام قصر الحصن، قال عنها عبدالله بن السيد أحمد:

يا خشكارة خليفه ... شوفي الدهر خلاج
فارقتي لج وليفه ... مثل الونيس حذاج
فرض اللاما كليفه ... الله يحسن عزاج
ان عاد شفتي شيفه ... والا الحقي بخواج
ما في الدنيا صريفه ... إلا كثرة وزاج

وقصيدة أخرى أيضاً مشابهة في المستوى التصويري، قالها علي بن سالم المرر، يخاطب فيها ذكر النخيل الذي كان قائماً وحده في إحدى الجزر، ولما رآه الشاعر تذكر النخيل وموطنه الذي نشأ وتربى فيه. ثم يذكر محبوبته التي تعيش في تلك الأماكن:

يا فحّال اليزيرة ... في لوحده م اجاك
أشوف أحوالك ضريرة ... ما كن حد حذاك
كم جاسيت الحجيرة ... ما حد صبر شرواك
لو في حصن لبصيره ... كان محبي لفاك
وداس ارضك بالجبيره ... وأصبح يندى ثراك
لي هيضت السريره ... قطع القمة عساك
وآزم يدعك حضيرة ... رسم الذاري عفاك

خلاصة القول، إن العنصر النباتي في داخل القصيدة النبطية له حضور خاص ومميز، إذ نلاحظ من ناحية أن هذا العنصر له تأثير جليّ يبدأ من خارج القصيدة، فيصبح الشاعر مفتوناً بالطبيعة الخلابة التي تؤثر في مزاجه وتثير قريحته الشعرية، ليبدأ في إيراد هذه الصور الواقعية في القصيدة بالوصف والتفصيل، وقد يضيف بعض المبالغة التي اعتاد الشعراء على إضافتها لأوصافهم.

ونلاحظ من ناحية أخرى أن الشاعر قد يتأثر بشحنة من العواطف الجياشة، فيبثها في قصيدته، وقد يكون العنصر النباتي من العناصر التي يبث فيه الشكوى، فيتشخص العنصر أو يتأنسن، ويستمع إلى شكواه ولكن وإن لم يجبه أو يحاوره، فإنه يلبي حاجة الشاعر إلى الأذن المصغية أو مستودع الأمانة والأسرار التي يحتاجه، فالحاجة الملحة إلى النبات من أجل استمرار الحياة هي حاجة أيضاً للتوازن النفسي الذي يحتاجه الإنسان.

---

1. (دراسة تحليلية ج2 ص257)
2. (أشياء من الماضي: ص52)
3. محمد بن راشد المطروشي: أشياء من الماضي ص156
4. أشياء من الماضي: ص 148
5. أشياء من الماضي، ص182
6. أشياء من الماضي، ص195
7. محفوظات من رواية الحظ فرحان الكويتي
8. أشياء من الماضي، ص231
9. أشياء من الماضي، ص104
10. أشياء من الماضي، ص109

الشيخ أحمد الخميس

قاضي الكويت ومعلّمها

طلال سعد الرميضي
كاتب - الكويت

هناك بعض المؤلفات القيّمة التي صدرت مؤخراً، وتتناول رموز الثقافة والأدب والعلم في منطقة الخليج العربي، وقد أسهمت في إثراء الحركة الدينية عبر أدوارهم المميزة، ومن هذه المؤلفات التي صدرت مؤخراً كتاب جميل للباحث الكويتي بدر الزوير، وهو بعنوان «الشيخ أحمد الخميس الخلف قاضي الكويت ومعلمها وخطيبها»، وثّق جوانب مهمة من حياة هذا العالم الجليل الذي خدم الشرع الحكيم عبر حياته الكريمة.

وقد جاء هذا الكتاب الجديد في 454 صفحة من الحجم المتوسط، وقسم إلى ثلاثة فصول، هي الفصل الأول الذي تناول فيه اسمه وصفته وولادته ونشأته ورحلته لطلب العلم ومشايخه ودراسته في مدرستي المباركية والعامرية، وتجربته في التدريس في المدرسة الأحمدية، واختياره قاضياً في دولة الكويت، وإمامته مسجد البدر بمدينة الكويت القديمة مدة تقارب الخمسين عاماً، وكذلك آراؤه ونيّاته ومكتبته، وعضويته في بعض المجالس، ومن أقوال العلماء عنه.

أما الفصل الثاني، فقد تطرق الباحث بدر الزوير إلى الآثار العلمية للشيخ أحمد الخميس في ثلاثة مباحث مهمة، وهي الرسائل والخطب المنبرية، والقصائد الفصحى التي نظمها هذا الشيخ الجليل.

وفي الفصل الثالث خصّ به الباحث موضوعات عدة، والصور والوثائق المتعلقة بالخميس، ونماذج من المخطوطات التي تملكها الشيخ أحمد الخميس، والمقالات التي كتبها، ونماذج من مكتبته الخاصة، وأوراقاً من مذكراته القضائية أثناء عمله بسلك القضاء، وبعض كراسات طلبته القدامى.

ونجد أن الباحث بدر الزوير قد توفق كثيراً لاختياره هذه الشخصية الكريمة التي هضم حقها في التدوين والتأريخ، وقد بذل المؤلف جهوداً كبيرة في جمع المصادر والمراجع والروايات حول حياة الشيخ أحمد الخميس، الذي يعتبر من علماء الكويت وقضاتها، واسمه الكامل هو أحمد بن خميس الجبران الحربي، المشهور بالشيخ أحمد الخميس الخلف، نسبة لخاله العالم الكويتي الجليل عبدالله بن خلف الدحيان، رحمهما الله.

ولد الشيخ أحمد الخميس في سنة 1313هـ الموافق 1897م، في فريج الشيوخ بحي الوسط، ثم انتقل إلى منزل خاله في محلة البدر بالحي القبلي، ودرس في

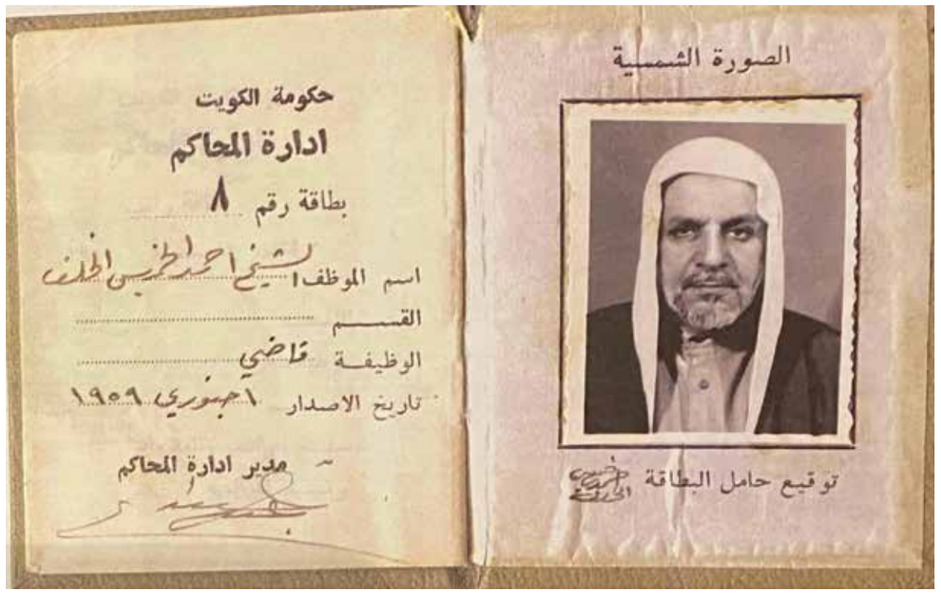

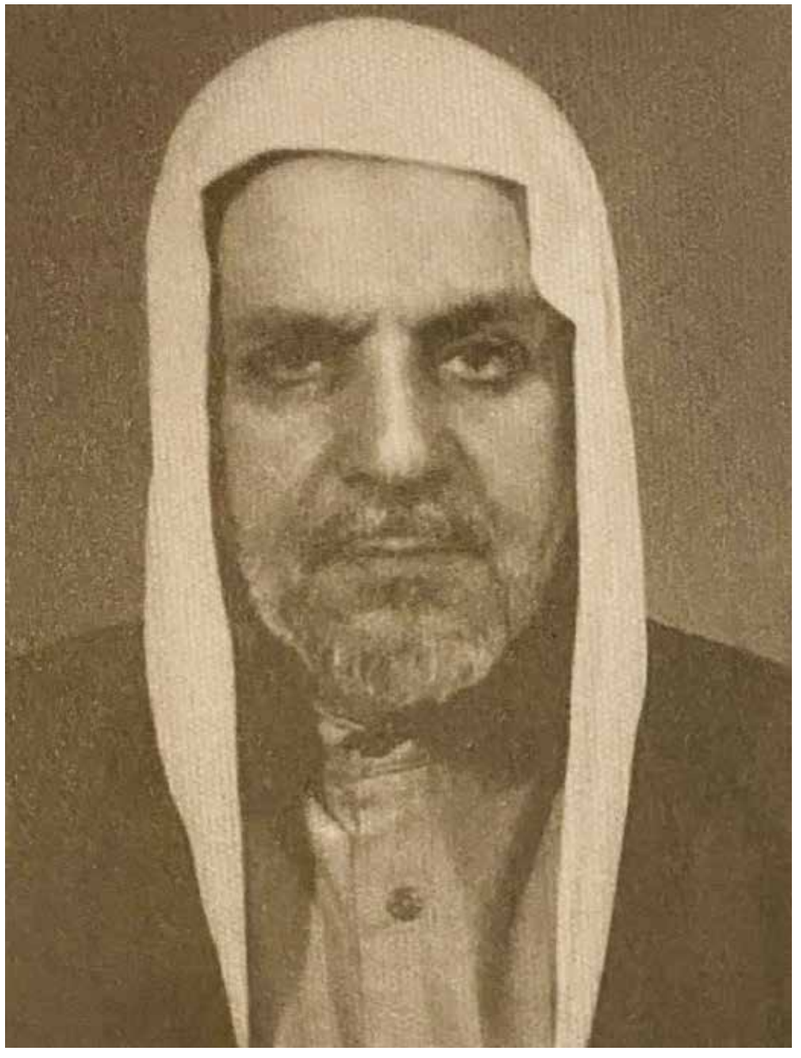

مدرسة الشيخ عبداللطيف العمر القرآن الكريم ومبادئ القراءة، ولما بلغ عمره 13 سنة، أرسله خاله الشيخ ابن خلف إلى مدينة الزبير لطلب العلم فيها عند العلماء أمثال الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن الحمود، والشيخ محمد بن عبدالله العوجان والشيخ عبدالمحسن إبراهيم البابطين، ثم توجه إلى مدينة بغداد، ودرس عند الشيخ الكبير محمود شكري الآلوسي، وهو من علماء بغداد المشهورين، وكذلك عند العلامة الشيخ محمود سليمان.

ثم عاد ابن خميس إلى الكويت، وأصبح حريصاً على دواوين العلم ومجالسة العلماء في الكويت، أمثال الشيخ عبدالعزيز العلجي، والشيخ مساعد العازمي، والشيخ محمد أمين الشنقيطي، وغيرهم.

وقد عمل في سلك التدريس بالمدرسة الأحمدية في عام 1923م، وكذلك في مدرسة السعادة التي افتتحها الوجيه شملان بن علي آل سيف؛ لتدريس الأولاد الصغار من اليتامى والفقراء بالمجان، واختير الشيخ أحمد الخميس، مديراً للمدرسة ومعلماً فيها.

كما كان للشيخ الخميس حضوراً مميزاً في المحافل الثقافية في الكويت، ويشارك في ندواتها وأنشطتها، وفي عام 1949م، تم اختياره ليكون قاضياً لدولة الكويت؛ ليخدم الناس عبر مرفق القضاء بكل أمانة وعدل، واستمر في وظيفته بالسلك القضائي حتى إحالته للتقاعد عام 1973م.

وكذلك كان الشيخ أحمد الخميس إماماً وخطيباً لمسجد البدر مدة خمسين عاماً، من عام 1914م، واشتهر بخطبه التي كان يلقيها عبر منبر المسجد، وتتناول موضوعات متنوعة تلامس شؤون المسلمين وأحوالهم.

وكان، يرحمه الله، يتصف بالأخلاق الفاضلة والإتقان في عمله، وتوفي عام 1974م في لندن أثناء رحلة علاجه مع المرض.

والمؤلف بدر عبدالله حمد الزوير، هو باحث كويتي معروف عنه التخصص في تاريخ التعليم والتراث الكويتي، ولد عام 1968م، وحصل على دبلوم كمبيوتر ومايكروفيلم من كلية الدراسات التجارية عام 1992م، ومن مؤلفاته كتاب «ذكرى مرور مائة عام على إنشاء المدرسة المباركية»، وكتاب «المدرسة الأحمدية»، وله مؤلفات عدة تحت الطبع.

ختاماً، نشكر الباحث الجاد بدر الزوير، على هذا الجهد الرائع في تأليف كتاب عن شخصية جليلة رحلت عنا قبل نصف قرن، ولاتزال ذكراها حيّة بيننا بفضل جهود الزوير الذي أضفى الوفاء والإبداع على قلمه.

الزواج
وآثاره في حياة الفرد والجماعة
نظم : فضيلة الشيخ أحمد الخميس
– المصدر: مجلة الوعي الإسلامي – العدد أغسطس 1967 م

الكويت
تمنع الخمر
لفضيلة الشيخ احمد الخميس
– المصدر: مجلة الوعي الإسلامي – العدد الثاني يونيو 1965 م
- 334 -

المِلكان العاقلان

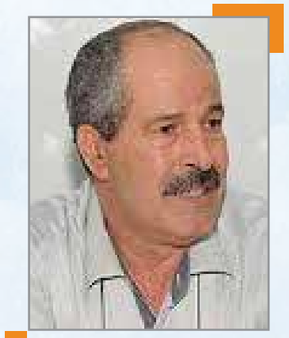

سعيد يقطين
كاتب - المغرب

تنبيه أول: إذا كان العدل أساس الملك، فإن العقل ركيزة السيادة.

1. الإسكندر في الصين:

قال القاضي أبو القاسم علي بن المحسن بن علي التنوخي، حدثني أبو الفرج الأصبهاني من حفظه، قال: قرأت في بعض أخبار الأوائل أن الإسكندر لما انتهى إلى الصين ونازل ملكها، أتاه حاجبه، وقد مضى من الليل شطره، فقال له: رسول ملك الصين بالباب يستأذن عليك، فقال: ائذن له، فلما دخل وقف بين يديه وسلم، وقال: إن رأى الملك أن يخليني فليفعل، فأمر الإسكندر من بحضرته بالانصراف، وبقي حاجبه فقال له الرسول: إن الذي جئت له لا يحتمل أن يسمعه غيرك، فأمر بتفتيشه ففتش، فلم يجد معه شيء من السلاح.

2. الملك في دور الرسول:

فوضع الإسكندر بين يديه سيفاً مجرداً، وقال له: قف مكانك. وقل ما شئت، ثم أخرج كل من كان عنده. فلما خلا المكان، قال له الرسول: إني ملك الصين لا رسوله، وقد حضرت أسألك عما تريده مني؟ فإن كان مما يمكن الانقياد إليه، ولو على أصعب الوجوه أجبت إليه، وغنيت أنا وإياك عن الحرب. فقال له الإسكندر: وما أمنك مني؟ قال: «علمي بأنك رجل عاقل، وإنه ليس بيننا عداوة متقدمة، ولا مطالبة بحل، وإنك تعلم أن أهل الصين إن قتلتني لا يسلمون ملكهم إليك، ولا يمنعهم عدمهم إياي أن ينصبوا نفسهم ملكاً غيري، ثم تنسب أنت إلى عين الجهل وضد الحزم».

3. المفاوضة - التنازل:

أطرق الإسكندر، وظل يفكر فيما قاله له ملك الصين، وتبين له أنه رجل عاقل. ثم قال له: «الذي أريده منك ارتفاع ملكك لثلاث سنين عاجلاً، ونصف ارتفاعه في كل سنة، فقال: هل غير ذلك شيء؟ قال: لا. فرد عليه ملك الصين: قد أجبتك».

لكن الإسكندر بحذقه، ومعرفته بدقائق الأمور، وأن مطلبه شاق على الملك وشعبه، ولا يمكن أن يتحمله لما يمكن أن تكون عليه من آثار سلبية على بلده،

فبادره بالسؤال الدال على الانشغال بما كان قد أجابه به، قائلاً: فكيف تكون حالك حينئذ؟ كان جواب ملك الصين مفصلاً على قدر مطالب الإسكندر، فالمطالبة بارتفاع ملكه ثلاث سنوات سيؤدي بالملك إلى أن يكون: قتيل أول محارب، وأكلة أول مفترس. لا شك في أن الرد قاس جداً، فتنازل الإسكندر قائلاً: وإن قنعت منك بارتفاع سنتين كيف يكون حالك؟ أجاب: أصلح مما يكون، إذا لزمت بما تقدم ذكره. قال: فإن قنعت منك بارتفاع سنة واحدة، قال: يكون ذلك مجحفاً بملكي ومذهباً لجميع لذاتي. تنازل الإسكندر مرة أخرى، وهو يتأمل الأجوبة المسكتة. ثم قال: فإن اقتصرت منك على السدس. قال: يكون السدس موفراً، والمتبقي لجيشي ولأسباب الملك.

قنع الإسكندر بالسدس ما دام سيلبي الحاجات الضرورية التي لا يمكن أن يستغني عنها البلد والمُلك. قال: فقد اقتصرت منك على هذا. فشكره وانصرف. كان التفاوض بين ملكين من طراز خاص، يحسنان الإنصات إلى الآخر. لكل مطالبه، ولكن باحترام وحسن تدبير. فلا يحب أحدهما الضرر للآخر، وكل منهما في مستوى مجاراة الآخر، وتقدير وضعه. فكان التفاوض، وكان التنازل مرضياً لهما معاً. فلم يؤد ذلك إلى حدوث ما يجعل من جاء للحرب أن يفقد سلطته، ولا من كان محارَباً أن يتنازل عن وطنه وشعبه وملكه. كان الملكان العاقلان متساويين في التفاوض والتنازل. ومن حكمة ملك الصين أنه جاء رسولاً، ليخاطب الإسكندر مباشرة، ومن دون وسيط، وتكون العلاقة، تبعاً لذلك، بينهما متكافئة.

تنبيه ثانٍ: لا معارضة لمن أقبلت عليه الدنيا، والحكمة في النباهة وحسن التصرف.

4. اللقاء ـ الاعتراف:

فلما أصبح وطلعت الشمس، أقبل جيش الصين حتى طبق الأرض، وأحاط بجيش الإسكندر حتى خافوا الهلكة. وتواثب أصحابه، فركبوا، واستعدوا للحرب. لم تكن للتفاوض والتنازل نتيجة ملموسة. خروج جيش بكامل العدة والعدد الذي يكاد يفوق جيش الإسكندر لا معنى له. هذا ما دار في خلد الإسكندر، وهو يعاين كثرة الجيوش، وهول الاستعراض. لكن قلقه سرعان ما تلاشى وتبدد، إذ ظهر ملك الصين وعليه التاج، ولما وصل إلى حيث الإسكندر ترجل. فقال له الإسكندر: أغدرت؟ قال: لا والله. قال: فما هذا الجيش؟ قال: أردت أن أعلمك أني لم أطعك من قلة ولا ضعف، ولأن ترى الجيش، وما غاب عنك منه أكثر. لكني رأيت العالم الأثير مقبلاً عليك ممكناً لك، فعلمت أنه من حارب العالم الأثير غلب، فأردت طاعته بطاعتك، والذلة لأمره بالذلة لك.

رأى ملك الصين أن الأيام دول، وأنها تعطي للبعض ما لا يعطى لغيره في زمن ما. ومعاندة المحظوظ، ومن تقبل عليه الأيام خسارة. فكانت طاعته لا بسبب الضعف أو الخوف، ولكن مجاراة لرياح الزمن. فصان ماء الوجه، ولقي الإكبار والإجلال.

تنبيه ثالث: عدو عاقل، أخير من صديق جاهل:

لا يمكن للإسكندر إلا أن يكمل مسيرته بالطريقة نفسها مع الملك العاقل، معبراً بذلك عن إقبال العالم عليه، لم يكن مصادفة، ولكنه دليل على أن ذلك الإقبال وليد عقل وحكمة تميز بهما عن غيره من ملوك الدنيا في زمانه، فقال له: ليس مثلك من يؤخذ منه شيء. فما رأيت بيني وبينك أحداً يستحق التفضيل والوصف بالعقل غيرك، وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك، وأنا منصرف عنك. فقال ملك الصين: «أما إذا فعلت ذلك، فلست تخسر، فلما انصرف الإسكندر أتبعه ملك الصين من الهدايا والألطاف بضعف ما كان قرره معه. فكان جزاء الإحسان الإحسان.

عن عالم القراءة

حسين الراوي
كاتب - الكويت

للعلماء والأدباء والروائيين وأهل العقول العظيمة إدراك عميق، وتجارب ثمينة، وخبرات جميلة، يحكون عنها في عبارات مختصرة، يضعون فيها أحاسيسهم نحو تلك الأشياء التي يحبونها، ومن تلك العادات التي هي من أبرز الأشياء التي يحرص عليها أهل الفكر والوعي هي (القراءة)، وفي هذا المقال حرصت على أن ألتقط لكم أعذب العبارات التي قيلت عن عالم القراءة.

«وإني أخبر عن حالي ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتاباً لم أره، فكأني وقعت على كنز، ولو قلت إني طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر، وإن أبعد في الطلب». ابن الجوزي.

«لن يكون هناك بلد متحضر حتى ينفق على الكتب أكثر مما ينفق على شراء العلكة». ألبرت هيوبارد.

«الكتب التي نقرؤها يجب أن نختارها بعناية فائقة، وبهذا نكون كالملك المصري الذي كتب على مكتبته: عقاقير الروح». أوليفر هولمز.

«كثير من الكتب لا تتطلب تفكيراً كبيراً ممن يقرؤها؛ لأنها ببساطة لم تكلف كاتبها ذلك». تشارلز كولتون.

«الكتب ليست أكواماً من الورق الميت.. إنها عقول تعيش على الأرفف». غيلبرتهايت.

«لا أحب الكتب؛ لأنني زاهد في الحياة، ولكنني أحب الكتب؛ لأن حياة واحدة لا تكفيني». عباس محمود العقاد.

«الكتاب هو المعلم الذي يعلم بلا عصا ولا كلمات ولا غضب وبلا خبز ولا ماء، إن دنوت منه لا تجده نائماً، وإن قصدته لا يختبئ منك، وإن أخطأت لا يوبخك، وإن أظهرت جهلك لا يسخر منك». إليزابيث براوننغ.

«كن سيد الكتب لا عبدها، اقرأ لتعيش، ولا تعش لتقرأ». إدوارد ليتّون.

«يمكن للكتب أن تفسدنا كما يفسدنا الصاحب». هري فيلدينغ.

«ما دخلت على رجل قط ولا مررت ببابه فرأيته ينظر في دفتر وجليسه فارغ إلا حكمت عليه، واعتقدت أنه أفضل منه عقلاً». أبو عمرو بن العلاء.

«ليس عليك أن تحرق الكتب لتدمر حضارة، فقط اجعل الناس تكف عن قراءتها، ويتم ذلك». راي برادبوري.

«الجريمة الأخطر من حرق الكتب هي عدم قراءتها». جوزيف برودسكاي.

«لا ينمو العقل إلا بثلاث: إدامة التفكير، ومطالعة كتب المفكرين، واليقظة لتجارب الحياة». مصطفى السباعي.

«امتلاك الكتاب يصبح بديلاً عن قراءته». أنتوتي بورغيس.

«ليس هناك فائدة من القراءة إن لم تستمتع في قراءة الكتاب كل مرة تقرؤه فيها». أوسكار وايلد.

«لقد غبرت لي أربعون عاماً ما قمت ولا نمت إلا والكتاب على صدري». الحسن اللؤلؤي.

«يجب أن يكون الكتاب فأساً للبحر المتجمد فينا». فرانتس كافكا.

«دون كلمات أو كتابة أو كتب لم يكن ليوجد شيء اسمه تاريخ، ولم يكن ليوجد مبدأ الإنسانية».هرمان.

«ليكن غرضك من القراءة اكتساب قريحة مستقلّة، وفكر واسع، وملكة تقوى على الابتكار، فكل كتاب يرمي إلى إحدى هذه الثلاث فاقرؤه». مصطفى صادق الرافعي.

«الأمر الوحيد الذي أندم عليه هو أنه لن يتسنى لي قراءة كل الكتب التي أود قراءتها». فرانسواز ساغان.

«كان عبدالله حفيد عمر بن عبدالعزيز لا يجالس الناس، ونزل المقبرة فكان لا يكاد يرى إلا في يده دفتر فسئل عن ذلك، فقال: لم أر قط أوعظ من قبر ولا أمتع من دفتر ولا أسلم من وحده». ابن عبد البر.

في سياق هذا الموضوع لابد أن أذكر أن إمارة الشارقة، بفضل الله تعالى، ثم بفضل حاكمها الشيخ الدكتور سلطان القاسمي، حفظه الله تعالى، أصبحت لها علاقة وطيدة ومُلاصقة بالقراءة والكِتاب، ولقد حققت وحصدت وفازت إمارة الشارقة بمبادرات وجوائز وألقاب عالمية عدة، تخص الكِتاب والقراءة والثقافة والأدب بصفة عامة، منها لقب الشارقة عاصمة عالمية للكتاب عام 2019.

«النّبات والشجر».. كتاب للأصمعي عمره 12 قرناً

خالد عمر بن ققة
إعلامي - الجزائر

(تشّدنا «كتب التراث» إليها، وتقتحمُ حياتنا المعاصرة، فتُسائِلُها وتُسائِلنا، وأحياناً تشكّل لدينا مرجعيَّة للأفكار والأطروحات والدراسات، وفي كل ذلك تأسيس للمعرفة عبر المطالعة، إذا ما تفادينا الاستغراق في قضاياها، أو اتّخاذ موقف الخصومة أو العداوة منها، وبحثنا عن سبل استحضار ما جاء فيها، بما تمثله من امتداد زمني وتراكم ثقافي، وتفاعل بشري، من خلال قراءة واعية، تمكننا من توسيع مجالات المعرفة ومتعتها بما تحمله من اتفاق أو اختلاف مع قضايانا المعاصرة، على النحو الذي نقّدمه هنا في قراءة كتاب: «النبات والشجر»).

التأصيل المرْجعي سواء تعلق بالمصطلحات والمفاهيم أو بالقضايا والإشكالات، هو في حقيقته نوعٌ من المعرفة الواجبة تحققها لدى الباحثين؛ لأنه يُخْرجنا من قيود التبعيَّة المطلقة للغة، من حيث هي كائن حي وُجِد قبلنا، واكتسبناه مع الوقت ـ أفراد وجماعات وشعوب وأمم ـ إما للتكيف مع الحياة واكتشاف ما فيها بما تقتضيه من ضروريات، وبما تفرضه من شروط، وإما للتعارف في مد علاقات وإجراء حوارات، وتعاون وتنافس في فترات السلم، وصراع في أزمنة الحرب، وما أكثرها. بهذا المعنى قد نرى في التأصيل المرجعي لمفردات اللغة اكتساباً للمعرفة، منذ أن علم الله سبحانه وتعالى «آدم الأسماء كلها»، حيث جاءت الأسماء دالة عن الأشياء والأفعال والمشاعر والكائنات الأخرى، والمخلوقات المختلفة، والغيبيات ذات الصلة بالإيمان، خاصة في بعده الأخروي، ناهيك عن كونها كاشفة عن تميزنا ـ نحن البشر ـ عن المخلوقات الأخرى ليس على مستوى الحديث والرمزية والفهم فحسب، وإنما أيضاً في مجال الإبداع وصناعة المعرفة، التي صرنا من خلالها أمماً كاتبة وقارئة.

القول بهذا في سياق البحث عن دلالات الأسماء؛ لأجل تأصيل معرفي، يمكن التعويل عليه في تحقيق الإضافة والثراء في المعجم اللغوي، بحيث يصبح اللسان ـ نطقاً ـ هو الدليل عمّ يدور في القلوب والأفئدة والعقول، وفي ذلك هداية لسبل الرشاد على مستوى التعبير من جهة، والقدرة عن التمييز من جهة ثانية، كما هو في التفريق «بين النبات والشجر».

بالنسبة للأول ـ النبات ـ فقد عرفته قواميس اللغة على أنه «ما ينبت من الأرض، أي ما يخرج منها»، وهذا يشمل الشجر، كما يشملنا نحن البشر، كما في قول الله تعالى: {وَاللَّـهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا} (سورة نوح ـ الآية 17)، وهناك من فسر هذه الآية كما يلي: «والله خلقكم من الأرض بخلق أبيكم آدم من تراب، ثم أنتم تتغذّون بما تُنْبِته لكم».

الأصمعي. و«عنْعَنة الرُّوَاة»

أما الثاني ـ الشجر ـ فهو «نبات له ساق وأغصان»، وقد يكون الشجر لا ساق له، كما جاء في قول الله تعالى «وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ» (146 سورة الصافات ـ الآية: 146)، وقد ذهب الطبري في تفسير هذه الآية إلى القول: «يقول تعالى ذكره: وأنبتنا على يونس شجرة من الشجر التي لا تقوم على ساق، وكل شجرة لا تقوم على ساق كالدُّباء والبِطّيخ والحَنْظَل ونحو ذلك، فهي عند العرب يَقْطِين».. المهم أن النبات والشجر ورد ذكرهما في القرآن، وتميز ذكر الشجرة بتحميلها صفات منها: «المباركة، والطيبة، والخبيثة، والملعونة، وزيتونة، إلخ».

وعلى خلفيَّات التَّعريف السابق، يبدو النبات شاملاً لجميع أنواع الأشجار والنبات؛ أي لكل ما تنبت الأرض ـ كما سبق الذكر ـ وهذا المعنى أُخِذ به على المستوى البحثي والأكاديمي في أيامنا، من أمثلة عن ذلك تنظيم معهد الشارقة للتراث، «الملتقى الدولي للراوي» في نسخته الـ23 (من 18 إلى 20 سبتمبر 2023)، تحت شعار «حكايات النبات»، وانطلاقاً من هذا العنوان قدمت عشرات الأوراق البحثية.

ومع ذلك، سيظل التفريق بين الشجر والنبات قائماً على مستوى اللغة العربية ودقتها، وإلا ما كان أَبُو سَعِيدْ عَبْدِالْمَلِكْ بْنْ قَرِيبٍ الْأَصْمَعِي (123 هـ- 216 هـ/ 741-831م) في كتابه الذي حمل العنوان نفسه، يضعهما معاً، ولكان اكتفى واحد منهما فقط.

من غير الواضح متى ألّف الأصمعي كتابه «النبات والشجر»، لكن المؤكد أنه قبل 832م، ذلك أن وفاته كانت في 831م، أي منذ 12 قرناً (تحديداً 1192 عاماً)، وقد نُقِل إلينا سماعاً من خلال القراءة ـ بطريقة «العنعنة» المعروفة في تراثنا العربي ـ كما ذكر في مقدمة الكتاب، لآخر رواية قراءة العام 1159م، عن قراءة سابقة لها العام 1138م، عن أخرى العام 1037م، عن سابقة لها العام 971م، عن أول قراءة العام 919م عن الأصمعي. ما ذكر سابقاً يفيد أن الكتاب لم يصلنا من مؤلفه مباشرة، وإنما تم تداوله ـ قراءة وسماعاً ـ من طرف آخرين، وربما لهذا السبب حملت أول صفحة من هذا المؤلف الآتي: «كتاب النبات والشجر عن أبي سعيد الأصمعي عفا الله عنه آمين».

أوغست هنفر.. ولويس شيخو

ولأن هذا الكتاب مَرْوِي عن الأصمعي، فقد جاء في بدايته ـ سعياً لتأكيد ما جاء فيه وتثبيتاً لصدقية النقل ـ ذكر سبع روايات، عُرِّف فيها أصحابها بأسمائهم الكاملة، ومن خلالها وصل الكتاب إلينا، وهذا يتعلق بماضيه البعيد، أما بالنسبة لماضيه القريب، ويعود إلى 1908م سنة فنشره في طبعته الثانية (صدرت

طبعتـه الأولى في ديسـمبر 1 ديسـمبر 1898م)، كـما في غلافـه، الـذي حمـل الآتي: «كتـاب النبـات والشـجر لأبي عبدالملـك بـين قريـب المشـهور بالأصمعـي»، وجـاء أسـفل العنـوان واسـم الكاتـب مـا يـلي: «سـعى بنـشره وجمع رواياتـه: الدكتـور أوغسـت هفْنر»، والكتـاب نقـلاً عـن «مجلـة الـشرق»، وصـدر عـن «المطبعـة الكاثوليكيـة للآبـاء اليسـوعيين ـ بـيروت».

الكتـب يحتـوي عـلى مقدمـة كتبهـا «الأب لويـس شـيخو اليسـوعي» ـ مديـر مجلـة الـشرق، ذكـر فيهـا الآتي: «قـد نشرنـا في العـدد الأول مـن المـشرق (ص 24 ـ 32) كتابـاً صغـيراً للأصمعـي موسـوما بالـدارات.. وقـد ذكرنـا وقتئـذ أن المجلـد الـذي نقـل عنـه هـذا التأليـف يشـتمل عـلى كتابـين آخريـن للأصمعـي، هـما كتـاب الشـاء، وكتـاب النبـات والشـجر» (ص 3).

إذن، هـذا الكتـاب هـو واحـد مـن ثلاثـة تركهـا الأصمعـي مخطوطـة، قـام لويـس هفنر ـ كـما ذكرنـا ـ بتحقيقهـا، وهـو كـما يقـول لويـس شـيخو: «أمـا كتـاب النبـات والشـجر فلـم يـزل إلى الآن ـ يقصـد بدايـة القـرن العشريـن ـ مخطوطـاً لا يعـرف لـه غـير هـذه النسـخة الوحيـدة، فأحببنـا أن نُتحـف بهـذه اليتيمـة أدبـاء العـصر قبـل أن نسـتولي عليهـا يـد الضيـاع» (ص 3).

وبالفعـل قامـت مجلـة الـشرق بذلـك، وقدمـت لنـا هـذه النسـخة ـ التـي نعتمـد عليهـا اليـوم، وقـد طبـع فيهـا المتـن بحـرف كبـير تـامِ الضَّبـط، كـما أضيفـت للكتـاب حـواش عـدة أسـهمت في تبيـان معنـى المـتن، وأزالـت مـا جـاء مـا في الأصـل مـن الالتبـاس أحيانـاً، وأرفقـت الهوامـش بمطابقـة بـين الأسـماء الـواردة في الكتـاب وبـين الأسـماء العلميـة المسـتحدثة في ذلـك الوقـت، واختتـم الكتـب بفهـرس لأسـماء النبـات، وفهـرس آخـر للألفـاظ اللغويـة الـواردة في الكتـاب.

ويحتـوي الكتـب عـلى تسـعة فصـول، الأول منهـا حمـل عنـوان: «فصـل في النبـات عمومـاً»، ويشـمل: الأسـماء والمفـردات والكلـمات، وحتـى العبـارات الخاصـة، ببدايـة ظهـور النبـات، وبأماكنـه، ثـم عنـد ارتفاعـه، وشـدة خضرتـه، ومراحـل تطـوره، ونضجـه، وأنواعـه، وكـثرة الـكلأ وقلتـه، وعلاقـة النبـات بـالأرض، وبأنـواع التربـة، وبتغـير المنـاخ، وبالمطـر، وغيرهـا.

لقـد دلَّنـا الأصمعـي مـن خـلال هـذا الفصـل عـلى اسـتعمال الكلـمات الخاصـة بالنبـات بصـورة مختـصرة، لكنهـا معـبرة، مـن ذلـك مسـتويات تطـور النبـات في مراحلـه المختلفـة، كـما هـي واضحـة في التعريفـات التـي وردت في هـذه الفقـرة: «ويُقَـال لـلأرض إذا حَسـن نباتهـا وامتـلأت: قـد أَعْتَمَـتْ، والنَّبْـت وقتئـذ مُكْتَهِـل ومَعْثَـم، ويُقَـالُ: نبْـتٌ عميـم وعَمَـمٌ أيضـاً.. فـإِذَا اشْـتدّ خَصَـاصُ النَّبْـت وفُرَجُـهُ قيـل قـد اسْـتَكَّ اسـتكاكاً، فـإذا خـرج زَهْـرُهُ قيـل قـد جـنّ جنونـاً، فـإذا طـال وتـمَّ قيـل قـد استأسـد..». (ص 9).

«كفّ الكلب».. و«فم الغزال»

وحمـل الفصـل الثـاني عنـوان «فصـل في النبـت مـن الأحـرار وغـير الأحـرار»، وشرح لنـا الأصمعـي في بدايتـه المقصـود بذلـك مـن خـلال ذكره لصنـف منهـا: أحـرار البقـل مـا وَرَقُ وعُنُـقَ (ومعنـى عُنُـق كَـرَمٌ، والعنُـقُ الرّقـة)، وذكـور البقّـل مـا غلـظ منهـا..» (ص 11)، ثـم يذكـر بعـد ذلـك أنـواع الأحـرار وغـير الأحـرار.

كـما يذكـر الأصمعـي في هـذا الفصـل أيضـاً، أسـماء النبـات، وأنواعـه، والصفـات الدالـة عنـه، كـما بـيَّن علاقتهـا بالطبيعـة، وقـد تميَّـز هـذا الفصـل بـشرح في الهامـش مـن النـاشر لمعظـم النباتـات المذكـورة بأسـمائها العلميـة المعروفـة بهـا، والاختصـارات الدالـة عليهـا عنـد طباعـة الكتـاب.

كـما تـم توثيقهـا مـن خـلال مراجـع اعتمـد عليهـا، اسـتعانةً بالمعاجـم العربيـة القديمـة لتعريـف بعـض النباتـات، انطلاقـاً مـن التسـميات المعروفـة في زمـن اكتشـافها، أو كـما تعـارف النـاس عليهـا وعرفوهـا، مـع إرجاعهـا إلى موطنهـا الأصـلي، مـن ذلـك عـلى سـبيل المثـال نبـات يسـمى «كـف الكلـب»، وقـد عُـرِّف في الهامـش بأنـه: «عُشْـبةٌ منتـشرةٌ، تنبـت بالقيعـان وبـلاد نجـد.. وقـال ابـن البيطـار: كـف الكلـب هـو البدسـكان» (ص 15).

وفي الفصـل الثالـث «فصـل في أسـماء الذكـور»، يذكـر أعـداداً مـن النبـات التـي يعتبرهـا ذكـوراً، منهـا: «القـرّاص، والخزامـى، والأقحـوان، والحرْشـاء، والنهـق، والكحْـلاء، واليَعْضيـد، والشُّـقّارى، والخبّـازي، والعِـشْرق، والكـرّات، والجرجـير، والكنّـأة، والكلبـة، وفـم الغـزال، والسّـلع.. وغيرهـا».

أنـواع النبـات السـابقة، مجهولـة في معظمهـا لدينـا عـلى مسـتوى الثقافـة العامـة المتداولـة إلا قليـلاً منهـا، وربمـا تكـون معروفـة عنـد أصحـاب محـال العطـارة، كـما أنهـا بالتأكيـد معروفـة عنـد علـماء النبـات والاختصاصيـين بأسـمائها، التـي ذكرهـا الأصمعـي، أو تحمـل أسـماء أخـرى خاصـة بمكانهـا وزمانهـا، إضافـة إلى ذلـك، فـإن بعضهـا ذكـر هنـا ضمـن أسـماء الذكـور في حـين هـو متـداول بيننـا عـلى أنـه اسـم مؤنـث مـن ذلـك عـلى سـبيل المثـال عشـبة «الخزامـى».

وفي الفصـل الرابـع: «فصـل في أسـماء النَّبْـت غـير الذكـور»، يذكـر الأصمعـي عـدداً مـن النبتـات منهـا: «الهيْـشَر، والسَّـلُوب، والعراجـين، والإسـنامة، والحبـق.. وغيرهـا»، ولم يوضـح لنـا الأصمعـي لِـم سـماها «غـير الذكـور»، كـما لم يبـين لنـا إن كان المقصـود بذلـك تعريفـاً في عـالم النبـات لغويـاً لا يخـص التذكـير والتأنيـث المتداولـين بيننـا؛ أي بعيـداً عـن أصبـاغ النبـات هنـا بمواصفـات بشريـة خاصـة.

عنب الثعلب.. والعلجان

وفي الفصـل الخامـس «فصـل في أسـماء الحَمْـض»، وهـو فصـل قصـير جـداً مقارنـة بالفصـول الأخـرى، فقـد جـاء في صفحـة واحـدة، وذكـر لنـا عـدداً أسـماء 16 نوعـاً مـن هـذا النبـات، وهـو عـدد قليـل جـدّاً، ومـن تلـك الأسـماء أورد «الرّمْـث، والدَّغَـل، والقُـلاَّم، والهَـرْم، والغـوْلان، والشَّـعْران، والذُعـاع.. وغيرهـا».

وفي الفصلـين السـادس والسـابع تحـدث عـن الصلـة بـين أسـماء مـا ينبـت في بيئـات بعينهـا، حيـث ذكـر في الأول منهـما «فصـل فيـما ينبـت السـهل» أسـماء نباتـات منهـا: «العرْفَـج، والغـضْر، والسُّـطَّاح، والقنـا (عنـب الثعلـب) والشُّـبرّم، والعَـرّار، والحلّـب، وغيرهـا»، في حـين أورد في الثـاني ـ السـابع ـ وهـو بعنـوان «فصـل مـا ينبـت في الرمـل مـن الشـجرة وغيرهـا»، أسـماء أخـرى، منهـا: الآلاء، والأَمْطـيّ، والعَلْقِـي، والسَّـبْط، والنّـصيُّ والغَضُـور، والصّليـان.. وغيرهـا.

وخصّـص الفصـل التاسـع والأخـير «فصـل الشـجر» ـ وهـو أطـول فصـول الكتـاب ـ للحديـث عـن أسـماء أنـواع مختلفـة مـن الشـجر، ذكـر منهـا عـلى سـبيل المثـال: «الطَّلـح، والسّـلم، والسّـمر، والسّـدر، والغرْقَـد، والشريـان، والقسْـور، والعلجـان، والرّيـل.. وغيرهـا»، وقـد بـيَّن منابتهـا، وأنواعهـا، وأقـوال النـاس فيهـا، وتصنيفهـم لهـا.

بعد هذا العرض، نَخْلص إلى الملاحظات الآتية:

- كتـاب صغـير في حجمـه (54 صفحـة)، إلا أنـه عميـق وثـريٌّ مـن ناحيـة المعلومـات والدقـة اللغويـة، وذلـك بـما يؤكـد عمـق وموسـوعية مؤلفـه الأصمعـي في هـذا المجال.
- الكتـاب نتـاج علمـي صامـد في رحلـة الزمـن منـذ أكـثر مـن 11 قرنـاً، تظهـر قيمتـه مـن جهـد مؤلفـه، ورواتـه، ومحققـه، والـدار التـي نشرتـه.
- معظـم أسـماء النبـات والشـجر التـي وردت في هـذا الكتـاب، مجهولـة بالنسـبة إلينـا، مـما يجعـل مـن الضروري الاطـلاع عليهـا.
- في حـالات كثـيرة استشـهد الأصمعـي بالشـعر للتدليـل عـلى هـذا النبـات أو ذلـك.
- الجانـب العـرفي للكاتـب لا يخـصُّ أهـل اللغـة والزراعـة فحسـب، إنمـا هـو مهـم لـكل المنشـغلين بالـتراث العـربي.
- الكتـاب في عمومـه يجمـع في تنوعـه بـين اللغـة والتاريـخ والجغرافيـا وعلـم النبـات، وغيرهـا.

التأصيل

ضمان صيرورة الإنسان

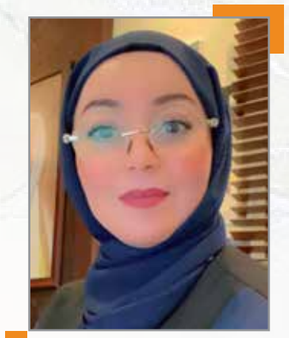

عائشة مصبح العاجل
كاتبة وإعلامية - الإمارات

إن ما يجمعنا هو طريقة فهمنا وتحليلنا للمعارف العالمية المشتركة، وارتباطنا بإرثنا المعنوي والمادي المتوارث جيلاً عن جيل، مشكّلاً ثقافة وفكر مجتمعاتنا المعاصرة.

نحن في الإمارات والخليج وفي الوطن العربي الكبير، تجمعنا ثقافة جمعية دالة ذات نسق قيمي مشترك، كاللغة والدين والعادات والتقاليد والأعراف، وهو الأمر الذي يجعل التواصل أكثر قرباً وأسرع امتثالاً للمتعارف عليه؛ باعتبار ذلك وسيلة ونقطة تقارب أزلي ممتدة في عرق النهج التواصلي بين الجماعات، كما أن المعرفة المتوارثة تلك تقودنا لتكوين ثقافتنا أو تلاقيها، ومن خلالها تتكون هويتنا التي نستنسخ منها ذواتنا (بمعنى أننا إما أن نكون مرتبطين بالأرض والهوية، ومتفاعلين من أجل استمرار البناء المعرفي والفكري وفق ثقافة مستمرة ومستدامة، أو أننا مستنسخون إثر تداخل ثقافات عالمية، وبالتالي يتلاعب بنا التخبط في استخلاص هوية لها جذر واضح، وامتداد أصيل؛ وبالتالي منتجون لدلالات غير واعية وغير واضحة، ولا يمكن البناء عليها .

أما في الشارقة بالتحديد، فالاستدامة هي استشراف يقصد الإنسان، وكل الخيارات الممكنة والرهانات معقودة برؤية وثبات للتمكين والتأصيل عودةً للأرض، وصوت البحر والرمل، وموسيقى الخلاء، وتجليات الصحو دون الجبل.

ويؤكد صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، أن الإنسان هو الاستثمار الأمثل، وأن الشارقة تراهن عليه فكراً وثقافة وتأصيلاً، كما أنها تراهن من أجله في بحث الخيارات الأكثر مواءمة ومرونة واتساقاً مع المحيط والعالم في التلاقي الإنساني والبناء العقلاني واستدامته، ومقاربة ومواكبة التطورات في العالم (الواقعي، الافتراضي، الصناعي، المعرفي، وما وراء الكوني) ومعالجتها للتكيف مع تطور وبناء الإنسان وتشكلاته وفق منظور محافظ على القيم والعادات والتقاليد والهوية، ومتعالق مع الكونية والعالمية.

وتبقى قضية التأصيل مفارقة في زمن متشعب الدلالات، وأناس مختلفون في التشكلات، رغم أنهم يتشاركون الهواء نفسه على الأرض نفسها، إلا أن المعارف وأماكن استقائها ومنافذ تسريباتها، أصبحت في زمننا هذا أكثر من حبات الرمل في صحرائنا، لتصبح قضية الاستدامة والتأصيل معتركاً مفصلياً في البناء الإنساني الحديث، ومفارقة في زمن عصي فيه التشكل والتشكيل المتناغم مع المكنون بصيرورة الإنسان .

خرافة اللقلق
حمّال المواليد

د.محمد الجويلي
أكاديمي - تونس

تقول خرافة من ابتكار المتخيّل الشعبي لسكّان منطقة الألزاس، في شرق فرنسا المحاذية لألمانيا، في منتصف القرن التاسع عشر، إنّ طائر اللقلق هو الذي يحمل الطفل الذي وُلد لتوّه إلى أبيه وأمّه في صُرّة يعلّقها في منقاره.

ليس ثمّة إشارة إلى هذه الخرافة في المصادر القديمة الإغريقيّة والرومانيّة، ولا المصادر الفرنسيّة في العصور الوُسطى. أوّل رصد لهذه الخرافة حسب الفولكلوري فريدي سارغ (Freddy Sarg) يعود إلى سنة 1850 من خلال شهادة ميلاد عُثر عليها في مطبعة مكتوب عليها «هذا الوليد أتى به طائر اللقلق». فقبل هذا التاريخ ما يُعرف من تراث منطقة الألزاس في موضوع الولادة هو الاعتقاد بأن الأطفال يقطنون السماء، وينزلون مع الأمطار، ويُولدون في عيون الماء والسواقي والغُدران، وكلّ قرية تمتلك «ساقية أطفال»، وحسب هذه الخرافة يُوجد غدير تحت كاتدرائية مدينة سترازبورغ، يقطن فيه قزم من الجنّ ينتقل في مركب صغير يلتقط المواليد ليسلّمهم إلى أمّهاتهم وآبائهم الذين يكونون في انتظارهم.

في رواية أخرى لهذه الخرافة يتقاسم الجنّي هذه المهمّة مع طائر اللقلق، الذي يذهب للبحث في هذا الغدير عن الأطفال الذين هم على وشك أن يروا نور الحياة، ولكن هذه الرواية حديثة، ولم تتمّ الإشارة إليها من الباحثين الذين اهتموا بتحليل هذه الخرافة في المنتصف الأوّل للقرن التاسع عشر. في سنة 1866 كتب قسّ ألزاسي متسائلاً: «أليس من غدير الكاتدرائية يحمل لنا طائر اللقلق كلّ هذه المواليد الجميلة، هؤلاء الأمراء والأميرات الصغار الذين يحلّون بيننا، فيملؤون حياتنا فرحاً وحُبوراً».

يذكر الكاتب شارل غراد (Charles Grad) سنة 1889 أن الأمّهات كنّ يروين لأطفالهنّ لمّا يسألوهنّ عن الكيفيّة التي نشؤوا بها ورأوا نور الحياة أنّ طيور اللقلق هي التي تحمل لهم الإخوة والأخوات الصغار الذين وُلدوا لتوّهم على ظهورها، وتطير بهم وهم يتمسّكون بأعناقها، حتّى لا يسقطوا على الأرض، وهي رواية انتشرت مع بداية القرن العشرين، وصارت تجري على كلّ لسان، ومنها نشأت العديد من المقاطع الغنائيّة ينشدها الأطفال عندما يتمنّون أن يُولد لهم أخ أو أخت يؤنسهم في وحدتهم منها كمثل هذا المقطع:

لقلق يا لقلق يا صاحب السيقان الطويلة
ائتني قريباً بمولود صغير إلى المنزل
إذا لم تستطع حمله
أجلسه في نقّالة
إذا تعذّر عليك جرّها
دعه يطير من جديد

إلى اليوم لايزال الآباء والأمّهات ينصحون أبناءهم الذين يطالبونهم بإخوة وأخوات صغار، أن يضعوا الحلوى في حاشية نافذة غرفهم، لجذب طائر اللقلق واستمالته.

متاحف الشارقة.. نموذج حي لجهود الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي في الحفاظ على التراث

د. خالد بن محمد مبارك القاسمي
كاتب – الإمارات

شهدت الشارقة في عهد صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي نهضة ثقافية كبرى، ويُعد الحفاظ على التراث من أهم محاور المشروع الثقافي الذي وضع سموه أسسه وشيَّد بناءه.

وتُعد متاحف الشارقة، والهيئة المشرفة على هذه المتاحف، من بين المؤسسات والصروح الثقافية التي كان لها الدور الأبرز في الحفاظ على التراث في إمارة الشارقة؛ فهي نموذج حي، وخير شاهد على مدى الجهود التي بذلها صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي في مجال حفظ التراث، ونلحظ هذه الجهود من خلال التنوع الظاهر لهذه المتاحف. وسنُلقي في هذا المقام نظرة على بعض هذه المتاحف.

هيئة متاحف الشارقة

في عام 2006م تأسست إدارة متاحف الشارقة، برعاية سامية من صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي.

ثم أصدر صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي المرسوم الأميري رقم (64) لسنة 2017 بشأن إنشاء هيئة الشارقة للمتاحف. وبموجب هذا المرسوم تم إلغاء إدارة المتاحف التابعة لمكتب سمو الحاكم، وآلت جميع أصولها الثابتة والمنقولة وكوادرها البشرية إلى هيئة الشارقة للمتاحف[1].

وبتاريخ 20 كانون الأول/ ديسمبر 2020 أصدر صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي القانون رقم (7) لسنة 2020 بشأن تنظيم هيئة الشارقة للمتاحف[2].

ووفقاً لأحكام هذا القانون، تعمل الهيئة على تحقيق العديد من الأهداف، منها:

- الاهتمام بالمتاحف والعمل على تطويرها والحفاظ عليها.
- العمل على الارتقاء بالمتاحف وفق أفضل الممارسات المتحفية العالمية؛ لتكون مركز جذب ثقافي وسياحي وتعليمي على المستوى المحلي والإقليمي والدولي، بالتنسيق مع الجهات ذات العلاقة.
- الحفاظ على الموروث المجتمعي والإنساني ومقتنيات المتاحف باعتبارها قيمة تاريخية وثقافية.

وقد حدد القانون العديد من الاختصاصات للهيئة، منها:

- وضع وتطوير سياسات المحافظة على المتاحف في الإمارة وإدارتها والترويج لها.
- الحفاظ على مقتنيات المتاحف وعرضها، وصيانتها، وترميمها، وتأهيلها.
- إدارة المتاحف التابعة للهيئة والإشراف عليها وتحديد آلية عملها.

متحف الشارقة للحضارة الإسلامية

وتدير الهيئة 16 متحفاً على مستوى الإمارة، والتي تتميز بتنوع هائل في موضوعاتها بين الفنون والثقافة الإسلامية، وعلوم الآثار والتراث، والعلوم والأحياء المائية، وتاريخ إمارة الشارقة ودولة الإمارات العربية المتحدة[3].

متحف الشارقة للآثار

افتتح متحف الشارقة عام 1993م، وتم نقله إلى موقعه الجديد، وإعادة افتتاحه سنة 1997، ليكون أرشيفاً دائماً للآثار المكتشفة في الإمارة منذ بدء التنقيبات الأثرية عام 1973م حتى الآن[4]. وقد قام سمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي بجهود كبيرة لاستعادة عدد كبير من القطع الأثرية التي أُخذت من الشارقة قبل عقود من الزمن[5].

متحف الشارقة للتراث

تمت إعادة افتتاح متحف الشارقة للتراث في عام 2012 بحلته الجديدة في منطقة الشارقة التراثية (قلب الشارقة)، كخطة توسع لمتحف الشارقة للتراث الذي كانت تحتضنه سابقاً منطقة التراث، والذي تم افتتاحه في أوائل عام 2003م، وفيه القاعات الحديثة والمتجددة. ويهدف المتحف إلى عرض عادات وتقاليد وثقافة إمارة الشارقة الثرية، للاطلاع على تراث الأجداد والمحافظة عليه كمصدر فخر وإيحاء لأهالي الإمارات وزوارها[6].

متحف الشارقة للفنون

تم افتتاحه في إبريل 1997م، ويضم هذا الصرح الفني العملاق إحدى أكبر قاعات العروض الفنية في منطقة

الخليج، التي تعرض الأعمال الأكثر تميزاً لفنانين تركوا بصمات واضحة في عالم الفن العربي والمحلي. ويُعرض فيه تاريخ المنطقة من خلال أعمال فنانين مستشرقين من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومن إبداعات الفنانين المحليين والعالميين المعروفين. كما يحوي مناظر الطبيعة وصور المدينة وصوراً في شكل لوحات زيتية وألوان مائية في بانوراما الحياة الفنية. والمتحف يتكون من ثلاثة طوابق من الأروقة المخصصة للتعبير الإبداعي المعاصر، والذي يحتوي على معروضات ومقتنيات دائمة لأكثر من 500 عمل فني، كما يشتمل المتحف على مكتبة الفنون التشكيلية وتضم أكثر من 4000 عنوان[7].

متحف الشارقة للحضارة الإسلامية

افتُتح المتحف الإسلامي لأول مرة في منطقة التراث في السادس من شهر نوفمبر لعام 1996م. وتم تحويل هذا المتحف بتوجيهات من صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى للاتحاد حاكم إمارة الشارقة، الى سوق المجرة (الذي افتُتح كسوق في عام 1987م). أُعيد افتتاح المتحف تحت اسم «متحف الشارقة للحضارة الإسلامية» في السادس من يونيو عام 2008م، بعد نقل مقتنيات المتحف الإسلامي، بالإضافة إلى قطع جديدة منتقاة، إلى المقر الجديد الذي خضع لأعمال الترميم والتصميم ليتم عرضها بأسلوب عصري مطور[8].

يضم المتحف سبعة معارض دائمة، تشمل: صالة أبو بكر للعقيدة الإسلامية، حيث خصصت هذه الصالة للتعريف بمبادئ الإسلام والقرآن الكريم، وهناك مجسم للكعبة، وقطع من أجزاء كسوة الكعبة المشرفة، ومخطوطات نادرة من المصاحف والتفاسير، صالة ابن الهيثم للعلوم والتكنولوجيا، حيث تعرض إنجازات علماء المسلمين وإسهاماتهم في الحضارة الإنسانية، وذلك من خلال نماذج المجسمات والصور والمعلومات عن أهم الاكتشافات والاختراعات والنظريات التي وضعها علماء المسلمين في الفلك، والطب، والجغرافيا، والعلوم الطبيعية، والهندسة وغيرها، ثم صالة الفنون الإسلامية الأولى، التي تضم الأعمال الفنية والمشغولات المصنوعة من الخزف والمعادن والزجاج وغيرها، ثم صالة الفنون الإسلامية الثانية التي تعرض قطعاً فنية إسلامية من القرن السابع الهجري (12م)، والكثير من القطع المعدنية والخزفية المملوكية والصفوية والعثمانية، ثم صالتا الفنون الإسلامية الثالثة والرابعة، وقد خُصصت هاتان الصالتان للمشغولات الحرفية وعرض الأسلحة المستخدمة قديماً، ثم معرض المسكوكات، ويضم المتحف صناديق عرض مميزة للمسكوكات الإسلامية، حيث يتعرف الزائر إلى تاريخ العملة الإسلامية ونشأتها وتطورها[9].

متحف الشارقة العلمي

افتتح متحف الشارقة العلمي في السابع عشر من نيسان/ إبريل عام 1996م، ويهدف المتحف لإطلاق روح الابتكار والإبداع لدى زواره، من خلال أكثر من خمسين معرضاً للعروض التفاعلية المشوقة التي تطلق العنان للخيال العلمي، وتوفر العديد من البرامج والفعاليات الجاذبة للأطفال لإطلاعهم على أروع الإنجازات العلمية والتكنولوجية التي ابتكرها العقل البشري[10].

وصنّف هذا المتحف من أفضل الأماكن السياحية في الشارقة، حيث يتيح للزائر اكتشاف قوانين الطبيعة والتعرف إلى العلوم المختلفة كعلم وظائف الأعضاء والقيام بالتجارب الشخصية واكتشاف قوانين الديناميكية الهوائية والفيزياء الحرارية، والمشاركة في تجارب عروض الشحنات الكهربائية، واستطلاع أسرار الفضاء، واختبار ردود الأفعال والتعرف إلى القدرات والإمكانات[11].

متحف الشارقة البحري

تمت إعادة افتتاح متحف الشارقة البحري في عام 2009م، بحلته الجديدة في منطقة الخان كخطة توسع للمتحف البحري الذي كانت تحتضنه سابقاً منطقة التراث الذي تم افتتاحه في أوائل عام 2003، للتركيز على الحياة البحرية التي كانت تشكل جزءاً رئيساً من تراث المنطقة. ومن خلال المتحف يمكن التعرف إلى الموروث البحري الحافل للمدينة، والذي تم جمعه وتوثيقه من قبل أهالي الإمارات الذين شكل البحر جزءاً رئيساً من حياتهم اليومية. ومن خلال المتحف تستطيع التعرف إلى السفن الخشبية التقليدية التي جابت البحار لأغراض

متحف مدرسة الإصلاح

متحف الشارقة للخط

الصيد والتجارة والغوص بحثاً عن اللؤلؤ، والتعرف إلى الأنواع المختلفة للسفن التي تتباين أشكالها وفقاً لطبيعة استخداماتها. كما يمكن الاستمتاع بمشاهدة اللآلئ المبهرة التي جمعها القدماء من أعماق الخليج، والتي مازالت تتمتع بذاك البهاء الذي أشرقت به منذ لحظة إخراجها من صدفاتها قبل عقود بعيدة[12].

متحف مدرسة الإصلاح

تأسست مدرسة الإصلاح في سنة 1354a/1935م، وجدير بالذكر أن مدرسة الإصلاح القديمة يطلق عليها مدرسة «الإصلاح الأم»، أما الثانية فهي «الإصلاح القاسمية»، نظراً لدعمها من الشيخ سلطان بن صقر بعد الحرب العالمية الثانية. ففي أواخر الحرب العالمية الثانية، وتدني أحوال الناس المعيشية، أغلقت الكثير من المدارس، ولكن برغبة من الشيخ سلطان بن صقر، طلب من الشيخ محمد بن علي المحمود إعادة افتتاح المدرسة، فاقترح عليه الشيخ محمد المحمود أن يجمع تبرعات من التجار القادرين ليكون التعليم مجاناً، وكانت تلك هي أول دعوة لمجانية التعليم[13].

وقد تم افتتاح متحف مدرسة الإصلاح في شهر إبريل عام 2003. وفي هذا المتحف يمكن التعرف إلى نظام التعليم قديماً في الإمارات، والعيش في أجوائه، بما في ذلك الجلوس على مقاعد طلابه. بينما نرى بالصور الطلاب الذين تخرجوا في هذه المدرسة التي تعتبر أول مدرسة نظامية في إمارة الشارقة. كما نشاهد صفوف الدراسة، وغرفة المدرسين وغرفة الناظر، ونرى صفوف الدراسة الصغيرة التي تحتوي على طاولات خشبية كان الطلاب يتقاسمونها، كما نشاهد مرافع القرآن المصنوعة من سعف النخيل، واللوح الأسود والطباشير واللوحات التعريفية والتعليمية[14].

متحف المحطة

وهو أول مطار في الإمارات، أنشئ في عام 1932م، وقد تطور المطار تطوراً كبيراً خلال سنوات قليلة من إنشائه، إذ أصبح مطاراً عسكرياً وأيضاً مدنياً لمجموعة كبيرة من شركات الطيران المدني[15].

وتحول في عام 2000م إلى متحف يعرض تاريخ الطيران في دولة الإمارات، وفي هذه المنطقة من العالم، وله أهمية كبيرة بسبب معروضاته الفريدة التي تحكي قصة الطيران منذ المحاولات الأولى للإنسان، ولغاية وصوله إلى القمر[16].

متحف الشارقة للخط

تم افتتاح متحف الشارقة للخط في الثاني عشر من يونيو عام 2002م، في هذا المتحف الواقع في بيت حمد المدفع، في منطقة الشارقة التراثية (قلب الشارقة)، يمكننا أن نخوض رحلة استكشافية يظللها الجمال والإبداع والأصالة، نشاهد خلالها كيف تطورت الخطوط العربية عبر الزمان في شكل لوحات جميلة تحمل نصوصاً خطية وحروفاً وأشكالاً رائعة.

ويعرض في المتحف الروائع الفنية واللوحات المبدعة لكبار الخطاطين والفنانين المحليين والعالميين، ويحتضن المتحف الكثير من المعارض بشكل دوري، ويهدف لاطلاع متذوقي الفنون على روعة وجماليات الخط العربي، كما يتطلع إلى الحفاظ على الإرث الحضاري لهذا الفن والارتقاء بمستواه محلياً وعالمياً. وتعرض الأعمال الفنية إبداعات الفنانين المحليين والخطاطين العالميين الناطقة بالمعاني والتي تظهر دقة هذا الفن وجذوره التاريخية[17].

1- نصوص المرسوم موجودة على موقع الجريدة الرسمية لحكومة الشارقة، على الرابط الآتي: https://og.shj.ae/TashView.aspx?I=1752757

2- نصوص القانون موجودة على موقع الجريدة الرسمية لحكومة الشارقة، على الرابط الآتي: https://og.shj.ae/TashView.aspx?I=1753135

3- موقع هيئة الشارقة للمتاحف، على الرابط الآتي: https://www.sharjahmuseums.ae/ar-AE/AboutUs

4- متحف الشارقة للآثار، موقع هيئة متاحف الشارقة، على الرابط الآتي: https://www.sharjahmuseums.ae/ar-AE/Museums/Sharjah-Archaeology-Museum

5- الشيخ الدكتور. سلطان بن محمد القاسمي: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2013، ص 120 – 121.

6- متحف الشارقة للتراث، موقع هيئة متاحف الشارقة، على الرابط الآتي:
https://www.sharjahmuseums.ae/ar-AE/Museums/Sharjah-%E2%80%8E%E2%80%8EHeritage-%E2%80%8EMuseum%80%8E%E2

7- معهد الشارقة للتراث: الشارقة وجهة عالمية للثقافة، د.ت. ص 67.

8- متحف الشارقة للحضارة الإسلامية، موقع هيئة متاحف الشارقة، على الرابط الآتي:
https://www.sharjahmuseums.ae/ar-AE/Museums/Sharjah-Museum-of-Islamic-Civilization

9- معهد الشارقة للتراث: الشارقة وجهة عالمية للثقافة، مصدر سابق، ص 68 – 69.

10- متحف الشارقة العلمي، موقع هيئة متاحف الشارقة، على الرابط الآتي: https://www.sharjahmuseums.ae/ar-AE/Museums/Sharjah-Science-Museum

11- معهد الشارقة للتراث: الشارقة وجهة عالمية للثقافة، مصدر سابق، ص 69.

12- متحف الشارقة البحري، موقع هيئة متاحف الشارقة، على الرابط الآتي: https://www.sharjahmuseums.ae/ar-AE/Museums/Sharjah-Maritime-museum

13- عبدالله الطابور: الأديب الشيخ محمد بن علي المحمود، الحلقة الأولى (لأديب الشيخ محمد بن علي المحمود داعية التعليم المجاني أيام الشدة). مجلة تراث الإمارات، الصادرة عن نادي تراث الإمارات، أبوظبي، العدد (18)، مايو 2000. ص 32.

14- متحف مدرسة الإصلاح، موقع هيئة متاحف الشارقة، على الرابط الآتي: https://www.sharjahmuseums.ae/ar-AE/Museums/Al-Eslah-School-Museum

15- محمد فارس الفارس: صفحات من تاريخ الإمارات والخليج (قراءة في الوثائق البريطانية)، ج2، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، ط1، 2014. ص 414.

16- متحف المحطة، موقع هيئة متاحف الشارقة، على الرابط الآتي: https://www.sharjahmuseums.ae/ar-AE/Museums/Al-Mahatta-Museum

17- متحف الخط، موقع هيئة متاحف الشارقة، على الرابط الآتي: https://www.sharjahmuseums.ae/ar-AE/Museums/Sharjah-Calligraphy-Museum

معبد الشمس

إرث مستدام ومُسجل في قائمة اليونسكو

لولوة المنصوري*
كاتبة - الإمارات

ارتبط وجود الجماعات البشرية بمواطن الدفء والماء، وارتبطت موارد الماء بعروق الشمس، فالشمس هي الموقد الكوني لدورة حياة الماء وبخار الزرع والنماء.

عرف البشر تأثير الأجرام السماوية على الماء منذ الحقب القديمة، وتركزت العديد من التأويلات الدينية والأسطورية على الشمس والقمر كآلهة. غالباً ما تم وصف الماء والشمس كإلهين متعاونين عظيمين في الوجود.

وعلمياً، فقد افترض كثير من العلماء أن المحرك الهائل للماء تُغذّيه الشمس، مدفوعاً بالجاذبية، يتقدم الماء إلى ما لا نهاية، سواء أكان ذلك بوجود نشاط بشري أو انتفائه؛ لذا كان للشمس معبد على تل البحر، حيث موقع الدور الأثري حالياً في أم القيوين، وكان المعبد ممرداً باللآلئ والأصداف والقواقع والتراتيل، منقوشاً بتلاوات آرامية وزخارف فخمة جصيّة، على بقعة ساحلية متعرجة بأرخبيل الجزر والأخوار، والتي تكونت بعد تحولات مناخية عالمية بدءاً من العصر الحجري الأول.

(شمس) أول الأجرام السماوية التي لفتت نظر البشر، المعبودة القديمة والأسبق عند العرب، أمُّ الطبيعة ومصدر القوة والطاقة والهبات. أما الذبائح والقرابين من الوعول والحمر الوحشية والغزلان، فكانت توجّه إليها استمالة واسترضاءً وإيماناً، بكونها كائناً روحياً تدبر وتدير سير الطبيعة وسير حياة الإنسان.

وهنا لا يمكننا أن نصدّق من تصوّر بأن الإمارات في العصور القديمة جداً لم تتأثر بمؤثرات خارجية، جرياً على نظرية القائلين بعزلة العرب وعدم اتصالهم بالخارج، وبأنهم بدو لا علم لهم ولا رؤية ولا امتداد في إنتاج الأرض وخلافتها، وهي نظرية نشأت عن عدم وقوف القائلين بها بأحوال العرب قبل الإسلام.

عبدَ العرب الشمس في مواضع مختلفة في جزيرة العرب، فمن أي امتداد استلهمت هذه العبادة على السواحل القديمة للإمارات؟ ومن أي وصال انبثقت فكرتها؟

تألّهت الشمس عند التدمريين، وعبدها البابليون والكنعانيون، وأشير في مواضع عديدة من العهد القديم إلى عبادة الشمس بين العبرانيين، فلقد عُبدت في مدن يهوذا، وتم اتخاذ مواضع لها عُرفت بـ(بيت شمس). وقد تكون الإلهة الكبرى عند النبط، إن صحّت الكتابات النبطية المنسوبة إلى (اللات)، لكن من أي تلك المواضع برزت تداعيات عبادة الشمس على ساحل الإمارات؟ وفي أي زمن شاعت تلك العبادة؟

المؤرخ العراقي جواد علي يرجّح عودة تلك العبادة الشمسية عند العرب إلى ما قبل الميلاد، إلا أنه ذهب إلى عدم إمكانية تحديد الزمن، لعدم وجود نصوص لدينا يمكن من خلالها الكشف عن وقت ظهور عبادة الشمس عند العرب.

بقايا مذبح المعبد

الحجر الذي حوى تسعة أسطر باللغة الآرامية

في عام 1970 تقف البعثة العراقية على موقع الدور في أم القيوين بذهول عميق أمام الكنز البشري المهيب المتناثر دون مبالاة بتداعي الأزمنة، وتسارع البعثة بضرب أول معول.

وينكشف معبد (شمس) بعد سلسلة من التنقيبات والحفر والبحث الحثيث، ليبرز في موقع الدور الأثري، وينكشف الرمل عن حجارة المذابح ليسطع في الشمس نص من تسعة سطور باللغة الآرامية، والتي رجحت الفرقة المنقبة زمنها العائد إلى القرن الأول قبل الميلاد.

تم العثور الآن على نصف الإجابة، وتبدد نصف الشك، ليتمحور النصف الآخر حول سؤال آخر مهم جداً (من هي الجماعة السامية التي انتقلت وتمركزت في الدور، من أي حضارة هاجرت فتمخض عنها انبثاق العمران والتجارة والثقافات العريقة وأبعاد العبادة الروحية للشمس؟).

لا نملك نصاً واضحاً غير الإرث القرآني الغزير، الذي يؤكد أن (شمس) مسقطها الأول (سبأ) في اليمن، حيث الملكة بلقيس تسجد وقومها للشمس – كما جاء في سورة النمل على لسان الهدهد في حديثه مع سليمان (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله).

إذا ما اطلعنا على امتداد دولة سبأ في أطلس تاريخ الشرق القديم، فسنجدها حضارة في أقصى اتساعها لها امتداد شاسع من الجنوب الشرقي للبحر الأحمر وبحر العرب، مروراً بسواحل عمان ثم على نطاق واسع من السواحل الشمالية والغربية والشرقية من الإمارات. وهذا ما يؤكد كون الإلهة (شمس) فاضت عن تلك البقاع السبئية.

عبد الإنسان الشمس مجرداً في بادئ الأمر، أي دون أن يتصور فيها ما يتصور من صفات وأمور غير محسوسة هي من وراء الطبيعة، فلما تقدم وزادت مداركه في الماورائيات تصوّر للشمس قوى غير مُدركة، وروحاً وقدرة، فأخرجها من صفتها المادية البحتة، ومن طبيعتها المفهومة إلى أن صارت مظهراً لقوى روحية لا يمكن إدراكها، وإنما تدرك من فعلها ومن أثرها في الكون.

المؤرخ جواد علي يأتي على ذكر الإلهة شمس عند العرب القدامى، فهي «ذُكاء». وقد تصوروا الصبح ابناً للشمس تارة، وتصوروه تارة حاجباً لها، فقيل حاجب الشمس، وقيل للصبح ابن ذكاء؛ لأنه من ضوئها.

وكانوا يستقبلون الشمس ضحى، ذكر «الأسقع» الليثي، أنه خرج إلى والده، فوجده جالساً مستقبل الشمس ضحى، وإذا تذكرنا ما أورده أهل الأخبار عن صلاة الضحى، وهي صلاة كانت تعرفها قريش، ولم تنكرها، أمكننا الربط بين استقبال الشمس ضحى وهذه الصلاة. والشمس من الأصنام التي تسمى بها عدد من الأشخاص، فعرفوا بـ«عبد شمس». وقد ذكر الأخباريون أن أول من تسمى به سبأ الأكبر، لأنه أول من عبد الشمس، فدُعي «عبد شمس»)*.

تفاصيل تخيلية للمعبد

إنك الآن في القرن الأول قبل الميلاد، أمام معبد الآلهة السامية (شمس)، الصورة المتخيلة الأولى للمعبد تتداعى أمامك بوضوح:

(شمس) ينقِش هذا الاسم باللغة الآرامية على جدران وصخور أحواض ومذابح المعبد الذي ترتفع جدرانه الخارجية نحو مترين، ويزجج بالجص وبالزخارف الزينية على نحو بالغ المهارة، تدخل المعبد، فإذا بمصباح برونزي روماني الصنع يضيء مخيلتك بالمزيد من الفرضيات المتخيلة، أما كتلة الحجارة الضخمة وسط المعبد، فقد جيء بها من مدافن أم النار الحضارة المواكبة زمنياً لنهضة الدور، في حين تنتصب خارج المبنى ثلاثة مذابح مبنية من صخور شاطئية، وعلى مقربة منها ثمة بئر دائرية مرصوفة بالحجارة، يبلغ طولها ستة أمتار. وتنتشر في مختلف أرجاء الموقع منازل صغيرة ومصاطب حجرية تتصل بالعادات الجنائزية المحلية.

إنهم يدفنون موتاهم مباشرة في الرمال، فثمة عدد لافت للنظر من القبور، يشكل بعضها مدافن فردية وأخرى جماعية، تبلغ أبعاد حجرة الدفن الواحدة 1070-2070م، ويصل ارتفاعها الأقصى إلى 2020م حتى قاعدة سقفها المقنطر الذي يرتفع 40 سم عن

بقايا معبد الإله شمس في موقع الدور الأثري

المعبد من الداخل

سطح الأرض المحيطة به. حفر عميقة أودعت فيها أوان زجاجية وفخارية وأسماك وعظام خراف وماعز، جميعها تقدّم طعاماً للأموات، وخارج المعبد تمثالان حجريان منحوتان على هيئة طائر النسر، يشبهان تماثيل معبد الحضر في الموصل شمال العراق التي اشتهرت بعبادة النسور، يرجّح أنها كانت تستعمل لأغراض تعبدية أعقبت عبادة شمس.

لن تدخل من الباب المؤدي إلى الحجرة، فهو محكم الإغلاق بكتلة واحدة من الحجارة، ومكسو بالجص، في حين أنك ترى سوراً منخفضاً مستطيل الشكل يضاف بعد بناء القبر.

نصيب الميت لؤلؤة توضع على أنفه أو جبهته! اللؤلؤة رمز للقمر، فهل انتشرت عبادة القمر إلى جانب الشمس، أم أعقبتها؟

ملوك الدور لا يهبطون في حفر الانتقال، وإنما تهبط الأرض معهم، فإن كان صاحب سلطة وجاه وملك، فإن جميع أهله وحاشيته وكنوزه يقبرون بجواره.

كنوز هائلة محيطة بالمعبد تدفن في المقابر، الأسلحة والعملات النقدية وقطع الذهب والبرونز والحلي والآلئ المنقوشة عليها صورة الإله شمس، ومن الطبيعي أن تتساءل، هل البلدة كانت سوقاً أم ميناءً أم ملتقى الحجاج إلى الإله شمس، أم أنها ستجمع كل ذلك عبر الأزمنة القادمة؟

ما يهمنا الآن هو الإله شمس النابت في الكون والمطل بهباته وكرمه على الجزيرة العربية، من سبأ اليمن حتى دور الإمارات. مرفأ الدور القديم مزدحم بالحجاج والبركات والبخور والنذور والشعائر الجنائزية، الكل يقصد معبد الإله شمس، أفواجاً وقوافل تنزل براً وبحراً.

توجيه رؤوس الموتى نحو شروق الشمس:

تشابهت عادات دفن الموتى والقرابين في المواقع الأثرية في أم القيوين، ما بين الدور وجزيرة الأكعاب وجبل البحيص.

أثناء زيارتنا لدائرة الآثار والتراث في أم القيوين، والاطلاع على اللقى الأثرية والمقتنيات في موقع الدور الأثري، استوقفنا هيكل الإنسان الميت الذي دُفن بشكل مثني على جنبه متخذاً هيئة القرفصاء، انتُشل من إحدى مقابر أم القيوين، ووضع في المتحف على هيئته نفسها.

في بحثه الشائق والعميق عن أحوال سواحل الإمارات في العصور القديمة، يتناول الباحث خالد منصور علاقة الإنسان والبحر منذ 130000 عام حتى 1300 قبل الميلاد*، ويأتي على تأويل طريقة الدفن، حيث تتجه وجوه الهياكل جميعها إلى اتجاه شروق الشمس، يوضع الموتى بشكل مثني (القرفصاء) على جنوبهم وأذرعهم عند المرفق، وأيديهم ملاصقة لوجوههم، كما يتم ثني أرجلهم، أما أعناقهم فتوجه إلى الأمام باتجاه الشرق.

والجدير بالذكر أن هذا الأسلوب في الدفن منتشر في كثير من المواقع عبر العالم في فترات زمنية مختلفة، وربما يدل هذا على أن المدفونين لم يكونوا موضوعين في أكفان أو نواويس، حيث يكون الأشخاص ممددين على ظهورهم.

وينطبق الأمر مع عادة دفن القرابين في الدور، توضع رؤوسها باتجاه الشرق، وهو ما يشير إلى توارث طقوس معينة شعائرية خاصة بالعبادة والتقديس، مارسها أولئك القوم، حتمت عليهم التوجه نحو الشرق، وهنا يبرز تفسير توجيه الميت نحو الشرق إلى أن الحياة الدائمة مرتبطة مباشرة بالشمس وتقديس تلك الجماعات والأقوام للشمس وعبادتها، مستمراً ذلك التقديس حتى في زمن الموت، يوجه وجه الميت تلقاء المكان الذي يشرق منه معبودهم كل يوم، حيث إن هذا الوقت المرتبط بـ(الشرق)، وقت تجدد الحياة اليومي، والنشاط الذي يدب في سائر كائنات الأرض، ولربما كان توجيه رأس الميت إلى الشرق أملاً في أن يبعث معبودهم الشمس هؤلاء الموتى، ويبث فيهم دفء عروق الحياة من جديد.

مقابر فردية

أحد الموتى المدفونين على هيئة القرفصاء محفوظ في متحف الدور

اللقى الفخارية متناثرة بكثرة في الدور

سيرة موقع الدور الأثري

اللقى الأثرية والكنوز البشرية شظايا تنتشر على مدّ البصر، الرمل يغطي كل شيء في انحباس شبه أبدي، لكن الرياح تفضح ذلك الستر القديم المختل المترسب بنعومة على حكايا الأمس.

تنتبه أم القيوين إلى قوة المولود القديم الذي عاد يضرب أحشاءها ليعلن مجدداً الخروج إلى الحياة. دورة الحياة لا تنتهي وكل شيء لا يموت؛ لأنه في حالة تجدد واكتساء.

ترسل أم القيوين نداءات الغوث لتقف أول بعثة أثرية على أبواب الكنز.

في عام 1970 تقف البعثة العراقية بذهول عميق أمام الكنز البشري المهيب المتناثر دون مبالاة بتداعي الأزمنة، وتسارع البعثة بضرب أول معول.

تبدأ التنقيبات والاكتشافات الأثرية في إمارة أم القيوين، موسماً واحداً فقط، ونظراً لأهمية الاكتشافات الأثرية توالت أربع بعثات أجنبية من الدنمارك، وبلجيكا، وبريطانيا وفرنسا بالتنقيب في موقع الدور تحت إشراف ودعم حكومة أم القيوين، تبدأ تلك البعثات أعمالها في عام 1987 وتنتهي عام 1990 باستثناء البعثة البلجيكية من جامعة غنت التي أُخذت بسحر الموقع الغامض، فاستمرت ستة فصول أخرى في التنقيب، حتى بدأ الليل ينجلي من فوق أكتاف الدّور، وزخات

التنقيبات في موقع الدور أم القيوين 2016

المطر تغسل أبنية المعبد وهياكله المتآكلة، وراح من أعماق الدور يخرج صدى الأصوات المرتجفة، تتردد خارج الزمن، في محاولات هرب من الذوي القديم، وتحليق آسر نحو الأضلاع والسواعد المرهقة لأعضاء فرقة التنقيب.

وفي عام 1995 وبعد تسع حملات تنقيب ونحت، قررت البعثة تسليم الموقع الذي عاد إلى الحياة من جديد إلى أحضان فضائه الخاص، فضاء الصحراء ورحم أم القيوين.

بقايا الأبنية ومنازل وأضرحة

في عام 2016 دائرة الآثار والتراث بأم القيوين تستكمل أعمال ترميم معبد الدور الأثري، (معبد الإلهة شمس)، بالتعاون مع المركز الإقليمي لحفظ التراث في الوطن العربي (آيكروم الشارقة).

وقد شهدنا ذلك الاستكمال التاريخي بمتعة وفرح كبير، مستشعرين فخراً واعتزازاً وإلهاماً غنياً لا يمكن تأطيره في أي عمل أدبي أو صحفي، ولعل أغرب فضاء أنطولوجي غني بالدلالات والرمزية والجمال الماورائي للكاتب هو أن يكون داخل نص مشهدي أنثربولوجي حيّ، حين تُفتح القبور وتخرج الروائح القديمة من العظام، تتحول إلى غابة أسرار، وأفكار غامضة، مشوّبة بالفرح والقلق والحيرة والغم اللذيذ، إنه شلال النور القديم المفاجئ، يكاد يشبه الشيء الأثيري الذي يسمونه.. معجزة.

---

* كتابة وتصوير : لولوة المنصوري

تم تصوير الموقع من عدسة الباحثة في يناير 2016.

مراجع:

* المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام/ المؤرخ العراقي جواد علي/ الجزء السادس/ دار الملايين/ بيروت/ 1970م.
* سواحل الإمارات في العصور القديمة/ خالد منصور/ دار الكتب الوطنية.
* أطلس تاريخ الشرق القديم/ إعداد ورسم إبراهيم حلمي الغوري/ دار الشرق العربي، بيروت.

شكر خاص لكل من:
• دائرة الآثار والتراث في أم القيوين.
• بيت التنقيب/ موقع الدور الأثري/ الحوض1/ البلوك 4/ المنطقة 6.

الطب الهندي:

في مواجهة أمراض العالم القديم

خليل السعداني
جامعة محمد الخامس بالرباط
المغرب

عاش الهنود لقرون عديدة في منطقة منعزلة وصحية، بسبب اعتمادهم الضعيف على تربية المواشي وأكل اللحوم. وقد منعت قساوة الطبيعة دخول الميكروبات إلى أمريكا عبر آسيا. ولم يكن للهنود مناعة ضد أمراض العالم القديم. وقد تتبعت الفيروسات خطى المستكشفين والتجار والمغامرين ورجال الدين والحيوانات. وهكذا انهالت كثير من الأمراض على السكان المحليين، وانخفضت ساكنتهم، بينما اختفت تماماً بعض القبائل. وأسهمت المبادلات التجارية المستمرة بين أمريكا والعالم القديم في التوحيد الميكروبي للعالم، وقد كان الهنود ضحية لهذا التبادل غير المتكافئ. وبقضائها على معظم الساكنة المحلية، تُعتبر الصدمة الميكروبية أهم ما ميز التقاء أوروبا بأمريكا. أما الحروب والخمور فلم تلعب إلا دوراً ضعيفاً في تراجع عدد الهنود. وأشار الباحث هنري دوبينز Henry Dobyns اعتماداً على دراسات أُجريت بالمكسيك والبيرو وكاليفورنيا ومناطق أخرى، إلى أن الساكنة المحلية انهارت بنحو 95% خلال 130 سنة التي تلت أول اتصال بالأوروبيين.

وقد بدأت هذه الأمراض بضرب المناطق التي استقر فيها الأوروبيون في البداية، وهي أمريكا الوسطى والجنوبية في بداية القرن السادس عشر، قبل أن تنتقل عبر الطريق التجاري إلى أمريكا الشمالية. وهناك من الهنود من توفوا ولم يروا الأوروبيين قط؛ لأن العدوى انتقلت إليهم عبر هنود آخرين التقوا الوافدين الجدد. وهذه الأمراض هي الجدري، والسل، والكوليرا، وحمى التيفويد، والحمى الصفراء، والزكام، والسيلان الأبيض، والزهري، والطاعون، ومعظم أمراض الأطفال كالحصبة،

والوردية، والحميراء، وجدري الماء، والحمى القرمزية، والخناق الغشائي، والسعال الديكي. وقد تأثرت القبائل الساحلية أكثر من القبائل الداخلية. لكن هذا لا يعني أن الهنود لم يكونوا يموتون بالأمراض. فقد أثبتت الدراسات أنه من العلل التي كانت منتشرة بين الهنود نجد الأنيميا، والالتهاب الكبدي، والتهاب الدماغ، وشلل الأطفال، والسل غير الرئوي، والروماتيزم، والسيفيليس الأمريكي، والطفيليات المعوية، وأمراض الهضم والتنفس، وأمراض الأسنان، والتهاب العظام. لكن لم يكن تأثير هذه الأمراض كارثياً، كما هي حال أمراض العالم القديم.

وقد ظل الطب الهندي عاجزاً أمام هذه الأمراض الجديدة؛ لأنه كان يجهل طريقة علاجها؛ فالصيام والرشح المتبوع بحمام بارد قد يؤدي إلى هلاك المريض، وغرقه نتيجة الإعياء. ونتيجة لذلك، أصبح الهنود يتساءلون عن أسباب وفاتهم. وهناك من القبائل من ألقت باللائمة على الفرنسيين، كقبائل الهورون التي اتهمت رجال الدين اليسوعيين، وبدأت تعتقد أن ما يكتبه هؤلاء في رسائلهم وكتبهم عن حياة الهنود ولباسهم وبلادهم أصل المصائب، بل اعتبر بعض المحليين أن السكر الذي يُعطى للمريض سمّ ليس إلا. وكانت معاينة الهنود صحيحة؛ لأن الأمراض كانت تصيب من يقترب من الأوروبيين، بينما يظل البعيدون معافين. وعلى الرغم من أن الشعائر لم تعد تُسعف الهورون في إيجاد الحلول لأمراض العالم القديم، فقد استمروا في البحث عن طقوس جديدة. لكن استمرار الأوبئة والوفيات دفع ببعض أفراد القبيلة إلى التنصر. وأوضح الباحث ويليام ماكنيل William McNeill أن الأوبئة الكبرى للقرن السادس عشر أثرت في الحياة الروحية والمادية لسكان العالم الجديد، فقد اعتبر الهنود الأمراض تجليات غيبية فوق – طبيعية، تحفظ الإسبان، أو أن الآلهة الهندية قررت دعم السكان البيض، أو أصبحت غير ذات فعالية أمام إله المسيحيين. وما دام النظام الاجتماعي والديني المحلي فقد فعاليته، فإنه وجب الانصياع للموظفين، والمستثمرين، ورجال الضرائب، ولم يبق أمام الهنود إلا التنصر. وقد شرح المؤرخ الفرنسي نتان فاشتال في كتبه القيم، نظرة المغلوبين، هنود البيرو أمام الغزو الإسباني 1530-1570، الآثار النفسية

الغزو النفسية ماثلة حتى يومنا في الفولكلور المحلي في البيرو وبوليفيا والمكسيك. كما أن الآثار الروحية لغزو الأوروبيين لم تكن أقل فداحة من الآثار المادية المتمثلة في الأمراض والأوبئة.

نخلص إلى أن المعرفة الطبية تميزت بفعاليتها عند هنود أمريكا، ومكّنتهم من مواجهة كثير من الأمراض، بل أسهمت في إمداد المعمرين بالوسائل الضرورية لعلاج علل عدة. لكن هذه المعرفة فقدت نجاعتها؛ لأن العالم الجديد، نتيجة بقائه معزولاً لقرون عدة، لم يكن قد طور حصانة ضد أمراض العالم القديم، ما أدى إلى انهيار ديموغرافي كبير، تلاه اندحار روحي ونفساني للهنود.

التي خلفها غزو الإسبان لأمريكا اللاتينية. وتوضح كل من الوثائق الهندية والفولكلور المحلي بالمكسيك وغواتيمالا والبيرو كيف أدى الغزو إلى موت الآلهة المحلية. وتؤكد المصادر وجود تنبؤات وخوف وهلع عند الهنود سبقت وصول الرجل الأبيض. وقد اكتسبت الهزيمة عند الهنود لباساً دينياً وعقديا؛ لأن آلهتهم فقدت قوتها. وكان الأزتيك يعتبرون أنفسهم شعباً مختاراً من قبل الإله الشمس الخاص بالحرب؛ لذلك كان يحق لهم أن يُخضعوا بقية الشعوب المحيطة بمكسيكو. وكان سقوط المدينة يعني نهاية حكم هذا الإله. وبما أن الآلهة ماتت لم يعد ثمة معنى للحياة، ولم يبق أمام الهنود غير الموت. كما انهار العالم التقليدي للمايا، وتكرس الاعتقاد أن الآلهة القديمة وإن كانت حقيقية، فإنها فانية. إنه القدر المحتوم الذي أنهى سيادة آلهة الساكنة المحلية، ليحل محلها الإله المسيح. أما هنود البيرو فقد تمثلوا الهزيمة أمام الإسبان على أنها كارثة كونية، ذلك أن وفاة ابن الإله الشمس الإنكا أفقد الساكنة المحلية نقط الاستدلال؛ لأنه كان يؤمن الوساطة بين الناس والآلهة. ولاتزال آثار

فولكلور الجسم الإنساني

أ.د. مصطفى جاد
عميد المعهد العالي للفنون الشعبية بالقاهرة -سابقاً

الجسم الإنساني الذي خلقه الله في أحسن صورة، ارتبط في الوجدان الشعبي العربي، بكثير من المعارف والمعتقدات الشعبية، فالهيئة العامة للجسم سواء للمرأة أو الرجل، ترتبط ببعض المأثورات والأقوال السائرة، فالشخص طويل القامة، أو الشخص قصير القامة، يُطلق عليه «قُزعة» أو «أُزعة»، والسمين «المتخت»، أو النحيل «السُّفيف».. إلخ.

أما أجزاء الجسم الإنساني فلها أوصاف أخرى، كالشعر الناعم أو الخشن، أو «الأكرت»، أو الجمة (تجمع شعر الرّأس المتدليّ إلى شحمة الأذن). وفي الخليج العربي «اللّبِيْد» هو الشخص ذي الشعر الكثيف. وفي شمال إفريقيا يُطلق «الْقُطّايَة» على الجزء من الشعر الذي يبقيه الحلاق على الرأس، قد يكون في المقدمة أو في المؤخرة أو جانباً، وربما يرتبط ذلك بمفهوم «البركة»؛ لأن الفلاح عندما يحصد الحقل يترك رقعة صغيرة دون حصاد، خوفاً من أن تُرفع البركة، أو لإرضاء الكائنات الخفيّة التي تعيش في المكان. وفي ليبيا يُطلق مصطلح «إيمَيْلَحْ» كصفة للشعر الطويل المتهدل، وهو من سمات جمال المرأة، وشعر المرأة الطويل يُطلق عليه «غَيْيِث». أما «القُصة» أو «الجَمَّة»، فتُطلق على مقدّمة الشَّعَرْ للمرأة عادة.

أما وجه الإنسان، فقد ارتبط بكثير من المعتقدات والتصورات حول ملامح الوجه وهيئته كالوجه المستدير، والوجه المثلث، والوجه المستطيل، فضلاً عن شكل الجبهة، والأذنين، وتقارب الحاجبين، وشكل الأذن، وصاحب الأسنان المفلوجة. ويتسع التصور إلى إسقاط بعض الصفات على وجه الإنسان عامة، فهناك الوجه السّمح الذي يوصف عادة بالابتسامة والقبول من الوهلة الأولى، على عكس الوجه الكِشر أو العبوس.

أما عين الإنسان، فقد ارتبطت بمفهوم الحسد، والعين الشريرة، وكذا العين الحلوة التي ترى الآخر في صورة أفضل، يُقال «فلان عينه حلو»، وقد ترتبط بالمهارة في رؤية الأشياء، وتحديد تفاصيلها، ومعرفة دقائقها. كما ارتبطت العين بما يُعرف بـ«رفة العين»، وهو معتقد يشير إلى تحرك أجفان العين بسرعة على غير المعتاد، ومن ثم فهو قد يشير إلى شر سيقع إذا رفت العين اليسرى، أو خير إذا رفت العين اليمنى، وقد يرتبط في العموم بأحداث معينة كانتظار رؤية شخص عزيز. أما «حكة الأنف»، فتشير إلى معتقد شعبي بأنه إذا حَك الإنسان أنفه، فإنه سيأكل لحماً عما قريب. ويشير «طنين الأذن» إلى معتقد يُفيد أن شخصاً آخر يتكلم على من طُنت أذنه.

أما أسنان الإنسان فلها تصورات شعبية عدة، منها أنه عندما تُخلع سِن الطفل، فيجب أن تُلقى في اتجاه الشمس مع ترديد المأثور الشعبي:

يا شمس يا شموسة..
خدي سِنة الجاموسة، وهاتي سِنة العروسة.
يا شمس يا شموسة..
خدي سِنة الحمار وهاتي سِنة الغزال

كما تتخذ رقبة الإنسان بعض التصورات الأخرى، إذ يُطلق على الجزء البارز الذي يظهر في الجزء الأمامي للرقبة اسم «تفاحة آدم»، وعند الغضب من شخص ما يوصف بأنه «مقصوف الرقبة». وهناك الكثير من التصورات والفنون الأدائية المرتبطة بلون بشرة الإنسان، فالبشرة البيضاء - لدى المرأة - لها غناء وأوصاف في الحكايات الشعبية تبرز جمالها، وتختلف بالطبع عن البشرة السمراء التي تتميز بجمال مختلف.

أما يد الإنسان، فتدور حولها معارف وتصورات أخرى، إذ يمثل «كف الإنسان» إحدى وسائل تعرف المستقبل «قراءة الكف»، ومعظم كفوف اليد تحمل الرقم 18 في اليد اليمنى، و81 في اليسرى، ومجموعهما 99 تمثل أسماء الله الحسنى، وتحوي بينها الكثير من الخطوط الفرعية التي تكشف - في التصور الشعبي - عمر الإنسان ومستقبله وحياته العائلية. إلخ. أما «حكة اليد» فهي ممارسة تحمل معتقداً يُفيد بأن من تحكه يده اليمنى فإنه سيتسلم أموالاً، أو سيسلّم على شخص طال فِراقه، وأما من تحكه راحة يده اليسرى، فإن ذلك يشير إلى أنه سيصرف أموالاً. وهناك بعض التصورات حول قدرات بعض الأشخاص في هذا الإطار مثل الشخص الأشول أو «الشُّوْبَل»، الذي يستخدم يده اليسرى في الكتابة، وتناول الطعام وغيرهما، أو الذي يستخدم قدمه اليسرى أيضاً بدل اليمنى.

كما تُستخدم «ذراع الإنسان» كأداة للقياس، شأنها شأن خطوة القدم التي تُستخدم أيضاً في تعرف المسافات، وتُعد آثار الأقدام من أكثر العناصر المرتبطة بمعتقدات الأولياء والقديسين، حيث نجد لدى كثير من الأولياء أثراً لأقدامه يؤكد - في المعتقد الشعبي - ارتباطه بالمكان. ويحمل الجسم الإنساني الكثير من «العلامات» مثل «الوحمة»، وهي علامة خلقية تتكوّن على جلد الطفل، قد تكون ثمرة تفاح أو عنب، أو نوع الطعام كالسمك أو الحمام، هذه العلامة هذه العلامة قد تظهر في أي مكان بالجسم مدى العمر أو تبهت مع الزمن، ويُعتقد أن سببها عدم تحقيق اشتياق المرأة الحامل هذه الثمرة أو هذا الطعام، وإذا أكلتها المرأة الحامل في حينها، لا تظهر هذه الوحمة.

أما «الحَسنة» أو «الشامة»، فهي ظهور علامة تظهر على الجسم، خاصة البشرة منذ الولادة بلون مختلف عن لون البشرة العادي، تختلف أحجامها وأشكالها من النقطة الصغيرة غير الملحوظة إلى الشامة الكبيرة البارزة. وقد تفننت الجماعة الشعبية في الرسم والتشكيل على الجسم، على نحو ما نجده في فنون الوشم والحناء.

الجسم الإنساني حافل بمئات الممارسات التراثية الأخرى، والتي سنتناولها في مقالات أخرى.

مغرب حكايات..
ذكريات وحكايات

إسراء الملا
مدير المدرسة الدولية للحكاية
معهد الشارقة للتراث

في مدينة الرباط عاصمة المملكة المغربية، المصنّفة في قائمة التراث العالمي، وجدت بلداً جميلاً متعدداً في مكوناته اللغوية والثقافية والسياحية، يتميز بموروثه العريق والشائق، وجدت نفسي أعيش في الثقافة والتقاليد المغربية، سواء في الأسواق الشعبية أو المآثر المعمارية من أسوار وبوابات ومساجد أو الأزياء التقليدية. شعوري كان مبهراً، وترك لدي انطباعاً جميلاً وإيجابياً.

كانت الزيارة ضمن وفد معهد الشارقة للتراث، للمشاركة في مهرجان مغرب حكايات..أعجبني المهرجان، سمعت فيه وشاهدت حكايات من العالم أجمع، بمختلف الثقافات، والأجمل من ذلك هو شعار هذا العام «عظماء بأمهاتنا»، فلا وصف لشعور الأم في قلوبنا، أرى حب الأم في عيون الثقافات كلها، فالتعرف إلى هذه الثقافات التي اجتمعت في هذا الحدث العظيم كان مبهراً، هنيئاً لكم بهذا المهرجان الذي يحمل الحكايات من العالم أجمع.

وعلى هامش المهرجان الذي شاركت في أغلب فعالياته، ضمن وفد معهد الشارقة، كانت لي زيارات عديدة؛ زيارتي الأولى كانت استطلاعية، حيث زرنا باب الأحد، ويقال بلهجة المغاربة باب الحد، وفيه العمارة التي ترجع إلى فترة الاستعمار الفرنسي،

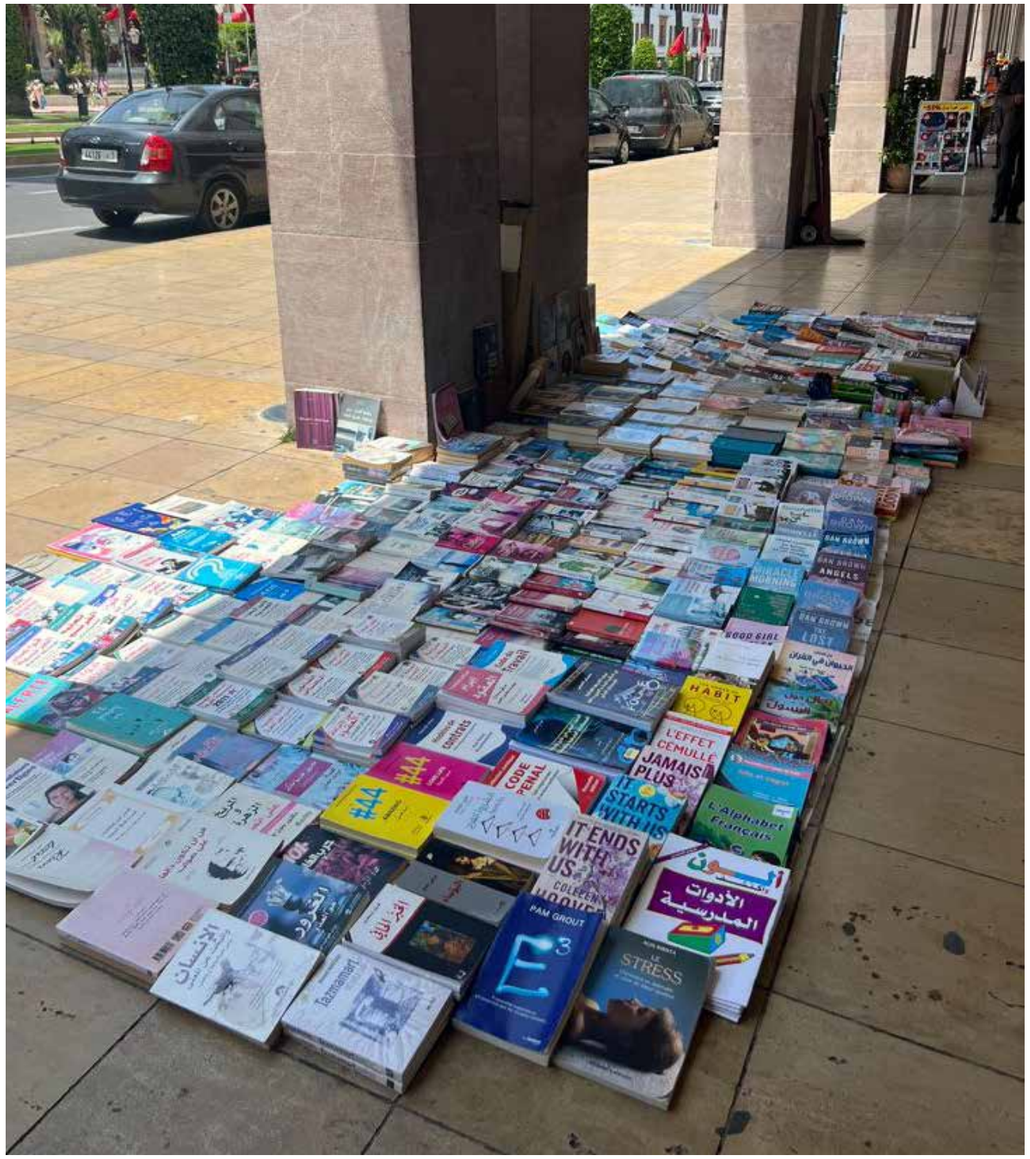

مثل بنك المغرب، وبريد المغرب، ومسجد السنة، وفيه مباني المتاحف والبرلمان ومحطة القطار والمقاهي والمكتبات.

فلا يسعني وصف المكان المبهر، خاصة بوابة باب الحد وباب الرواح، فهما أضخم بوابتين بالسور الذي توجد فيه بوابات أخرى، كما أخبرني أحد الزملاء الآثاريين.

الجميل أنه يتم العبور عبر أجزاء من السور التي عملت كبوابات تمر من تحتها السيارات في المدينة القديمة.

أما زيارتي الثانية فكانت إلى أرشيف المغرب، وهي مؤسسة مهمة، وأرشيف غني ومتنوع، يحفظ التراث والتاريخ العريق من ذاكرة المغرب، شاهدت في الأرشيف وثائق قديمة تعود إلى 1912 وما بعد، وترجع إلى عهد الحماية الفرنسية. واطلعت على أقسام الأرشيف المختلفة، وزرت المعرض الدوري بالأرشيف الذي كان منظماً ومتنوعاً وجميلاً، وكان فريق الزملاء بأرشيف المغرب متنوعاً بين أكاديمي وتقني ومهني، استمعت منهم إلى شرح مفصل عن عمليات الأرشفة والتوثيق والترميم والعرض والحفظ، ثم تبادلنا الهدايا التذكارية، وخرجت سعيدة منبهرة بهذه المؤسسة الثقافية والتاريخية، وسجلت في دفتر الزيارات انطباعي عن زياتي للأرشيف والمعرض.

ذهبنا إلى أجمل المكتبات التي حدثني عنها سابقاً وشوقني إليها سعادة الدكتور عبدالعزيز المسلّم، مكتبة الألفية، وجدتها كما وصفها لي ثرية ومرتبة وكبيرة، وفيها الجديد من الإصدارات التراثية والثقافية، وقد اقتنيت كتباً، وكأنني أراها للمرة الأولى، وكنت سعيدة بجلوسي في الكافيه بالقرب من المكتبة.

لم أكتفِ بما اقتنيت منها، وإنما اقتنيت كتباً من بائعي الكتب في الشارع نفسه، حيث توجد الكتب بكثرة في هذا الشارع، جميل أن ترى منظر الكتب في كل مكان!

وفي زيارتي التي لن أنساها إلى جامعة الملك محمد الخامس العريقة، لتقديم مشاركتي في الحلقة العلمية، تحت عنوان «الأم الإماراتية.. هي الراوية الأولى»، بحضور رئيسة المهرجان د نجيمة طايطاي، ورئيس الجامعة، وعدد من الدكاترة والأساتذة والخبراء المختصين والمهتمين بالتراث من دول عدة من العالم.

وكم كنت متخوفة في البداية؛ لأنني سأكون معهم في تقديم ورقتي! ولكنني، ولله الحمد، قدمت الورقة بكل حب وثقة، فالوصف بالحديث عن الأم لا يكفي، هي التي نسجت خيوط الحكاية، وفي الساردة الأولى لها، سواء تعلق الأمر بالحكاية الشعبية والخرافية.

لقد دفعتني هذه المشاركة أنني بحثت وقرأت الكثير من المراجع في مجال الرواية والحكاية في الإمارات، خاصةً من إصدارات معهد الشارقة للتراث، كان دافعي الأول أن تكون مشاركتي قيّمة وثرية، قدمت محاور مهمة عدة، في علاقة المرأة الإماراتية بالحكاية، منها: الأم الإماراتية هي الراوية الأولى وساردة الحكاية، مكانة الجدات في الحكاية الشعبية الإماراتية، كيف حافظت المرأة الإماراتية على تراثها في الحكاية، وسردها لأطفالها قبل النوم، وما مظهر السرد والإبداع فيها، وحكاياتي مع الكائنات الخرافية (للدكتور عبدالعزيز المسلم)، وصورة المرأة في الحكايات الشعبية من خلال تمثلاتها في حكايات: أم الدويس، بديحة، سلامة وبناتها، وغيرها من النماذج المختارة.

وعلى هامش المهرجان كانت لي زيارة إلى مدينة طنجة (عروس الشمال)، وركبنا القطار السريع، فكانت تجربة جميلة وممتعة، وصلنا طنجة ومن محطة القطار إلى متحف وسط الحديقة يحتوي على لوحات تشكيلية لكبار الفنانين العالميين، وبشرح مستفيض من مديرة المتحف كان محتوى المتحف الفني أكثر تشويقاً وجمالاً.

استكملنا الرحلة إلى متحف ابن بطوطة، الذي يقع في مدينة طنجة القديمة، صعدنا بالسيارة والخوف ينتابني من مسافة الصعود الكبير، فهو في رأس جبل بالمدينة.. وأعجبت بما شاهدت من عرض وصور ولوحات ومجسمات وخرائط لهذا العالم العربي الذي نفتخر به.

ثم واصلنا التجوال في معالم وآثار مدينة طنجة حتى التاسعة مساء، موعد الرجوع بالقطار إلى الرباط.

وأخيراً غادرت المغرب ومعي حقيبتين؛ الأولى مملوءة بالذكريات التي لا تنسى، والثانية بالكتب الثرية التي أتطلع لجمع المزيد منها في زياراتي القادمة.

ولنا عودة إليك يا بلد الجمال.. المغرب.

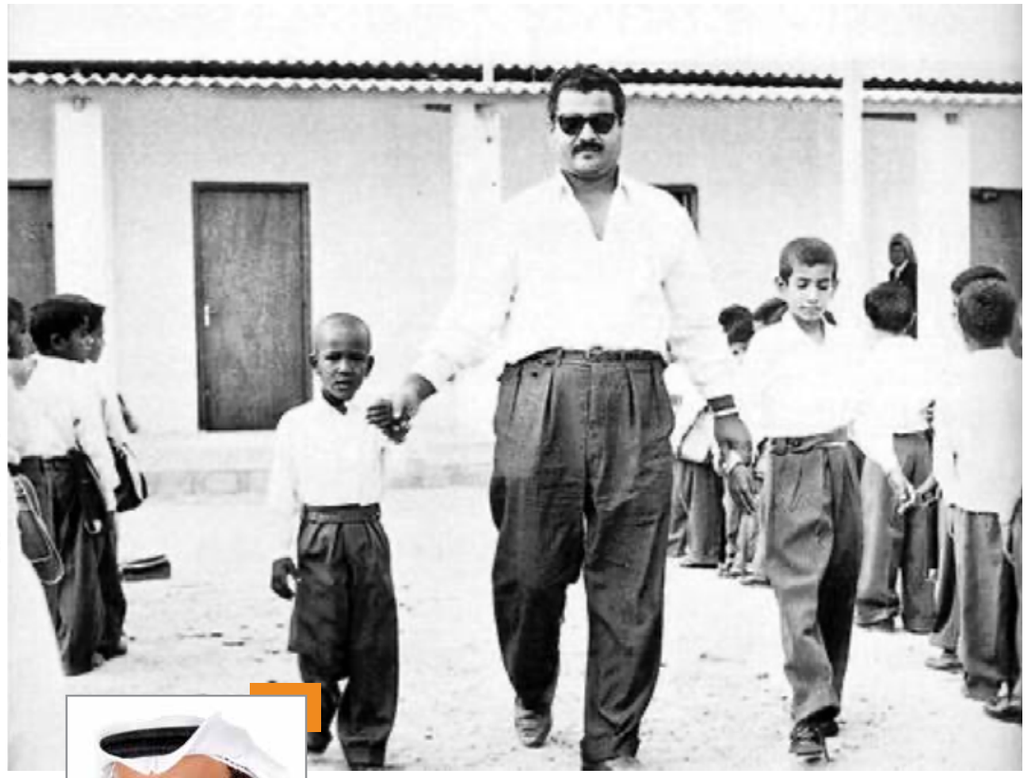

(تجمع أولاد وبنات في طابور الصباح أمام مبنى مدرسة المهلب الابتدائية للبنين في منتصف الستينيات من القرن الماضي)

الزمن الجميل لمدرسة المهلب والخليل (خورفكان)

محمد راشد النقبي
كاتب - الإمارات

هناك جوانب ومحطات في حياتنا لا يمكن محوها من الذاكرة، فهي محفورة في الأعماق، والقلب لها يشتاق، كأنها بدر براق، أحداثها شائقة، وأيامها رائقة، إن غابت الشمس ليلاً، فذكراها الجميلة لا تغيب.

نستذكر من تلك الأيام والسنين التي مضت كلمح البصر، حكايات مدرسةٍ احتوت بداخلها على خير الأصدقاء، وصدحت تلك الضحكات والصيحات، وقد تردد صداها في جوانب المدرسة وساحتها، أحداث حملت في جعبتها كثيراً من الذكريات الجميلة التي لا تنسى، يشتاق لها القلب، وتهفو لها الأرواح، ومنها تلك الأناشيد والقصص الهادفة التي لم تمح من ذاكرة من عايشوا تلك الحقبة من الزمن، كما لا تغيب عن الذكرى أيام اللعب والجري في فناء المدرسة وأروقتها في فسحتها، كم هي رائعة تلك البرامج الإذاعية الهادفة، التي تثري الفكر، وتزيد وتعمق من الحصيلة العلمية والمعرفية للطالب، حيث يمكن تشبيهها ببنك للمعلومات، تلك الأحداث تمرُّ بين الحين والآخر بذاكرة من عايشوا أحداثها، كأنها حكاية فيلم أو مسلسل هادف يسلط الضوء على روائع تلك الأيام والأعوام، والتي مضت وانقضت كلمح البصر.

الاستعداد للدراسة:

في أواخر فترة الخمسينيات والستينيات، وحتى السبعينيات من القرن العشرين، قضى أبناء الساحل الشرقي بنين وبنات، أياماً وأعواماً مدرسية من الصعب نسيانها، فهي محفورة في مُخيلتهم ووجدانهم بكل ما تحمله في طياتها من بساطة كبساطة تلك السنين، ومن شفافية كشفافية وبراءة الأطفال وأحلامهم، فقبل بداية العام الدراسي تبدأ استعدادات الأسرة لتوفير احتياجات المدرسة لأبنائها، بما يمكن توفيره من قرطاسية لا تتعدى أن تكون عبارة عن (مسطرة خشبية، وقلم رصاص، وفلم جاف، وممحاة وبراية (مبراة)، وعلب ألوان، ودفتر صغير لكتابة الواجبات)، توضع جميعها في شنطة (حقيبة) بسيطة أو شريط مطاطي (سير).

وقبل يوم من بداية اليوم الدراسي، تقوم الأمهات بتعويد أبنائهنّ النوم المبكر، وهي عادة متوارثة في القرى والمناطق في الساحل الشرقي وبقية مدن ومناطق الدولة، حيث دأبت الأسر في الماضي على تناول وجبة العشاء بعد أداء صلاة المغرب مباشرة، وهي من العادات التي توارثتها ودأبت عليها تلك القرى والمناطق، واستمرت عليها، وهذا ما اعتاده الأجداد والآباء السابقون من قبل، حيث إنه ما إن يتم الانتهاء من صلاة العشاء بفترة وجيزة حتى تغط جميع العوائل والأسر في النوم.

ويرجع أسباب النوم المبكر لسكان قرى الساحل وغيرها في تلك الفترة، إلى ما يلاقيه السكان من شدة الإنهاك والتعب، نتيجة العمل المُضني في المزارع والضواحي، والأنشطة البحرية المختلفة التي كانوا يمارسونها، حيث كان من عادة أفراد المناطق قديماً

سيارة عربيي (بدفورد) من المركبات التي استخدمت في نقل الطلبة في الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضي.

أنهـم ينطلقـون لأعمالهـم منـذ الصبـاح الباكـر عقـب صـلاة الفجـر مبـاشرةً، بعـد أن يتناولـوا شـيئاً مـن القهـوة والتمـر، وبعـض الطعـام، ومنهـم مـن يتجـه إلى مزرعتـه كي يحـرث ويـزرع ويسـقي المحاصيـل الزراعيـة المختلفـة، ومنهـم مـن ينطلـق متجهـاً للبحـر لطلـب الـرزق، حيـث يبـدأ الصيـادون يومهـم في صيـد الأسـماك الشـاطئية التـي توجـد في السـاحل، وأمـا بعضهـم فكانـوا يقومـون بجمـع المحـار والقواقـع البحريـة الشـاطئية، حيـث يعـودون ظهـراً منهكـين متعبـين، ومـن ثـم يعـاودون العمـل مـن جديـد بعـد أخـذ قيلولـة بسـيطة لا تتجـاوز السـاعة، ومـن ثـم يسـتمرون في العمـل مسـاءً حتـى قبيـل وقـت الغـروب، وبالنسـبة للأطفـال والصبيـان فكانـوا يقضـون أوقاتهـم في ممارسـة مختلـف الألعـاب الشـعبية الشـائعة في تلـك الفـترة، وأكـثر مـا كانـوا يراعونـه ويعطونـه الاهتـمام هـو قيامهـم بالمذاكـرة، وحـل الواجبـات حتـى لا تتـم معاقبتهـم مـن قبـل المعلمـين؛ لـذا كانـت كل تلـك الأنشـطة سـبباً في إنهـاك القـوى الجسـدية التـي تـؤدي للاستسـلام للنـوم مبكـراً.

كـما أن وسـائل الإعـلام ووسـائل التواصـل الحاليـة، لم تكـن متوافـرة في ذلـك الزمـن الجميـل، كـما لم تتوافـر أيضاً في تلـك السـنين الماضيـة وسـائل اتصـال مرئيـةٍ تشـغل الفـرد خاصـة الأبنـاء وتلهيهـم عـن النـوم مبكـراً، والأهـم مـن ذلـك أيضـاً مـا عـرف عـن قـوة شـخصية الأب ومكانتـه في الأسـرة، حيـث لا يجْـرؤ الأبنـاء عـلى رفـض أوامـره وتوجيهاتـه؛ لـذا ينـام الأبنـاء مبكـراً خوفـاً مـن إزعـاج الأب، الـذي لـه مكانـة واحـترام وتقديـر كبيـر مـن قبـل الأسـرة، وهـذا مـن العـادات والمـوروث الـذي انتهجتـه الأُسـر في المـاضي؛ لـذا مـا إن يـأتي وقـت الفجـر، ويتـم الانتهـاء مـن أداء الصـلاة مبـاشرةً، حتـى يقـوم الأبنـاء سريعـاً للتأكـد مـن وجـود جميـع لـوازم المدرسـة، وعـدم نسـيان أو تـرك شيء مطلـوب، مـا قـد يسـبب لهـم العقوبـة مـن قبـل المعلمـين.

1. مقابلـة مـع السـيد: محمـد صالـح النقبـي، (أحـد أوائـل طلبـة فـترة السـتينيات في مدرسـة المهلـب)

يذكـر الأسـتاذان محمـد وعـلي إبراهيـم النقبـي، وهـما ممـن عـاصروا تلـك الفـترة الجميلـة، وكانـا ضمـن الطلبـة المتفوقـين، أن بعـض الطلبـة كانـوا قبـل التوجـه للمدرسـة يتناولـون شـيئاً مـن المأكـولات المحليـة البسـيطة، منهـا (الخبـز والقـرص المدهـون بالسـمن العـربي، والفنـدال (البطاطـا الحلـوة) في حـال موسـمها، كـما يحتفـظ بعضهـم بـشيء مـن الطعـام في حقيبـة المدرسـة، كي يقـوم بتناولـه في وقـت الفسـحة المدرسـية في بعـد الحصـة الثالثـة، وقـد جـرت العـادة أن يجتمـع الطـلاب بعـد خروجهـم مـن منازلهـم في أماكـن محـددة، ينتظـرون سـيارة المدرسـة، حيـث كانـت وسـيلة النقـل في السـابق عبـارة عـن سـيارة عربيـي (بدفـورد) يطلـق عليهـا (نسـاف أو عربيـي)، وهـذه الآليـة الكبـيرة اسـتخدمت في نقـل الطلبـة منـذ بدايـة السـتينيات حتـى السـبعينيات مـن القـرن العشريـن، كـما اسـتخدم في النقـل سـيارات اللاندروفـر، ثـم اسـتبدلت بوسـيلة نقـل أخـرى عبـارة عـن سـيارة دودج، كانـت تحمـل مـن ضمنهـا البنـات، وفي منتصـف وأواخـر السـبعينيات تغـيرت وسـيلة النقـل إلى الأفضـل، حيـث عرفـت الباصـات ذات المقاعـد المريحـة، كـما أن الشـوارع أضْحـت أكـثر سـهولة في حركـة المركبـات بعـد رصفهـا وتعبيدهـا بالإسـفلت، وقـد أسـهم ناظـر المدرسـة في مـشروع تعبيـد الطـرق ووصولهـا للقـرى والمناطـق كي تسـهل حركـة المركبـات الكبـيرة والصغـيرة.

2. مقابلـة مـع السـيدين: محمـد وعـلي إبراهيـم سـعد النقبـي

حقيبة مدرسية من حقبة الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي

فترة إنشاء مدرسة المهلب:

تذكـر إحـدى الشـخصيات التـي عـاصرت جيـل أواخـر الخمسـينيات وبدايـة السـتينيات مـن القـرن المـاضي، وهـو الطبيـب إبراهيـم عـلي القـاضي، أن دراسـة المرحلـة الابتدائيـة كانـت أربـع سـنوات في أول مدرسـة أنشـئت في خورفـكان، ويطلـق عليهـا (دار المعـارف)، وكانـت تقـع بالقـرب مـن البحـر، خلـف مطعـم تـاج محـل، وقريبـة مـن مسـتوصف خورفـكان الـذي بنـي عـام 1963م، وكانـت مدرسـة في بدايـة إنشـائها مخصصـة لـلأولاد، وبالنسـبة للبنـاء فكانـت الصفـوف مبنيـة مـن الأخشـاب، وحينهـا كان مديرهـا المعـروف محمـد أبوالمعاطـي، وبعدهـا تـم الانتقـال إلى أول مدرسـة نظاميـة، وهـي المهلـب بـن أبـي صفـرة، لأربـع سـنوات للمرحلـة المتوسـطة.

1. لقـاء مـع الطبيـب: إبراهيـم القـاضي، البيـان 24، يوليـو 2012

وفي عـام 1960 زارت مجلـة العـربي الكويتيـة مدينـة خورفـكان، حيـث يذكـر الصحفـي المعـروف سـليم زبـال، أنـه قطـع الطريـق مـن الشـارقة لخورفـكان في رحلـة شـاقة ومرهقـة، قطـع خلالهـا 150 كـم لمـا يقـرب مـن 10 سـاعات مسـتمرة، ويذكـر أن الأهـالي في خورفـكان تهافتـوا لتعليـم أبنائهـم بعـد افتتـاح مدرسـة المهلـب، التـي كان فيهـا معلـمان في بدايتهـا، هـما الأسـتاذ محمـد سـعيد أبوالمعاطـي، والأسـتاذ عبدالمجيـد جـبر، وكانـا أول بعثـة تعليميـة في المنطقـة الشرقيـة، وتقـدم للمدرسـة عـدد 138 طالبـاً، لكـن المدرسـة لم تكـن تسـتوعب إلا 120 طالبـاً، وكانـت الطـرق غـير معبـدة لبقيـة المناطـق الأخـرى مثـل اللؤلؤيـة والزبـارة، فقامـوا بفتـح طريـق لتلـك المناطـق، واشـتركا في تعبيـده مـع الجهـات المسـؤولة، ثـم انضـم إلى المدرسـة معلـم ثالـث، هـو الأسـتاذ سـامي مسـعود، عضـو بعثـة الكويـت، ووصـل عـدد الطلبـة فيـما بعـد إلى 140 طالبـاً.

1. من ذاكرة الزمن، ملاحق الخليج، ملحق تراث، 22 مايو 2014 - في لقـاء أجرتـه جريـدة الخليـج مـع إحـدى الشـخصيات المعـاصرة مـن منطقـة اللؤلؤيـة، التابعـة لخورفـكان، يتحـدث فيهـا عـن مسـيرة مدرسـة المهلـب وتاريخهـا، وكان أحـد طلابهـا، ومـن خـلال حديثـه عـن بدايـة التعليـم النظامـي، يقـول: «لم يكـن في الماضي التعليـم نظامياً، ولا توجـد مـدارس، حيـث كان المطـوع يقـوم بـدور المعلـم والمـربي في الفـترات السـابقة، كـما هـو معـروف في الإمـارات وبقيـة دول الخليـج، وكانـت التعليـم مقتصراً عـلى حفـظ كتـاب اللـه، وبعـض الأحاديـث، وشيء مـن الحسـاب، وفي أواخـر الخمسـينيات مـن القـرن العشريـن، وتحديـداً في نهايـة عـام 1957م، وبدايـة عـام 1958، بـدأ ظهـور أولى المـدارس في خورفـكان، وكانـت عبـارة عـن مدرسـة ابتدائيـة، وكانـت المدرسـة منحـة مـن دولـة الكويـت، وأيضـاً المناهـج والكتـب الدراسـية، وبالنسـبة لناظـر (مديـر) المدرسـة والمدرسـين، فكانـوا مـن جمهوريـة مـصر.

واشـتهر ناظـر المدرسـة الـذي يدعـى محمـد أبوالمعاطـي بشـدته وحرصـه عـلى حضـور جميـع الطلبـة، وعـدم تغيبهـم، وبالإضافـة إلى عملـه مديـراً للمدرسـة، كان مسـؤولاً عـن جميـع المؤسسـات المدنيـة في المنطقـة، ومـن الأشـياء التـي يذكرهـا الأهـالي عنـه مـروره الدائـم عـلى البيـوت في الحـواري والقـرى لأخـذ الطـلاب إلى المدرسـة، وأي طالـب يتأخـر عـن الحضـور، يعاقـب بشـدة، حيـث كان الأهـالي في المـاضي يفضلـون ويلزمـون أبنائهـم العمـل معهـم في المـزارع والصيـد البحـري وفي الرعـي، مـا يضطـر أبناءهـم إلى التأخـر عـن المـدارس.

1. ملحـق الخليـج (محمـد بورشـيد، اللؤلؤيـة لبنـان السـاحل الشرقـي) 30 مايـو 2019م.

سيور أو حمالات الكتب، من الوسائل البسيطة في الماضي التي كانت تغني عن حمل الحقائب

تحت أشجار قصص ملتقى الراوي..

تستظل جلسات حوارية حول النباتات وتكريم الرواة

د. أماني محمد ناصر
باحثة وأكاديمية - سورية

اختتم مؤخراً ملتقى الشارقة الدولي للراوي بدورته الـ23، تحت شعار «حكايات النباتات»، في إكسبو الشارقة، وقد ضمّ الملتقى العديد من الفعاليات الثقافية والتراثية، كما ضمّ فعاليات ونشاطات ترفيهية للأطفال. شارك في هذا الملتقى أكثر من 120 خبيراً وباحثاً وحكواتياً، يمثلون أكثر من 47 دولة، منها: الإمارات، قطر، السعودية، البحرين، عمان، الكويت، مصر، سورية، العراق، اليمن، المغرب، السودان، موريتانيا، تونس، الجزائر، فلسطين، قيرغيزستان، تركيا، هولندا، الصين، كينيا، ألمانيا، إيطاليا وغيرها.

ومن ضمن المشاركين في الملتقى هيئات ومؤسسات أكاديمية ومراكز ثقافية عربية وعالمية، من بينها: المعهد العالي للفنون الشعبية بمصر، والأكاديمية الدولية مغرب الحكايات للتراث الثقافي اللامادي من المغرب، وجامعة زيهجيانج للعلوم الصناعية والتجارية، وجامعة تورينو الإيطالية.

وخلال الملتقى التقينا الدكتور عبدالعزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقة للتراث رئيس اللجنة العليا لملتقى الشارقة الدولي للراوي، وسألناه: لماذا تمّ اختيار «حكايات النباتات» شعاراً لهذه الدورة؟ فأجاب:

طبعاً نحن نختار في كل سنة عنواناً يكون ملائماً لحدثٍ ما، هذه السنة أعلن رئيس دولة الإمارات أنّ هذا العام هو عام الاستدامة، فأعتقد أنه ليس هناك أفضل من النباتات للاستدامة، لذلك تمّ اختيار النباتات شعاراً لهذه الدورة، وأيضاً لأنّ الكثير من الأشجار والنباتات لها حكايات في الأدب العالمي، وفي الأدب العربي، وفي التراث المحلي. ففي الشارقة لدينا الكثير من النخيل والأشجار التي لها حكايات، أحياناً حكايات مرعبة، أحياناً حكايات لطيفة، وأحياناً حكايات تاريخية لأنها تؤرخ لحدث معيّن، فمثلاً شجرة الرولة في الشارقة من أهم الأشجار؛ لأنها زرعت في القرن الثامن عشر، زرعها أحد شيوخ القواسم الذي يسمى سلطان بن صقر الأول، وهذا الشيخ من قوته استطاع أن يجمع تحت إمرته أكثر من منطقة، جمع الشارقة ورأس الخيمة وغيرهما من المناطق، وكان يحكمها كلّها، بالإضافة إلى بعض الجزر الموجودة على الساحل الفارسي. فرمزية الشجرة ثبتت بقوة هذا الحاكم، ثمّ أصبحت ملاذاً، وأصبحت أيضاً مكاناً للاحتفال بالأعياد، هذا بالنسبة للرولة، ولكن أيضاً هناك شجر النخيل والسدر، فالسدرة بالذات تأتي أهميتها بعد أهمية شجر النخيل عندنا، كما تعلمين فالمسلمون يغسلون الموتى بماء السدر، وأيضاً الممسوس بالسحر يغسل بماء السدر، والسدرة تقي الناس السحر، ولكنها هي أفضل مكان يسكن فيه الجن؛ أي فيها متناقضات عجيبة؛ لذلك أردنا أن تكون النباتات حاضرة في ملتقى كبير، مكثّف، يجمع هذا الإرث الكبير للشجر.

الدكتور منّي بونعامة، مدير دائرة المحتوى والنشر في معهد الشارقة للتراث، وفي سياق سؤالنا له عن «حكايات النباتات»، كشعار للدورة الـ23 لملتقى الراوي أجاب: درج معهد الشارقة للتراث في نطاق اهتمامه بالتراث الثقافي العربي والعالمي على اتخاذ موضوعات تتناغم مع شعارات دورات ملتقياته وفعالياته الكبرى، ومنها ملتقى الشارقة الدولي للراوي، فمنذ عام 2015 توسّع نطاق الملتقى ليشمل تجارب الشعوب ورواة العالم، فأصبح الملتقى حاضناً للتراث العالمي، ما استدعى من المعهد ومن اللجنة العليا المنظمة للملتقى إلى انتخاب موضوعات مهمّة تتناغم مع هذا التوسّع وتستجيب لهذا التطلّع. فكانت البداية مع فنون الراوي، ثمّ جحا العربي، ثمّ سير الملاحم، ثمّ الحكايات الخرافية، ثمّ ألف ليلة وليلة، ثمّ قصص الحيوان، ثمّ حكايات البحر، وأخيراً حكايات النباتات. وأضاف بونعامة وذلك كلّه بهدف استعراض ما تنطوي

عليه هذه الحكايات من قيمة تراثية ترتبط بسرد الشفاه للعربي والتقاليد المروية لدى الشعوب؛ ذلك لأنّ هذه المفردات، سواء تعلّق الأمر بفنون الراوي أو جحا العربي أو سير الملاحم.. إلى حكايات النباتات، كلّها توجد مثيراتها ومسيرتها ونظائرها في تراث الشعوب، ما يعني أنّ لها جذوراً ممتدة وأصولاً متبقية في وجدان الأمم، وفي تراث الشعوب، وهذا ما جعل المعهد يختار هذه الموضوعات، حتى يُبرز للعالم ما تنطوي عليه هذه الحكايات من موروث حكائي قديم وأصيل يتصل بالتكوين التراثي التاريخي لهذه الأمم.

إذن، حكايات النباتات تنتظم في هذا المجال، وتأتي اتساقاً مع رؤية المعهد واللجنة العليا المنظمة للملتقى، بهدف إبراز ما تنطوي عليه هذه الحكايات من مأثورٍ حكائي شفهي، استحال لاحقاً إلى مأثورٍ كتابي، وبعضه لا يزال يتناقل عبر الرواية الشفاهية، كل ذلك بهدف الإمتاع والمؤانسة، وإبراز ما لهذه الحكايات ونظائرها من تشابه وتطابق وتلاقٍ في سياق التواصل مع التراث والثقافة الشعبية العالمية.

وعن إصدارات معهد الشارقة للتراث، تحدّث الدكتور بونعامة قائلاً: تأكيداً على قيمة العناصر التراثية التي أوردتها في الإجابة عن السؤال الأول، وما لها من علاقة وارتباطٍ بموروثنا الشفاهي العربي، وضماناً لتوثيقها واحتفاء بما فيها من عناصر ورموز ومكونات، أخذ معهد الشارقة للتراث على عاتقه منذ البدايات الأولى إبراز هذا الموروث، من خلال توثيقه بين دفتي كتاب، وذلك من خلال الإصدارات المصاحبة للملتقى في دوراته السابقة حتى دورته الثالثة والعشرين، حيث عمل المعهد في كل دورة من تلك الدورات على إفراد مساحات كبيرة لتوثيق حكايات النباتات وحكايات البحر وقصص الحيوان والحكايات الخرافية وغيرها، فاكتتب نخبة من الباحثين، وأتحف المكتبة العربية والإماراتية بأسفار ودراسات قيّمة يشار إليها بالبنان، ونّقت جوانب مختلفة من العناصر التي تم اختيارها ضمن شعارات الملتقى في دوراته السابقة.

ثمّ توجّهنا إلى الأستاذة ناتاشا يوسف معنا، الفائزة بجائزة أفضل البحوث والدراسات في التراث الثقافي 2023، الفئة العالمية، وسألناها عن مشاركتها في ملتقى الراوي لهذا العام، فأجابت:

مشاركتي كانت تحت عنوان «زهور ونباتات بين الرمز والإلهام»، وموضوع النباتات كما تعرفين، موضوع عميق جداً، ومتوسّع جداً، وحاولنا الاختصار؛ لأنّ علاقة الإنسان بالنباتات هي علاقة قائمة على كل شيء، فالنبات يدخل في المسكن والملبس والغذاء وحتى الدواء، وللنبات علاقة وطيدة بالإنسان، فقد شاركته في حياته ومناسباته، وأيضاً زيّنت القصور والمساكن وحتى في الأدب دخلت النباتات والزهور في حياة الإنسان. وأهميتها تكمن في لغتها الخاصة، فهي قد تعبّر أكثر من الكلمة عن الأحاسيس والمشاعر.

أما الأستاذة عائشة راشد الحصان، مديرة مركز التراث العربي في معهد الشارقة للتراث، طرحنا سؤالنا: لماذا

شعار الملتقى في هذه الدورة «حكايات النباتات»؟ فأجابت كالآتي: في البداية، وضمن الخطّة العشرية لملتقى الشارقة الدولي للراوي، وضعنا الخطة لعشرة أعوام، وكان عام 2023 من نصيبه «حكايات النباتات» هذا أولاً. الأمر الثاني جاء مواكباً لإعلان صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد، رئيس دولة الإمارات، حفظه الله، عام 2023 عام الاستدامة، فجاء الملتقى مواكباً لهذا الإعلان، وللمحافظة على البيئة واستدامتها، وأيضاً للمحافظة على الحكايات، وعلى الإرث الثقافي والتنوع؛ لأننا كل عام نختار عنواناً.

العام الماضي كان «حكايات البحر»، والذي قبله «قصص الحيوان»، فكل عام يتميز بحكايات من بيئة معيّنة أو من قصص أو من كتب معيّنة.

الشخصية الاعتبارية لهذا الملتقى مثّلها الباحث محمد سعيد البلوشي، المستشار في إدارة التراث والهوية بوزارة الثقافة القطرية عضو جمعية التاريخ والآثار لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، السيّد البلوشي قال لنا في معرض سؤالنا عن شعوره بهذا التكريم: لم يخترنا معهد الشارقة عن عبثٍ، وهو المعهد الأكاديمي ذو الصفة العلمية، فإن رشّحوا أشخاصاً لنيل هذه الشخصية وتكريمها، فهم قد درسوا من يستحقها، الشخصية الاعتبارية لملتقى الراوي بدورته الـ23 تعني لي الكثير، فالقادم بعد ترشيحي لهذه الجائزة هو أنّه يجب أن أعيد أوراقي، ماذا سأقدم بعد هذه الجائزة؟

وأشكر «ملتقى الشارقة الدولي للراوي»، فجميل هذا الاختيار بعد 37 سنة من التقدير من الإخوة في معهد الشارقة للتراث، فشعوري حقيقة لا يوصف.

أما عن مشاركته في الملتقى فتحدّث السيد البلوشي قائلاً: لقد بدأتُ العمل في الإمارات من أيام ما كنت

موظفاً في مركز التراث الشعبي في دولة الإمارات، منذ 1988، جمعنا صناعة الفخار في دولة الإمارات، والعمارة التقليدية، والحرف والصناعات التقليدية، الزخرفة الخشبية، الزخرفة الجبصية، مشروع صون وترميم قرية المريجة في الخان.. إلخ.

وهذه السنة كانت لدي كلمة من خلال جلسة الوفد القطري «تجربة المؤسسات الحكومية في الحفاظ على الموروث الشعبي في دولة قطر.. منذ ستينيات القرن الماضي إلى اليوم».

وأخيراً توجهنا إلى الحاصل على جائزة (شخصية العام للتراث الثقافي) الأستاذ إبراهيم جمعة سند، المتخصص في التراث شعبي في قطاع الثقافة والتراث الوطني في وزارة الإعلام، وسألناه عن شعوره بنيله هذه الجائزة، فكانت إجابته: سعدتُ كثيراً بحصولي على جائزة الشارقة الدولية للتراث والثقافة، شخصية العام للتراث الثقافي، هذه الجائزة تأتي برعاية كريمة من قبل صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، وهذا التكريم المميز اعتبره تكريماً لكل العاملين في مجال التراث الشعبي، وهو بالتأكيد يشعل في داخلنا الحماسة والرغبة الدائمة في العطاء، وبذل كل الجهود المتطلعة إلى المستقبل، ومن خلال عملي الطويل والمستمر في جمع وأرشفة وتدوين مواد التراث الشعبي، تعلمتُ أشياء كثيرة، تعلمتُ أنّ العمل الثقافي والتراثي لا يأتي بثماره إلّا مع الآخرين، ومن أجل الآخرين، وأنا بالمناسبة عملت في جمع مادة غزيرة من الميدان في البحرين، شملت هذه المادة مختلف المدن والقرى البحرينية، وقمت بتجميع كل ما له علاقة أولاً بالحرف والصناعات التقليدية، ثانياً الحكايات الشعبية، ثالثاً العادات والتقاليد والمعتقدات الشعبية،

رابعاً الموسيقى والغناء، خامساً الأزياء الشعبية. وأيضاً هناك مادة أخرى مخصصة لثقافة الطفل الشعبية منها جمعت كل ما له علاقة بالألعاب الشعبية والأغاني والأناشيد المرتبطة بالطفل، قمنا بنشر هذه المواد المجمعة عن طريق الكتب والبحوث والدراسات، وهي أيضاً معروفة عندنا في البحرين وبقية الدول الخليجية، يستطيع كل من يريد أن يطّلع على هذه المادة الغزيرة عبر هيئة الثقافة في البحرين، وما زلتُ أعمل في جمع هذه المادة من مختلف المدن والقرى البحرينية؛ لأنّ في داخلي شيء يؤكد أهمية التراث الشعبي؛ لأنه الركيزة الأساسية للتطور والنماء، وهو أيضاً الهوية الوطنية التي يتمتع بها أي بلد في العالم.

أما عن سؤالنا له عن شعار ملتقى الراوي لهذه الدورة «حكايات النباتات» فحدّثنا قائلاً: تمّ اختيار هذا الاسم من قبل معهد الشارقة للتراث، وفي كل دورة يتم اختيار شعار مهم، وقد أطلق العام الماضي حكايات البحر، هذه الدورة مخصصة لحكايات النبات، باعتبار أنّ النبات له دور كبير في حياة الإنسان؛ لأنّ النبات يدخل في الموروث الشعبي، في العادات والتقاليد، والحرف والصناعات التقليدية، والحكايات، ونعرف أنّ الإنسان في منطقتنا العربية قام بزراعة مختلف النباتات؛ لأنها مصدر للغذاء والدواء، وأيضاً مصدر لبناء وتأسيس الأبنية الشعبية التقليدية وكل ما له علاقة بالأبنية القديمة التي كانت تستخدم فيها جذوع وأشجار النخيل التي تتم زراعتها في دول الخليج، وتستخدم في الغذاء، وفي صناعة أثاث البيوت التي أيضاً يدخل فيها «السعف»، أيضاً استخدم النخيل في صناعة السلل، وجذوعه تستخدم في تغطية أسقف المنازل القديمة، وفي صنع مواد كثيرة، فلا تزال النخلة حتى الآن تشكّل أهمية كبيرة بالنسبة للإنسان في منطقة الخليج والوطن العربي، وهناك أشجار تنمو في التربة تلقائياً من دون تدّخل الإنسان، وهذه نجدها كثيراً في المساحات المفتوحة كالصحراء، وتتغذى عليها الحيوانات الصحراوية كالجمال، إضافة إلى أنها مصدر خير للإنسان الذي يوجد في الصحراء، وأيضاً النبات هو مصدر خير وغذاء للإنسان، أينما كان.

والتقينا الدكتور عمر عبدالعزيز، رئيس قسم البحوث والدراسات بدائرة الثقافة والإعلام بالشارقة، على هامش حضوره فعاليات الملتقى، وسألناه عن كيفية قراءته شعار ملتقى الراوي لهذا العام «حكايات النباتات»، فأجاب: هذا العنوان في تقديري الشخصي له أهمية بالغة جداً؛ لأننا نعرف الآداب التقليدية تاريخياً ما يسمى بأنسنة الحيوان، كما عند ابن المقفّع على سبيل المثال، لكننا هنا بصدد أنسنة النبات باعتبار النبات كائناً حياً، وفي الحقيقة هناك كثير من الشواهد التي تدل على معنى النبات المرتبط بالحياة العامة، ومعنى أن يكون النبات متفاعلاً مع الإنسان، فقد ثبت بالدليل القاطع أنّ النباتات تشعر باهتمام الإنسان، وتتماهى معه تماهياً إيجابياً في كثير من الحالات، وقد تقضي على نفسها إذا أُهملت من قبل الإنسان. وهذه الأشياء موجودة ومرصودة داخل علم الحياة النباتي، الشيء الثاني أنّ النباتات أكثرها اهتماماً بالطب البديل التاريخي، إن جاز التعبير، في الحقيقة حتى الطب العصري يستقي مفرداته الأولى من النباتات بنسبة عالية، طبعاً لذلك تبدو النباتات، وكأنها مبثوث فيها كل أسباب الحياة وكل أسباب المواجهة لمتاعب الحياة.

وأعتقد أنّ الاستدعاءات المرتبطة بعالم النباتات استدعاءات مهمة، وهي استدعاءات ذات طابع مركّب، ومن هذه الزاوية أقرأ هذا العنوان لملتقى الراوي.

النباتات في أغاني النساء في صعيد مصر

د. محمد شحاتة العمدة
كاتب - مصر

النباتات بكل أشكالها (زهور – خضراوات – فاكهة – نخيل) في المجتمعات الزراعية، لها مكانة خاصة جداً وكبيرة؛ لذا يحرصون على رعايتها والاهتمام والاحتفاء بها، فهي ليست مجرد نباتات تزرع وتحصد أو تقطف ثمارها وزهورها، بل هي حياة المزارع ومصدر رزقه ورزق أسرته، وهي المال الذي ينتظره لتجهيز عروس أو عريس أو لسداد دين. وبعض الأشجار تستخدم في بناء المنازل وصناعة الأثاث وبناء أحواش الطيور والماشية، وأعواد القطن والذرة الجافة تستخدم للتدفئة في الشتاء، وأعواد الذرة الشامية الجافة وتبن القمح تستخدم علفاً للماشية، وحبوب المحاصيل تستخدم في صناعة الخبز، وكعلف للطيور والماشية.

ومواسم الحصاد في صعيد مصر احتفالية بأشكالها كافة، تختلط فيها معظم أشكال التراث الشفهي من أمثال وحكايات وحكم وأغانٍ، بل تضاف إليها فنون الأداء مثل الرقص الشعبي والتحطيب والحكي الشعبي،

فيتجمع أفراد القرية رجالاً ونساء، ويشارك الجميع في موسم حصاد القمح أو جني القطن في الحقول، وتكثر السهرات التي تتخللها أشكال التراث الشعبي. والأغاني الشعبية تعد شكلاً من أشكال التراث الشفهي، يغنيها الرجال، وتغنيها السيدات في مناسبات مختلفة، منها العرس والوفاة والحج والميلاد والحقل وغيرها، وأكثر أشكال الغناء تميزاً في صعيد مصر، هو تلك الأغاني التي تغنيها النساء، لما تحمله من الحكمة وصدق المشاعر، سواء في الفرح أو الحزن. ولأن مجتمع الصعيد يعد الزراعة نشاطه الأساسي، فلا تخلو أغاني النساء من ذكر للنباتات التي تزرع في صعيد مصر. فنرى ذكرها في أغاني العديد (الحزن) وأغاني الأعراس أيضاً، وتستخدم لوصف الأحداث أو الأشخاص، وغالباً ما يكون وصف جميل لأشخاص طيبين أو صالحين؛ لأن للنباتات ولونها الأخضر عندهم دلالة على الخير. وتوجد المئات من الأغاني التي يأتي فيها ذكر النباتات، واخترت منها أمثلة بسيطة:

أولاً: النباتات في أغاني الحزن

اطّوحي يا نخلة البستان
فايتة عيالك على الجيران
اطّوحي يا نخلة الرهبة
فايتة عيالك على الغربة

في هذه البكائية تصف البنت أمها وهي محمولة على الأعناق في طريقها إلى القبر، وتصفها بنخلة تتمايل وسط بستان نخيل، أو نخلة وسط مكان تجمع العائلة، وتشبيه الأم بالنخلة يدل على الشموخ والعطاء والعمر الطويل، والنخلة في الصعيد وصف للإنسان الخيّر، لما في النخلة من فوائد كثيرة في الثمار، واستعمال جريدها في بعض الصناعات، بالإضافة إلى أنها مصدر للظل في أيام الصيف شديدة الحرارة بصعيد مصر.

بيتك يا أخويا قاسوه بالقصبة
قليل الخليفة ما ليه في الرهبة
بيتك يا أخويا قاسوه بالنبوت
قليل الخليفة ماليه حدانا بيوت

تقول الباكية: إن بيت أخيها آل إلى الورثة من إخوته، لعدم وجود أبناء له (قليل الخليفة)، ويقومون بتقسيمه بينهم (قاسوه بالقصبة - بالنبوت)، و(النبوت) هي عصا من الخيزران أو شجر السنط، يحملها الرجال لأغراض كثيرة مثل الحماية من الكلاب أو الشجار أو التحطيب. والقصبة هي جريدة نخل كاملة، تستخدم في قياس الأراضي الزراعية أو لقياس الحشائش التي تستخدم علفاً للماشية وهي على الأرض قبل قطفها.

أوعوا تقولوا أم الولاد ماتت
شجرة وظلّة لكل من فاتت
على شجرتى ياما جابولها المنشار
شجرة وظلّة وطارحة رمّان
على شجرتي ياما جابولها القدّوم
شجرة وظلة وطارحة لمون

تصف الباكية هنا الأم بالشجرة الطيبة التي تطرح الثمار (الرمان - الليمون) وأيضاً تظل على الجالسين والمارّين (ظلة)، وتصف الموت (بالمنشار أو بالفأس) الذي يجتث هذه الشجرة، ولا تصدق البنت أن أمها الحكيمة العاقلة (شيخة العرب) صاحبة الكلمة في المنزل، وفي العائلة رحلت.

عربيتك كرتت على البرسيم
وطوا النافور هيطلعوا العايقين
عربيتك كرتت على الرِبّه
وطوا النافور هيطلعوا العجبه

تصف الباكية هنا السيارة التي حضر فيها الميت في بلد غريب، بأنها تمشي فوق الأرض الزراعية وفوق البرسيم، و(كرتت) أي سارت بسرعة؛ لأن فيها رجلاً صالحاً، وتطلب من الرجال أن يخرجوا الميت منها ليدفن، وتطلب منهم أن يقوموا بإيقاف ماكينة المياه (وطوا النافور) التي تروي الزراعات؛ لأن صوتها مزعج والجنازة تتطلب الهدوء والسكينة.

جاعلة العربية واسقه لمون
وطوا النافور هيطلعوا الغندور
جاعلة العربية واسقه رمان
وطوا النافور هيطلعوا العجبان

تقول الباكية هنا إنها اعتقدت أن السيارة التي أحضرت الميت في بلد غريب، أنها سيارة تحمل بضاعة (ليمون – رمان)، وكأنها تتمنى ذلك، ولكنها فوجئت بزوجها المتوفى (هيطلعوا الغندور – العجبان).

طالعة والورد ف كمامك
ناس البلد والكل شاهدالك

قضية الطهارة والشرف والسمعة من أهم قضايا المجتمع الصعيدي، والتي بسببها قد تراق دماء لا نهاية لها، حتى في الموت لا ينسى العقل الصعيدي هذه القضية، فتؤكد البكائية التي نحن بصددّها على طهارة ونقاء سمعة الأم (الورد ف كمامك) وتشبه السمعة الطيبة بالورد الذي يزين الكفن، وهو آخر ما ترتديه الأم، ويشهد على ذلك جميع أهل القرية. والباكية هنا تتفاخر بسمعة الأم الطيبة وأصلها ونسبها.

أوعى تغني يا راكب الناقة
على اللي زرع زرعُه ولا ضاقه

اعتاد المزارعون في الصعيد عند جمع المحاصيل وحملها على الحمير والجمال القيام بالغناء بنوع خاص لذلك، هو (غناء الحقل)، ويشتهر الرجل الذي يحمل المحاصيل بالجمل (الجمَّال) بغناء هذا النوع من الأغاني، وتطلب منه الباكية هنا أن يكف عن الغناء؛ لأن زوجها الذي قام بزراعة المحصول، قد توفي قبل أن يدرك الحصاد ويأكل من المحصول، وتبين أن الميت ينتمي إلى مجتمع زراعي.

أزرعلك اللبلاب على دربي
لاجل المشقة وجيّتك عندي
أزرعلك اللبلاب على حيطي
لاجل المشقة وجيّتك بيتي

تقول الباكية إنها زرعت أعواد اللبلاب خصيصاً لوالدها، لكي يستظل تحتها أثناء جلوسه فوق (المصطبة) أمام منزلها، وهي تحرص على جلوس والدها خارج المنزل لتفتخر به أمام أهل زوجها، وليعلم الجميع أن لها أسرة وعائلة تسأل عنها. وأن شجرة اللبلاب الآن لا قيمة لها بعد وفاة من كان يجلس تحتها.

حتى حشيش الغيط دوّرناه
على دوى العيّان ما وجدناه

تقول الباكية إنهم بحثوا عند دواء لزوجها المريض (العيان) في كل مكان، وتقصد بـ(حشيش الغيط) الأعشاب الطبية وغيرها من الوصفات التي تستخدم للعلاج الشعبي في تلك المناطق، ولكنهم لم يجدوا له دواء حتى مات.

النار تاكل ف الحطب والتاث
وأزّي قلب الوالدة يا ناس؟
النار تاكل ف البروبيّه
وأزّي قلبك يا مربيّه؟

تقول الباكية إن النار تأكل في أثاث المنزل (الثاث) والحطب وأعواد القمح الجافة (البوروبيّة) وتشتعل بسرعة ولا تبقي شيء منها، فكيف يكون حال الأم التي فقدت طفلها؟ (أزي قلب الوالدة) وما كمية النار وشدّتها التي تشتعل في قلبها، وتشبه هنا قلب الأم بالحطب والقمح الجاف.

ثانياً: النباتات في أغاني الأعراس

من ميتى وأنت غايب
والرمان استوى

تتحدث الأغنية هنا عن العريس الذي كان مسافراً وبعيداً عن خطيبته، وتقول هنا: إن موسم جمع فاكهة الرمان قد اقترب، وإن خطيبته كَبرّت واستوى عودها، ويدللون على ذلك (الرمان استوى) ويقصدون ثدي الفتاة، وهذا يعكس تأثر الجماعة الشعبية بما يتميزون بزراعته من محاصيل وفاكهة، فالمنطقة التي تم جمع الأغاني منها هي مركز (البدراي) التابع لمحافظة أسيوط في صعيد مصر، وتعتبر هي الأولى في زراعة (الرمان) على مستوى الوطن العربي، وتُصَدّرُه أيضاً إلى جميع البلدان. كما أن لون ثمار الرمان الأحمر يدل على صفات الأنوثة لدى الفتاة مثل الخدود الحمراء والشفاه الحمر.

وشعور بت القاضي
شَبكوا ف النبقة
وطويل وطولك وافي
يا قصب ملوي

تتغزل الأغنية هنا في جمال شعر ابنة القاضي (المأذون) (شعور بت القاضي)، وتقول إنه طويل جداً لدرجة أنها عندما تسير يلتصق شعرها بالأشجار (شجرة النبق)، وهذا يعكس أهمية الشعر الطويل للفتاة كمظهر مهم من مظاهر الأنوثة وأسباب تفضيل الشباب لها.

وتصف أيضاً الفتاة بأن عودها طويل مثل قصب مدينة (ملوي) التابعة لمحافظة (المنيا)، التي تشتهر بزراعة (قصب السكر)، وهذا يدل على عبقرية الجماعة الشعبية في الصعيد وميولهم الأدبية والفنية والتي تُستلهَم من البيئة المحيطة بهم فيشبهون عودها الطويل بالقصب.

والبت حبت الفلاح
والفلاح حبها
ساب الطورية وراح لها
وغمزها بحُق السالمو
سالمو يا سالمو
والبت تحب السالمو

تتحدث الأغنية هنا أن العروس عشقت رجلاً مزارعاً وبادلها الحب أيضاً، لدرجة أنه ترك الفأس (الطورية) التي يعمل بها في الحقل، وذهب لمقابلتها والزواج منها.

بيضة بياض اللبن
وأحلى من الفله
وآدي كحلها
في عينها... زغردتله غنا

تصف الأغنية هنا جمال العروس وبياض بشرتها (باللبن وزهور الفل)، وهنا يتفاخر الأهل بجمال الفتاة وحسنها، أمام أهالي القرية.

ويا قمح السنة ديا
يا مايل ع الحيطان
البنات عايزه تتجوز
والقاضي راح لومان

يرتبط الزواج في المجتمعات الزراعية بموسم الحصاد، وتصف الأغنية هنا محصول القمح بأنه جيد في هذا الموسم، وهذا يبشر بزيجات كثيرة ستحدث بعد الحصاد، وتقول أيضاً إن القاضي (المأذون) الذي سيعقد قرانهن

قد سُجِن؛ ما يجعل البنات يُصَبنَ بالحزن والقلق؛ لأنهن لن يَجِدنَ من يعقد قرانهُن بعد موسم الحصاد، وهذه الأغنية تداعب الفتيات وتحضُهنَّ على الزواج، ما يعكس أهمية الزواج في صعيد مصر، وهو أساس حياتهم التي تعتمد على القبيلة وتكوين الأسر الممتدة كثيرة العدد، لزيادة قيمة العائلة وتقوية مركزها الاجتماعي بين العائلات الأخرى.

نقايل يا عنب
وأنا أشيلك على راسي
وأبيعك بالطلب
نقايل يا لمون
وآنا أشيلك على راسي
وأبيعك بالقانون
نقايل يا رمان
وآنا أشيلك على راسي
وآبيعك بالميزان

تصف هذه الأغنية جمال الفتيات في القرية، وأنهن كثر لدرجة أنهن يشبهن فسائل الفاكهة المتنوعة (نقايل يا عنب – يا رمان – يا لمون)، وأن مهرهن غالٍ لشدة جمالهن (أبيعك بالميزان – بالقانون – بالطلب)، وأن الأهل لا يفرطون فيهن إلا لمن هو كفء لهن، والأغنية نوع من الترويح لفتيات القرية حتى لا يلجأ الشباب للزواج من خارجها.

بحرى الترعة الكبيرة
بطيخة بعشرة
وقعدت أشقّق فيها
حزروني الغفرة

تتحدث هذه الأغنية عن علاقة الحب التي تجمع الشاب بفتاة تسكن في شمال الترعة الكبيرة، ويشبهها بالبطيخة للدلالة على جمالها، وأنه يحاول اللقاء بها

كل يوم، غير أن أهلها والخفر المكلفون حراسة القرية يكتشفون أمره ويضربونه، وهنا يشكي الشاب حاله ليرضى أهله وأهلها على زواجه من تلك الفتاة.

عدّيني يا معداوي
ودّيني المواطين
آكل بلح زغلولي واتفرج ع الحريم

الأغنية هنا على لسان الشاب الذي لم يجد في قريته فتاة جميلة تعجبه، فلجأ إلى قرى أخرى (المواطين)، يعتقد أن فيها فتيات جميلات يعجب بهن ويتزوجهن (أتفرج ع البنات). ويشبه جمال الفتيات في تلك القرى بالبلح الزغلول.

أم العريس تنادي
حنّولي ولدي
والحنة في الآيادي
كالبلح الجديد

تصف الأغنية هنا فرحة أم العريس بطقس الحناء، فهي تنادي من يقومون على هذا الطقس بسرعة وضع الحناء ونقشها على أيدي ولدها (حنولي ولدي)، وأن الحناء على الأيدي تشبه البلح الأحمر الجديد (كالبلح الجديد).

ثالثاً: النباتات في أغاني الحقل

قول يا زرع البداديل
قول دا ربّ قناديل

والبداديل هي أداة لرفع المياه من الترع للحقول، وتسمى (الطنبور)، والأغنية هنا تبشر المزارع بأن محصول الذرة الشامية والرفيعة أوشك على حصاده (ربى قناديل).

*جميع الصور والأغاني قام الباحث بجمعها ميداني من مركز البدراي.

النسجيات المرسمة

في التراث العربي

محمد صابر الكردي
باحث في التراث الشعبي - مصر

النسيج هو تقاطع خيوط طولية متجاورة، تسمى خيوط السداء مع خيوط اللحمة الأفقية، وهو غالباً منتظم، ويحدث نتيجة تكرار التقاطع المذكور في عدد من خيوط السداة واللحمة. للحصول على منسوج ذي متانة ومرونة تقل أو تزيد تبعاً لطبيعته والمنسوجات، هي مواد أولية أجري عليها عملية النسج لإحداث سلع أو منتجات تستخدم في أغراض الحياة المختلفة مثل أقمشة الملابس والستور والأبسطة والحصر والسجاجيد، وبعض أنواع نسيج السلك ونسيج الغرابيل وغير ذلك.

وكانت حاجة الإنسان إلى الطعام دافعاً لأن يتعلّم الصيد، فصنع الحبال، كما رقي بوسائل الصيد، فصنع الشباك مهتدياً بما شاهده من تشابك فروع وألياف النباتات، وعندما بدأ تخزين طعامه اهتدى لفكرة السلال التي استمدها من مشاهدته عش الطير وشباكه التي كان يستخدمها في قبض صيده.

وعندما استقر انتقل من الصيد إلى الحراث، ليهتم بالزراعة، وبدأ في النسيج الأكثر دقة ليبدأ في عمل أردية وأغطية له ولصغاره من أوبار الحيوانات وشعرها، إذ بدأ في تربيتها واستئناسها، ليتطور النسج، ويصبح عنواناً للمدنية والرقي.

أما أهم التقنيات النسيجية التي استخدمت على مر العصور، فهي تقنيات النسيج والتابستري والسجاد المنسوج والتطريز وتقنيات النسيج هي المستخدمة

خيوط الحرير

في إنتاج أنواع المنسوجات المختلفة، وتشمل العديد من التراكيب النسجية التي عرفت على مر العصور، وعن التراكيب النسجية فقد كان لها تطور مكاني وزماني، وهي بسيطة، ومنها (النسيج السادة)، الذي ظهر في العصر الحجري الحديث، ومنه الكليم ذو التقليمات البسيطة، الذي يعتبر المرحلة الأولى في تاريخ تطور منسوجاتها (النسيج المبردي - النسيج الأطلسي)، أما التراكيب المركبة فهي كالسداء واللحمة الزائدتين، الأقمشة المزدوجة القطيفة، البروكيد.

الخامات والشكل الفني

أولاً: القطن: الخامة، هي ما يصنع منها أجود أنواع الجلاليب ومناديل الرأس للسيدات، وعمائم الرجال وملابسهم الداخلية والفوط والطرح وغيرها من الملبوسات.

ثانياً: الكتان: وهو الخامة التي تستخدم من ألياف. الأول: يسمى فوبران وآخر يسمى فروي.

ثالثاً: الصوف: يستخدم في نسج الكليم والجويلان وال سجاد.

رابعاً: الحرير: ويعرف بأسماء مثل الحرير الطبيعي الجورجيت الماركيزيت الشيفون، وفيه ما هو أكثر ثخانة، وتصنع منه الثياب النسائية الفاخرة، ومنه بعض الأنواع اللامعة كالستان.

الأدوات والآلات المستخدمة:

المبشرة: وهي التي يصنعها البشار من الخشب أو الحديد بمساعدة حداد أو نجار.

المجراد: يقوم المشاط بتصنيعه عند الحداد، وهو عبارة

عن قطعة من الحديد، عرضها نحو 5 سم، وطولها نحو 25 سم مسنونة من الطرفين اللذين يتخذان شكل دائرة ناقصة، ويسمى سن المجراد، ويسنّ كل فترة.
المقصاف: هو عبارة عن قطعتين من الخشب، الأولى أقصر من الثانية، وفيها مسمار قلاووظ، بينما الثانية تثبّت عليها حديدة مسنونة بعرض المقصاف، وبها فتحة يمر بها مسمار.
القلم: وهو عبارة عن قطعة حديدية، عرضها 2 سم، وطولها 20 سم، لها سن مدبب عند أحد طرفيها، ويسمى سن القلم، ويتم قشط الزوائد به من بين فتحات بيبان المشط من الداخل ويسن أيضاً كل فترة.

الأدوات المستخدمة

الأدوات المساعدة في صناعة النسيج:

الميبر: هو عبارة عن إبرة خياطة كبيرة تخاط بها فردتا الشال، وهي من الأدوات المكملة لعملية النسيج.
الدراع: هو عبارة عن جريدة أو خشبة طولها نحو 66 سم، وهي وحدة قياس للنساجين.
الشكاكة: هي عبارة عن حديدة مبططة، ولها مقبض خشب، وأحياناً يلف على طرفها من القماش، تستخدم كيدٍ، وتستخدم للدخول بين فتحات المشط لتدفع الفتلة عند التمرير. المزيتة: هي عبارة عن إناء حديد أو صفيح مملوء بالزيت لتسهيل حركة النول.
الفرشاة: وتتكوّن من خشب وشعر، ويتم عن طريقها دهان المشط والجعزل والمطواة بالزيت.
المغزيل: وهو عبارة عن جزء أسطواني من الخشب أو الجريد، أعلاه جزء خشبي أو حجري، يسمى تقالة، على شكل هرم مثبت في أعلى قمة الهرم سلك صلب على شكل سنارة لغزل الصوف.
المحلة: وهي عبارة عن ثلاثة أجزاء خشبية مثبتة بمسامير، كل اثنان منها على واحدة بزواية قائمة من كل جهة على بعد نحو 5 سم من طرف الخشبة الوسطى التي يبلغ طولها 50 سم.
الكف: وهو عبارة عن جزء حديدي له مشط ذو خمس أسنان، وله مقبض من الخشب يمسك منه، ويقوم بالضغط على الصوف.
المقص: وهو نوعان الأول عادي أما الثاني فله يد

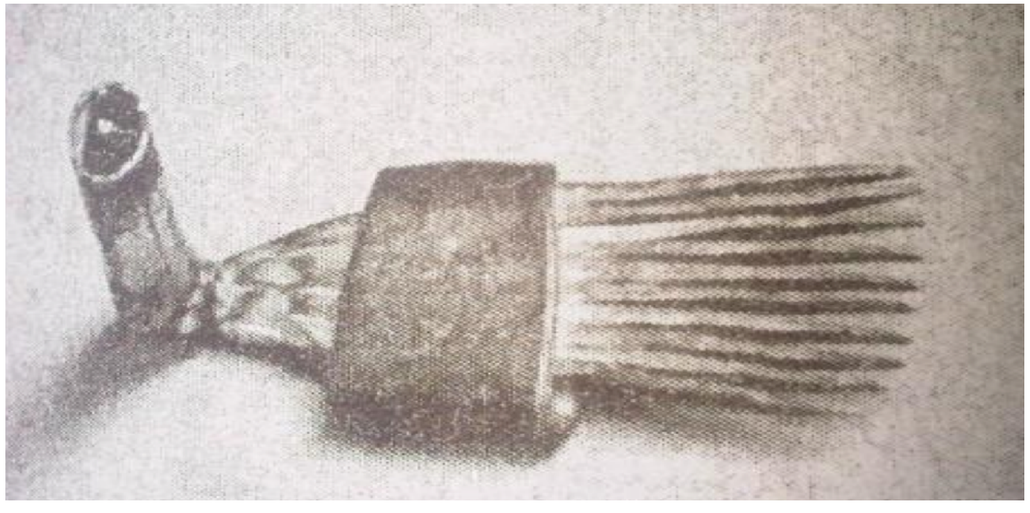

الكف

النول

مقلوبة، يكون شبه زاوية قائمة، ويقص به نهايات وبدايات اللحمة، وزوائد النسيج.
النول: هو إحدى الدعائم الأساسية لحرفة النسيج، وتتعدد تبعاً لنوع الخامة وجغرافية المكان محل الشغل، والهيئة النهائية المطلوبة، وتتكون عادة ورشة النسيج من نول واحد أو أكثر وتحدد المساحات المستخدمة بالورشة بعدد الأنوال المقامة بها، وأقلها يكون 4×3 أمتار.

أنواع الأنوال:

نول الحفرة أو البورة - النول العادي (من دون بورة) - النول المداد - نول دلاي - النول الطاقي - النول الزرزخان - النول الأطلس - نول شيلان القساوسة - النول الأرضي (نول النسيج البدوي) - نول السجاد.
سمات نسجيات اللحمة غير الممتدة
1. تنسج دائماً بطريقة النسيج السادة 1/1 والزخرفة، فيها تماثل بعضها تماماً في كل من سطحي المنسوج، مع اختفاء خيوط السدي اختفاء تماماً، بحيث لا يظهر لها أي أثر سوى تضليع بسيط على سطحه.
على النسيج السادة 1/1 كان أول التراكيب النسيجية التي استخدمت في صنع هذه الأقمشة، سواء ما عثر بجبانة عصر البداري في أواخر العصر الحجري الحديث، وإن كانت خشنة ساذجة النسج، ولكنها منتظمة النسيج بترتيب ونظام السادة 1/1 أو غيرها من العصور الأخرى.
2. التماسك المتبادل من أجزاء الزخرفة المستقيمة الرأسية الاتجاه، عند عدم استعمال التماسك المتبادل بين اللونين المتجاورين.
3. وجود ثقوب صغيرة عند حدود الزخرفة، قد تظهر واضحة عن تعريض النسيج للضوء، وذلك بسبب عدم امتداد اللحمة في عرض المنسوج، إذ ينتهي امتدادها عند حدود اللون، بحسب مكانه ومساحته من الزخرفة، وتوجد طرق عدة لعلاج الشقوق بين أجزاء الزخرفة المستقيمة.

عملية النسيج:

وفيها يدخل النساج داخل البورة، ويضع على الدواسات، وفي الحالة التي يكون عليها خيط اللحمة بعرض النسيج ذي اللون الواحد، يضع النساج ماسورة خيط اللحمة في المكوك الذي يقذفه من جهة،

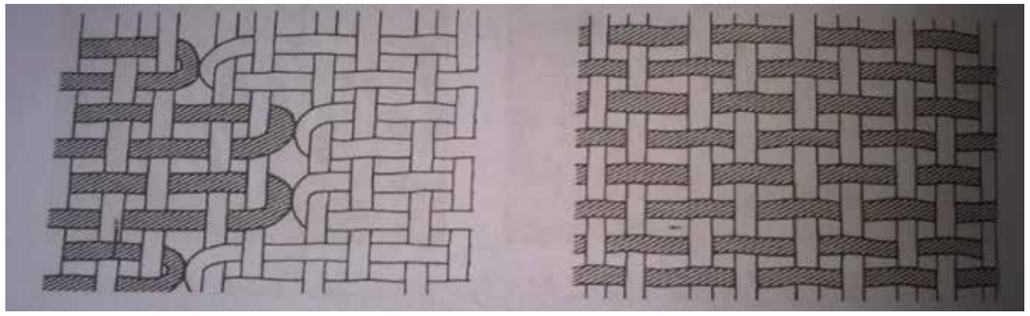

رسم تخطيطي يوضح حركة خيوط اللحمة مع السداة

عملية النسيج

ويتلقاه من الأخرى، ثم يضغط على الخيوط بالدف، وتسمى هذه العملية الدكة، ويبدل النساج وضع الدواسات، فيما يسمى (التبديل) أما في حالة خيوط اللحمة متعددة الألوان في الخط الواحد الأفقي، فإن النساج يستخدمها بيده خيوط السداء، الذي يستخدم المقبض أيضاً للضغط عليها، وبعد أكثر من صف، يستخدم الدف للضغط على النسيج كل نحو 35 سم، ثم يفك النساج السبلة، ويسمى تفريط بمقدار محدد، ويطوي المطوة مستخدماً

القلاب، وتسمى هذه العملية (طية)، ويشد غزل المدة جيداً، عن طريق طي المطواة مع عدم التفريط، ثم يقوم النساج بقياس طول النسيج عن طريق عدد الطيات على المطواة، وعندما يصل النسيج إلى الطول المطلوب يترك النساج نحو 35 سم أو 40 سم، من دون نسيج ثم يبدأ النسيج مرة أخرى نحو 3 سم أو 4 سم، ثم يفرط النساج من المطواة، ويعقد غزل المدة الجديدة كل مجموعة مع بعضها، ويدخل الفرق بينها، ويضعها في المطوة، ويشد المدة مرة أخرى.

النسيج: هو فن تعاشقات الخيوط على النول، ويتكوّن المنسوج من مجموعة طويلة يطلق عليها اسم السدي أو السداء، تتقاطع مع خيوط عريضة تعرف باسم اللحمة، وتقاطعاً منتظماً، ويختلف المنسوج في مظهره ونوعه تبعاً لاختلاف تقاطع الخيوط وتركيبها.

التركيب النسيجي

وعملية التقاطع تؤدي إلى اختفاء فريق من الخيوط السدة تحت إحدى اللحمات، وظهور الفريق الآخر في الوقت نفسه فوقها، وبالعكس في اللحمة التي تليها؛ لذا تنقسم خيوط السدة تبعاً لعمليتي الاختفاء والظهور إلى قسمين:

الأول: الخيوط الفردية.

والثاني: الخيوط الزوجية، وكل من الخيوط القسمين يظهر أو يختفي مع بعضه بعضاً، فإذا ما ظهرت الخيوط الفردية، أي ارتفعت أو انفصلت عن الخيوط الزوجية تكوّن من جراء ذلك فراغ، يسمى في عرف جماعة النساجين يسمح بمرور خيوط اللحمة داخلة، ثم تنعكس الحركة بعد ذلك، وتحل الخيوط الزوجية محل الخيوط الفردية، ويتكوّن آخر يسمح بمرور ثانٍ للحمة. ومن هاتين المختلفين تتم عملية التقاطع، وهذه العملية تنسج أبسط أنواع الأنسجة وأكثرها استعمالاً، وهو المسمى بالنسيج السادة، وتتنوع خامات الخيوط ما بين الكتان والقطن والحرير والصوف والخامات الصناعية.

الرمز في الفن الشعبي التشكيلي

للفنون الشعبية رموزها الدالة عليها المعبرة عنها عبر الزمن والتاريخ ولهذه الرموز أهميتها، ودلالتها في التعرف إلى تلك الفنون، فالرمز هو الإشارة الصحيحة التي توضح العصر والزمن الذي أنتج فيه الفن الشعبي، كما أنه مفتاح يمكن عن طريقه أن يبحث الباحثون تاريخ تلك الفنون، فإن للفنون الشعبية تاريخها وأصالتها، وتلك الأصالة المستمدة من بيئتها ومجتمعها، وبالتالي من حياة الشعوب وكفاحها، وتعتبر الحرف التقليدية صناعات صغيرة جداً، وذلك نتيجة لاعتمادها على عدد قليل من العمالة، ويكون غالباً المسؤول عن المكان هو (الصنايعي أو المعلم) أو الحرفي الماهر، وهو بذلك يشرف على مجموعة عمل لا تزيد على عشر أفراد، تعتمد على مهارة يدوية، أو تستخدم الآلات البسيطة غير معقدة، ويكون العمال من الأقارب والمحيطين، ويعتمد غالباً على مواد (خامة) متوافرة، ولا تمثل عبئاً عليه، حتى يصبح موفراً لخبرة الحرفي مع الخامة المحلية؛ ليخرج بأقل تكلفة للمنتج ليزيد هامش الربح.

ويظهر هنا إمكانات العمل في المنزل مع الحرف، حيث لا تحتاج متسعاً أو العمل في وقت بعينه، مما لا يتعارض مع الحياة اليومية واحتياجاتها، ولا يكون العمل داخل مصنع بالمعنى الحديث، بل إنه يعتمد على المنزل أو زواياه أو الورش الصغيرة أو الدكاكين الصغيرة.

إن الصناعات اليدوية تعتمد على المنزل داخل الريف، وعلى خامات البيئة، وعلى مهارة حرفي يعتمد على تقنيات يلم بها، وقد يستخدم البعض الآلات البسيطة. لقد امتازت مصر بحق على غيرها من الأقطار، حيث احتفظت في جوفها بكمية كبيرة من الأقمشة التي نُسجت في العصور المختلفة، تبين درجات التطور في زخرفة المنسوجات وتمكن الباحث من تتبع الذوق الفني عبر العصور. الحق إن ما أنتجته أنوال مصر من شتى المنسوجات في العصور المختلفة؛ ليثير الافتخار والتباهي، فقد صنع الإنسان المصري الخيوط من الكتان والصوف والحرير والقطن وغيرها، ومن تلك الخيوط نسج ما احتاج إليه من منسوجات، فكانت صناعة النسيج من أقدم الصناعات التي نشأت معه ولازمت تدرجه في ركب الحضارة، حيث عمل على أن تكون إلى جانب منفعتها المادية أثراً فنياً يشعره بالجمال، ففطن إلى زخرفتها ليصبح النسيج فنون ملونة على مرّ العصور.

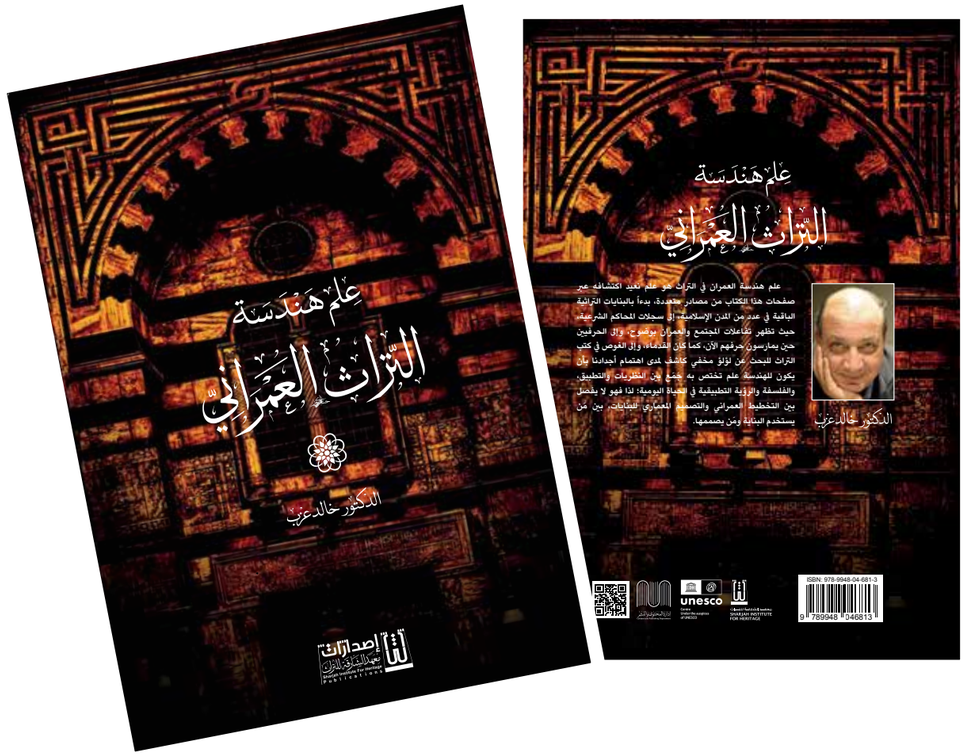

علم هندسة التراث العمراني

سارة إبراهيم
كاتبة - مراود

في كتابه «علم هندسة التراث العمراني» يطوف بنا الكاتب الدكتور خالد عزب، في رحاب تاريخ العمارة الإسلامية؛ ليقدم لنا أسرارها وتفاصيل بنائها التي تدهشنا في كل مرة تقع أعيننا عليها، ففي أربعة فصول يعيد اكتشاف تلك العمارة، ويضعنا في حالة مقارنة بين الماضي والحاضر.

كتاب رغم تخصصه إلا أنه متعة لكل قارئ يود أن يعرف حكاية العمران.

ينوّه الكاتب في مقدمة كتابه بأن الكتاب يعد إعادة اكتشاف هندسة العمران في التراث، التي استند فيها إلى مصادر عدة، من بينها البنايات التراثية المتبقية في عدد من المدن الإسلامية، سجلات المحاكم الشرعية، حيث تظهر تفاعلات المجتمع والعمران بوضوح، وإلى الحرفيين حين يمارسون حرفهم الآن، كما كان القدماء، والغوص في كتب التراث للبحث عن لؤلؤ مخفي.

يطوف الكاتب في أربعة فصول، هي: الهندسة المعمارية.. الإبداع والعلم، مواد البناء واستخداماتها، العناصر المعمارية والزخرفية، هندسة المياه في الحضارة الإسلامية، ويختتمها بإضاءة على الهندسة من الماضي إلى الحاضر. وينوه الكاتب بأن الهندسة المعمارية في الحضارة الإسلامية مدخلاً جيداً لفهم مركب للعمارة في الحضارة الإسلامية، قسَّم العلماء العرب المسلمون الهندسة إلى قسمين؛ ظلا يتداولان على هذا النحو طيلةَ الحضارة الإسلامية، هما:

- الهندسة العقلية: وهي التي تعرف وتفهم، أو هي التي تسمى الهندسة النظرية، وتدخل في نطاق العلم الرياضي، وتعرف كما يلي: «علم يعرف منه أحوال المقادير».

- الهندسة الحسية أو المادية أو العملية: وهي التي ترى بالعين وتدرك باللمس، ويفاد منها عمليّاً؛ أي الهندسة التطبيقية، وتضم صناعة البناء، وعمارة المساكن والمساجد والمرافق وشق القنوات، وما إلى ذلك من أعمال التعمير.

كان للمهندس دورٌ مميز في العمارة الإسلامية، وقد ظل هذا الدور مجهولاً لعدم إدراك الباحثين طبيعته والافتراض المبدئي لتشابهه مع دور المهندس في العصر الحالي، وعرّف ابن خلدون المهندس المعماري، حيث كان يعمل في الوقت ذاته مهندساً إنشائيّاً، فيقول: الهندسة، هي علم المباني وبنائها واختلافها والأراضي ومساحتها، وشق الأنهار وتنقية القنوات وإقامة الجسور وغير ذلك، ويطلق على المهندس المعمار أو البنَّاء. ويعرّفه القلقشندي بأنه: الذي يتولى ترتيب العمائر وتقديرها، ويحكم على أرباب صناعتها. فقد أطلق على المهندس الذي يعمل في المجال التطبيقي «معمار»، وقد ذكر هذا اللقب على نقوش الآثار الإسلامية بدلالتين؛ إحداهما تطلق على المهندس أو البناء، والأخرى على من يتولى الإشراف على العمارة. وبحسب الكاتب فإنه يجب التفريق بين المهندس المعماري Architect، الذي يصمم المباني ويخططها، وشاد العمائر Master Builder، الذي يتولى الإشراف على تنفيذ المشروعات المعمارية، وهي التفرقة الوظيفية التي ظهرت بوضوح خلال العصر المملوكي في مصر.

ويعرج الكاتب على مصطلح معمارباشي، وهو المسؤول عن جميع أعمال البناء والتشييد، وأنه حين يكلف من قبل الدولة بالإشراف على التشييد آنذاك، فإنه كان يتعامل مع شيوخ الطوائف الأخرى مباشرةً، ويطلب منهم عدداً معيناً من العمال، وكان الشيوخ يذعنون لرغبته ويلبون طلبه، ويضعون العمال تحت تصرفه، وكان بيت المال يقدم للمعمارباشي المال اللازم لذلك، فيقوم هو بدفع الأجور للعمال أو لشيوخهم، ويقوم المعمار بعمل كشف حساب ختامي بعد إتمام البناء، وهو ما كان متبعاً في الأندلس في المشروعات المعمارية، من هيمنة شيخ العرفاء على طوائف البنائين وتنظيمه عملهم، على نحو ما يذكر ابن صاحب الصلاة حول بناء جامع إشبيلية وصومعته: «وفي هذه السنة - أي سنة 567هـ - في شهر رمضان ابتدأ أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين باختطاط موضع هذا الجامع، وأحضر على ذلك شيخ العرفاء أحمد بن باسة ومعه عرفاء البنائين من أهل حضرة مراكش ومدينة فاس وأهل العدوة، فاجتمع بإشبيلية منهم من أصناف النجارين والنشارين والفعلة لأصناف البناء أعداد من كل صنف، صناع مهرة من كل الأصناف».

حرف عمرانية

ومن أبرز الحرف التي كانت متصلة بالعمران، البنَّاؤون هو اسم لمن يحترف مهنة البناء، سواء بالحجر أو الطوب أو بغيرهما، وقد يمتد عمل البناء إلى نحت الأحجار وحفرها، وزخرفة الجدران والسقوف وكسوتها بالقاشاني، وربما إلى الهندسة المعمارية أيضاً، أما النحاتون فهم من يقومون بنحت الحجر وصقله وتشكيله بعد قطعه من المحجر بوساطة الحجارين، وأيضاً تنفيذ الزخارف والكتابات على الأحجار بطريقة الحفر والنحت، والمرخمون يستخدمون الرخام في

أرضيـة المنشـآت المعماريـة، دينيـة كانـت أو مدنيـة، وفي تأزيـر جدرانهـا، وزخرفـة محاريبهـا، أو يقـوم بعمـل التراكيـب الرخاميـة للمدافـن وينقـش زخارفهـا، كـما يقـوم بنقـش الكتابـات، والدهّانـون مـن يقـوم بدهـان أو طـلاء الجـدران والأسـقف والأبواب والشبابيك بالأصباغ المختلفة، والرسـومات والزخـارف النباتيـة والهندسـية والمناظـر الطبيعيـة المنفـذة عـلى الجـدران والأخشـاب وغيرهـا، كـما هنالـك المبيضـون الذيـن يكسـون الجـدران بالجـير أو الجبـس، والنجـارون المختصـون بمعالجـة قطـع الخشـب ونحتهـا وحفرهـا وتركيبهـا، والرقاصـون الذيـن يتولـون خلـط الطـين بالمـاء ليسـتخدم كمـادة لاصقـة «مونـة» في عمليـة البنـاء، كـما هنالـك الفعلـة، السـباكون، الحجـارون، المبلطـون، الجيـارون، الجباصـون، وغيرهـم.

مواد البناء

وكان البنـاء يتـم بعنـاصر مختلفـة أهمهـا البنـاء بالحجـارة المنحوتـة، والبنـاء باللـبن وهـو الـتراب المجبـول بالمـاء، والبنـاء بالـتراب أو الرمـل مخلوطـاً بالكلـس، ولعـل أهـم مـواد البنـاء آنـذاك واسـتخداماتها بحسـب الكتـاب هـي الأحجـار، تقطـع الأحجـار مـن الجبـال، بآلـة معلومـة مـن حديـد، طولهـا قـدر قامـة أو أكـثر، أحـد طرفيهـا مـبروم، والآخـر مبسـوط، وأهـم أنـواع الحجـارة، الحجـر الجـيري، الحجـر الرمـلي، الحجـر الكـدان، الحجـر الصـوان، الحجـر الأحمـر، الحجـر المشـهر، وقـد عـرف أسـلوب التعاقـب بـين مـواد البنـاء في العـصر البيزنطـي، ولكـن كان تناوبـاً بـين الحجـر والآجـر، وهـو أسـلوب عـرف كذلـك في عقـود المسـجد الجامـع في قرطبـة 170هـ/786م، أمـا اسـتخدام الحجـر المشـهر للمـرة الأولى في العـمارة الإسـلامية فجـاء في مسـجد الزيتونـة في تونـس 114-250هـ/732-864م، حيـث اتبـع في أسـلوب البنـاء تنـاوب الألـوان في سـنج حجريـة بيضـاء مـع قاتمـة اللـون. واسـتخدم الحجـر المشـهر كحليـة معماريـة زمـن دولـة المماليـك البحريـة في مـصر، في أثنـاء حكـم السـلطان الظاهـر بيـبرس، حيـث ظهـر في مدرسـته بالنحاسـين، كـما اسـتخدمه في مسـجده بميـدان الظاهـر، وهـو أقـدم مثـل بـاقٍ في مـصر. وتعـد الكوابيـل مـن العنـاصر المعماريـة التـي ظهـرت في العديـد مـن المنشـآت الإسـلامية المبكـرة، ومنهـا قـصر الحـير الشرقـي ببـلاد الشـام، والكابـولي إمـا أن يكـون مـن حجـر أو خشـب، وأحيانـاً قليلـة مـن الرخـام، ويركـز في الجـدار ليحمـل مـا فوقـه مـن عنـاصر معماريـة مختلفـة. تعـددت اسـتعمالات الكوابيـل في أجـزاء العـمارة المختلفة لتـؤدي وظائـف إنشـائية متعـددة، وأحيانـاً يكـون لهـا دور زخـرفي فقـط، وقـد كان اسـتخدام الرخـام في زخرفـة العمائـر ولا يـزال يُعـدُّ دليـلاً عـلى الـثراء، وبالتـالي عـلى عظـم قـدر صاحـب المنشـأة، نظـراً لمـا هـو معـروف عـن نـدرة الرخـام وارتفـاع سـعره الكبـير، فقـد وجـد المماليـك في كـثرة اسـتخدامه فرصـة لإظهـار ثرائهـم، وعظـم مكانتهـم في المجتمـع؛ ولهـذا لم يقتـصر اسـتخدامه عـلى المحاريـب فقـط، وإنمـا أكـثروا مـن اسـتخدامه في زخرفـة أجـزاء أخـرى مثـل المداخـل والأرضيـات، والـوزرات، وفي عمـل المنابـر، ودكك المبلغـين، بالإضافـة إلى تراكيـب القبـور وشـواهدها، فضـلاً عـن التحـف المنقولـة التـي كانـت تسـتخدم في هـذه العمائـر مـن أزيـار وكلـج وغيرهـا، وهنـاك دلائـل كثـيرة عـلى هـذه الأهميـة الخاصـة للرخـام كأحـد مظاهـر الـترف في العـصر المملـوكي، وكان الرخـام إحـدى المـواد النفيسـة التـي يحـرص الأمـراء عـلى إهدائهـا لبعضهـم في مناسـبة إنشـاء أحدهـم منشـأة جديـدة، مثلـما حـدث عندمـا شرع الأمـير صرغتمـش في بنـاء قـصره واصطبلـه، وعندمـا أنشـأ الأمـير طـاز قـصره.

وتعـد الزخـارف الجصيـة ميـزة العـمارة الأيوبيـة والمملوكيـة، فكانـت امتـداداً لتقاليـد وأسـاليب زخرفـة الجـص الفاطميـة في العـصر الأيـوبي، وزاد عليهـا الدقـة والتعقيـد الشـديد، خاصـة الزخـارف الهندسـية والنباتيـة، كـما تمتـاز قاعـة الأختـين بـأروع النقـوش الجصيـة في قصـور الحمـراء في غرناطـة.

كـما أن الأخشـاب هـي واحـدة مـن أبـرز عنـاصر البنـاء آنـذاك، وهـي مـادة ليفيـة صلبـة مضغوطـة، تؤخـذ مـن الأشـجار وتتكـون مـن مجموعـة مـن أنسـجة مـن خلايـا مختلفـة العنـاصر من الكربـون والهيدروجين والأكسـجين والسـليلوز واللجنـين (هـو السـبب الأصـلي في تصلـب الأخشـاب)، في صـورة أليـاف وأوعيـة يمكـن عـن طريقهـا التمييـز بـين خلايـا الأخشـاب الصلبـة واللينـة، وأبـرز الأخشـاب خشـب الأرز والجـوز، وقـد ورث المسـلمون عـن الفـن الهلنسـتي الحفـر العميـق عـلى الأخشـاب، وابتكـروا توازيـاً معهـا الحفـر المائـل أو المشـطوف الـذي ظهـر بصـورة خاصـة في مدينـة سـامراء في العـصر العبـاسي، وبالتبعيـة في العـصر الطولـوني بمـصر، غـير أن هـذه الطريقـة لم تسـتمر طويـلاً، إذ سرعـان مـا عـاد الحرفيـون إلى الحفـر العميـق مـرة أخـرى، فأبدعـوا وأضافـوا الكثـير إليـه، حتـى رأينـا في عـصر الدولـة الفاطميـة بمـصر الزخـارف الآدميـة والحيوانيـة تندمـج مـع أسـلوب سـامراء الزخـرفي في حيويـة غـير مسـبوقة تجمـع مـا بـين الزخـارف التجريديـة والزخـارف الصريحـة، لتظهـر لنـا موضوعـات تصويريـة محفـورة عـلى مسـتويات عـدة مـن الخشـب، حتـى وصلـت إلى أسـلوب فاطمـي خالـص امتـاز بعمـق كبـير في الحفـر، وبدقـة متناهيـة في تفاصيـل عنـاصره الزخرفيـة وفي العصريـن الأيـوبي والمملـوكي خلـت الزخـارف مـن الرسـوم الآدميـة والحيوانيـة، وأصبحـت أدق صنعـاً، ومـن بـين مهـارات الخشـب التجميـع والتعشـيق والتطعيـم والترصيـع، التلويـن، التذهيـب.

ويذكـر الكاتـب في الفصـل الثالـث العنـاصر المعماريـة والزخرفيـة، أبرزهـا الأعمـدة واسـتخدام الأخشـاب في صنع الأعمـدة، وأقـدم مثـل لذلـك في مجـال العمـارة الإسـلامية مسـجد الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، بالمدينـة، فلـما لم تكـن للمسـجد ظلـة، أمـر الرسـول أن تقام ظلة عنـد جدار القبلـة، وجعلـت مـن عـوارض مرتكـزة عـلى جـذوع النخـل. ومـن الناحيـة الوظيفيـة العمـود هـو الدعامـة الأساسـية التـي يرتكـز عليهـا سـقف المبنى، وقـد اسـتخدمه المعمـار في المسـاجد، وذلـك في تقسـيم الأروقـة والإيوانـات إلى بوائـك. وتعتـبر العقـود بشـتى أنواعهـا مـن أهـم العنـاصر الإنشـائية التـي اسـتخدمها المعـمار المملـوكي. والقبـو مـا هـو إلا بنـاء معقـود، واسـتعمل للتسـقيف أو لتغطيـة الدهاليـز والطرقـات الطويلـة، أو بمعنـى آخـر عقـود مسـتمرة مربوطـة ببعضهـا برباطـات بالمبـاني، ولكننـا نجـد أن عيـب هـذه القبـوات هـو عـدم إمكان فتـح النوافـذ في مسـتوى مرتفـع. والمدخـل هـو الطريـق المـؤدي إلى أي مبنـى، وقـد كانـت مداخـل العمائـر مـن أبـرز العنـاصر التـي ظهـرت بهـا مقـدرة البَنَّـاءِ المسـلم وعبقريتـه في التوفيـق بـين الشـكل والوظيفـة، كانـت المداخـل في بدايـة العـصر الإسـلامي عبـارة عـن فتحـة عاديـة في الجـدار، كـما رأينـا في مسـجد الرسـول بالمدينـة. ويعتـبر الصحـن عنـصر مهـم في العـمارة الإسـلامية، سـواء كانـت مسـاجد أو مـدارس أو منـازل أو وكالات، وكان يتوسـط المنشـأة، وفي العـصر الأيـوبي عندمـا كانـت تتكـون المدرسـة مـن صحـن وإيوانـين، كـما في المدرسـة الكامليـة، وفي المدرسـة الصالحيـة أصبحـت الخـلاوي عـلى الجانبـين، وفي العـصر البحـري عندمـا أصبحـت المدرسـة تتكـون مـن صحـن وأربعـة إيوانـات، كان يفتـح في زوايـا الصحـن أبـواب تـؤدي إلى خـلاوي الدارسـين في أركان المنشـأة، كـما في مدرسـة السـلطان حسـن.

أعلام المهندسين

يقـدم الكاتـب نبـذة وافيـة عـن أهـم المهندسـين الذيـن وصـل صيتهـم ليومنـا الحـاضر، ولعـل أبرزهـم ممن عاشـوا في العصـور المتأخـرة، والمهندسـون الذيـن وصلـت لنـا ترجماتهـم معظمهـم مـن مهنـدسي السـلطة الذيـن شـيدوا منشـآت للسـلاطين والملـوك والأمـراء، وهـذا لا يعنـي أنهـم لم يشـيدوا منشـآت للعامـة، بـل شـيدوا منشـآت لهـم، ولكـن في بعـض الأحيـان كان بعضهـم موظفـين لـدى الدولـة، كـما حـدث في عـصر النـاصر محمـد بـن قـلاوون الـذي خصـص ديوانـاً للأبنيـة، وفي العـصر العثمـاني الـذي كان للمعماريـين الرسـميين ديـوان خـاص بهـم يترأسـه معمارباشـي. وصلنـا كذلـك أسـماء عـدد لا حـصر لـه مـن المعماريـين الذيـن شـيدوا منشـآت للعامـة، وذلـك مـن خـلال الوثائـق الوقفيـة وسـجلات المحاكـم الشرعيـة. واشـتهر بعـض المعماريـين بسـبب قيامهـم بتشـييد منشـآت مميـزة، ومنهـم - عـلى سـبيل المثـال - مهنـدس الجسـور أبـو بكـر بـن البصيصي، ومهنـدس ميناء عـكا أبـو بكـر المقدسي البنـا، ومـن بـين أبـرز المهندسـين ابـن غنائـم المهنـدس الـذي مـازال اسـمه إلى الآن محفـوراً في المدرسـة الظاهريـة في دمشـق، وذكـر ابـن طولـون الصالحـي قـصراً بنـاه ابـن غنائـم للظاهـر بيـبرس بمرجـة دمشـق. أمـا أسرة الطولـوني فهـي مـن أشـهر الأسر التـي ورث أبناؤهـا مهنـة العـمارة، التـي اشـتهرت في العـصر المملـوكي، وظلـت تعمـل في مـصر، ويعـد المهنـدس السـجيني ممـن اشـتغلوا بعلـوم كثـيرة وبـرع في الحسـاب والمسـاحة والهندسـة والميقـات، وتظهـر عبقريـة المعـماري سـنان مـن خـلال ثلاثـة آثـار عظيمـة بتركيـا، هـي مسـجد شـهزادة، ومسـجد السـليمانية بإسـطنبول، والسـليمية بأدرنـة، وأثـيرت الأقـوال حـول ميـلاد المعـماري سـنان، وأصلـه، فقيـل إنـه تـركي، وقيـل يونـاني.

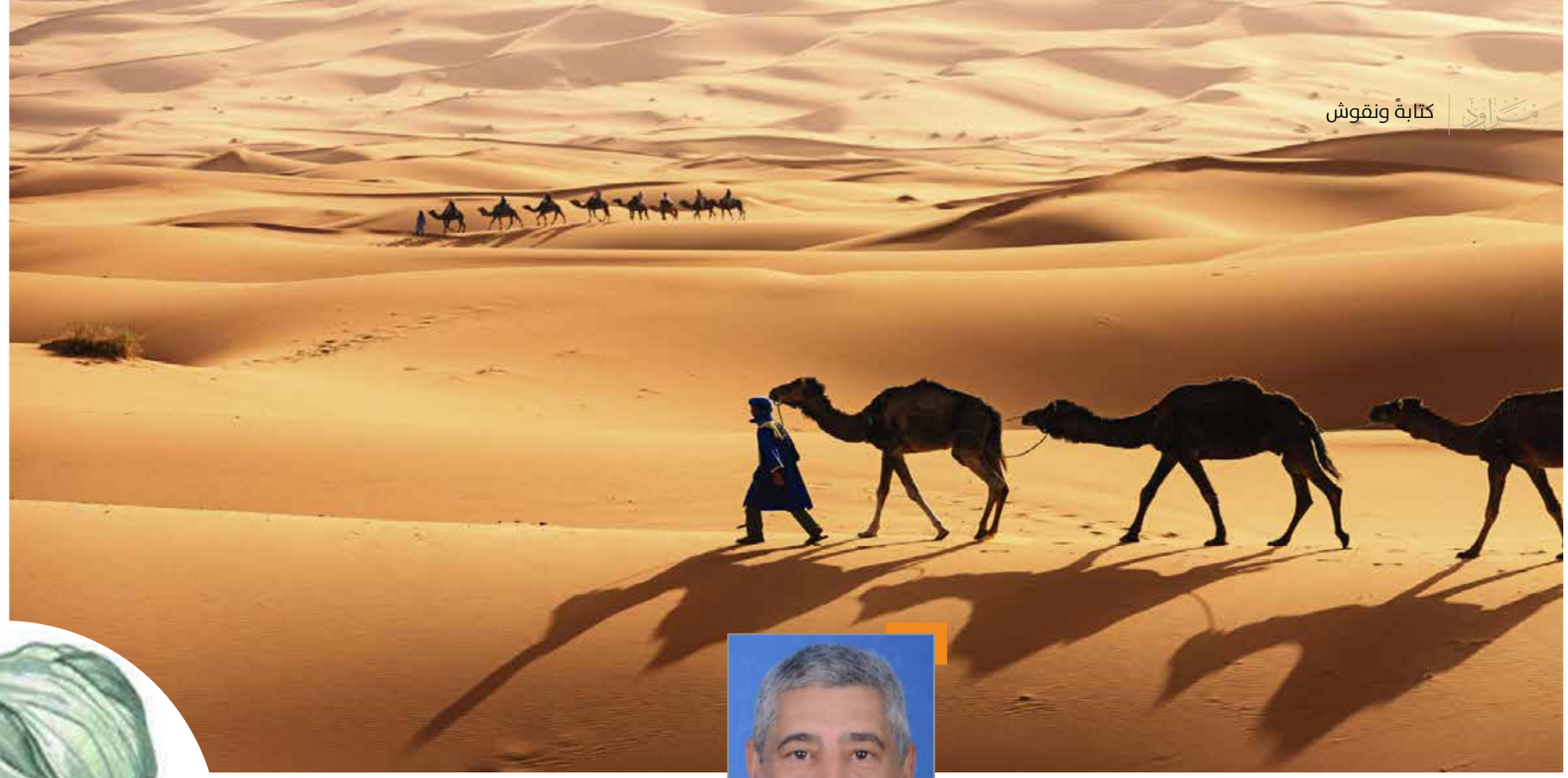

الصحراء الأطلنتية

طبيعة الفاصل والواصل فيما بين بلاد المغرب وبلاد التكرور خلال العصر الوسيط

د. أحمد الشكري
كاتب –المغرب

تشهد النقوش الصخرية المتناثرة في أجزاء مختلفة من الصحراء أن العلاقات المغربية التكرورية (= السودانية) موغلة في القدم، وحسبما يستفاد من الشهادات المصدرية العربية المدونة خلال القرنين الثاني والثالث من الهجرة (8-9م)، يظهر أن العلاقات ما بين ضفتي الصحراء عرفت تطورات مهمة خلال القرون الميلادية الأولى، خاصة بعد انتشار استعمال الجمل بها إبان القرن الـ3م، ما زاد في وتيرة التواصل والتثاقف بين شعوب وقبائل المنطقة، التي ستحمل لاحقاً اسم الغرب الإسلامي.

وتفصح معظم الشهادات المصدرية عن انتشار الدعوة الإسلامية في كل أرجاء إفريقيا الشمالية عند نهاية القرن 2هـ/8م، من مصر إلى المغرب الأقصى، وإذا ما تركنا جانباً قصة فتح الأندلس عام 92هـ/711م، يمكننا التأكيد ـ بناء على رواية ابن خلدون ـ على أن الدعوة الإسلامية شملت مختلف أرجاء الصحراء الأطلنتية إبان القرن الثالث الهجري (9م)، ثم سرعان ما أخذت التأثيرات الإسلامية تتدفق نحو الجنوب، لتشمل بلاد التكرور خلال القرن الموالي، فظهرت بالمنطقة مجموعة من الإمارات الإسلامية عند ملتقى القرنين 4-5هـ/10 و11م.

وتجب الإشارة في هذا الجانب، أن المجال الصحراوي خلال القرون الثلاثة الأخيرة من الألف الأولى من التاريخ الميلادي، عرف دينامية بشرية واقتصادية وثقافية مثيرة للغاية؛ الشيء الذي أهّله ـ على الرغم من قحولته وعدوانيته ـ لأن يلعب دوراً بالغ الحيوية في تاريخ المنطقة؛ لا يقل في شيء عن دور البحر الأبيض المتوسط بالصيغة التي قدمها لنا المؤرخ الفرنسي فيرناند بروديل (F. Braudel) في كتابه المشهور. وما له دلالة بهذا الخصوص، أن الصحراء احتكرت محاور أو مسالك تجارة أهم السلع المتبادلة في العالم القديم: الذهب والرقيق، قبل اكتشاف الهند الغربية (=أمريكا عام 1492م). كما احتضنت مناجم الملح المعدني، الذي كان يقايض إنتاجه وزناً بوزن إلى غاية القرن الـ10م، بإنتاج مناجم الذهب التكرورية؛ وظل الملح الصحراوي يحتفظ بقيمة قصوى في المبادلات التجارية العابرة للصحراء إلى غاية القرن الـ19م.

كيف عملت الصحراء على التقريب ما بين الشعوب والقبائل المنتشرة على ضفتيها، وكيف يمكننا قياس مبلغ حيويتها؟ وما قيمة العوامل المناخية والاقتصادية والثقافية التي أسهمت في تذليل صعوبات التواصل؟ وهل كان للاعتبار السياسي ـ وقتئذٍ ـ إضافة في هذا المجال؟

تؤكد شهادات الرحّالة والجغرافيين العرب من ابن حوقل (10م) إلى الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي (16م) على مدى حيوية ونشاط المجال الصحراوي في عملية التواصل ــ على جميع المستويات ـ ما بين بلاد المغرب وبلاد التكرور خلال العصر الوسيط. كما أنها تحيلنا على أهمية دور القبائل الصحراوية من صناهجة وزناتة في خفارة القوافل وتأمين المسالك ونقاط الماء وغير ذلك مما يرتبط بتنظيم التجارة القافلية العابرة للصحراء.

وتكفي الإشارة هنا إلى أن الصحراء باعتبارها النافذة الأساسية ـ إن لم نقل الوحيدة ـ هي التي مكّنت أهل التكرور من الاتصال بالعالم الخارجي وحضارات البحر الأبيض المتوسط، وبذلك تمكن التكروريون من فك عزلتهم الخانقة، التي فرضتها عليهم الطبيعة (الصحراء والمحيط الأطلسي) طيلة عهود طويلة.

وباعتبار هذه المعطيات التي تفصح عنها الشهادات المصدرية العربية على اختلاف أنواعها وأصنافها،

اندفع كثير من الباحثين العرب والعجم على السواء في عملية تقييم مبالغ فيها لدور الصحراء في العلاقات بين ضفتيها، وكأن الأمر يتعلق بمجال سهل، بالمعنى اللغوي والجغرافي للمصطلح.

والحالة هذه، وبما أن ارتياد الصحراء في نظر هؤلاء كان عملاً جارياً وعادياً، ولم يعرقل بأي شكل علاقات الدول والممالك الواقعة على أطرافها، فإن القول بفشل تجربة الإسلام ببلاد التكرور أو الكلام عن تجارة العبيد بالأرقام التي يطرحها أبرز الباحثين في حقل الدراسات الإفريقية (شأن ريموند موني ومن أخذ عنه)، لابد أن تجد لدينا اعتباراً وتقديراً تصعب مقاومته. والمؤسف في الأمر، أن مثل هذه الأطروحات وغيرها كثير في الحقل المعني، تصدر عن باحثين مشهود لهم بحنكتهم وتجربتهم الطويلة في هذا المجال؛ تبعاً لذلك، تجد استنتاجاتهم وتصوراتهم رواجاً وشيوعاً كبيرين في الدراسات المتأخرة! وبالعودة إلى المادة المصدرية المتوافرة عن الموضوع، يتضح لنا أن أمر اجتياز الصحراء لم يكن بهذه السهولة التي تعكسها تلك الاستنتاجات والتصورات المتهافتة؛ وأن ارتيادها وركوب مخاطرها، كان يتطلب مجاهدة ومكافحة عظيمة.

وقد كان ابن حوقل من أوائل الجغرافيين العرب الذين كافحوا جزءاً من هذا الطريق الصحراوي في منتصف القرن العاشر للميلاد، وخلّف لنا وصفاً مهماً له، كثيراً ما تردد في المصادر اللاحقة. وكل الإشارات الواردة عنده، تشير إلى الصعوبات الشديدة التي يعانيها المسافر أثناء رحلته فيما بين ضفتي الصحراء. وعلى هدي ابن حوقل، يسجل لنا ابن بطوطة بعض ذكرياته عن الطريق الصحراوي الذي أخذه من سجلماسة إلى عاصمة مملكة مالي نحو عام 1352م، فكانت الفرصة سانحة لتوظيف النبرة نفسها المومأ إليها أعلاه؛ وذات الأمر يتكرر في أوصاف ليون الإفريقي مطلع القرن الـ16م، عندما أخذ يتحدث عن صحراء صنهاجة. وحينما نقف على مثل هذه الشهادات ـ وغيرها كثير ـ ونضعها نصب أعيننا، سوف نتريث كثيراً، وكثيراً جداً، قبل أن نطلق العنان لاستنتاجات تقديرية حول كمية السلع الواردة والصادرة فيما بين ضفتي الصحراء وعدد العبيد المجلوبين من بلاد التكرور، وسنلزم كثير من الحذر والحيطة، قبل أن نعلن فشل الإسلام في احتواء الذهنية التكرورية، وغير ذلك من الاستنتاجات التقديرية السطحية والمتهافتة.

إن الفرد في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، سواء كان تاجراً أو فقيهاً أو مسافراً عادياً، كان يفكر ألف مرة قبل أن يقرر اجتياز الصحراء؛ وما أن يتخذ القرار، يتهيأ للسفر طيلة أشهر عدة حتى يتسنى له اتخاذ جميع الاحتياطات اللازمة لسفره، شراء الإبل وترويضها على العطش، توفير المال اللازم لقضاء الحاجات الخاصة، ولدليل القافلة، ولشراء الماء في الصحراء، وللظروف الطارئة مثل مهلك الراحلة في الطريق.. إلخ.

وعلى الرغم من اتخاذ جميع هذه الاحتياطات الدقيقة، تبقى إمكانية الهلاك في الصحراء أثناء السفر واردة، وحظوظها قوية؛ ذلك أنه إذا كان دليل القافلة بخبرته وتجربته الطويلتين مؤهلاً؛ لأن يضيع في الصحراء، كما أخبرنا ابن بطوطة، وأكده ليون الإفريقي، فماذا يمكن أن ينتظر المسافر العادي أو حتى أولئك التجار المعتادين على ركوب المسالك الصحراوية؟

باستحضار هذه المعطيات، يمكننا أن نتحسس الحوافز العميقة، التي دفعت ابن بطوطة ـ أثناء توقفه بإحدى محطات الصحراء: ولاتة ـ للتعبير عن رغبته في العودة إلى فاس، وهو لم يصل بعدُ إلى نياني عاصمة مملكة مالي. ويغمرنا إحساس قوي أن رحالتنا، حينما عبر عن رغبته تلك، فلأنه أدرك بعد مجاهدته لجل الطريق الصحراوي، أن لا شيء يمكن أن يغري الإنسان بالإقدام على هذه المغامرة، حتى ولو كان الذهب ـ على الضفة

الجنوبية ـ في انتظاره مجاناً.

وليون الإفريقي الذي مرّ بالتجربة نفسها بعد أكثر من قرن ونصف من رحلة ابن بطوطة إلى بلاد التكرور، يشارك رحالتنا في إحساسه ذاك، حيث عبّر لنا عن حسرة تدعونا للاعتقاد أن الرجل كان يتمنى لو أنه لم يقدم على اجتياز الصحراء. لقد كانت لدى المسافر خلال العصر الوسيط، قناعة بأن اجتيازه للصحراء، لن تكون بأي حال عبارة عن رحلة سياحية، كما هو الشأن بالنسبة للمسافر من فاس إلى سجلماسة أو قرطبة أو القيروان.

حقيقة أن إحساسات مرهفة تجاه الصحراء عند شخصيات حضرية، مثل ابن بطوطة وليون الإفريقي، قد لا نجدها بالحدة نفسها عند تجار الصحراء أو أهل أغمات وسجلماسة وتاهرت، كما قد لا نصادفها لدى القبائل البربرية والعربية الظاعنة في الصحراء وهوامشها؛ بيد أن ذلك لا يعني أن هؤلاء كانوا يستهينون، بمصاعب الصحراء وأهوالها، وما التقاليد القديمة التي أرسوها وتواضعوا عليها في اجتيازها (ابن حوقل: صورة الأرض)، إلا دليل قوي على مدى وعيهم بمخاطرها، وعدم استخفافهم بأهوالها.

ولا مشاحة إذن، في أن المقبل على السفر إلى بلاد السودان مروراً بالصحراء، لابد أن تحفزه إغراءات قوية وجذابة جداً، حتى يمكنه أن يقبل الخوض في مثل هذه المغامرة، ويقدم عليها. ولو لم يكن الملح يقايض وزناً بوزن مع ذهب مملكة غانة إلى نهاية القرن الـ4هـ/10م، ما خاطر تجار بلاد المغرب ومصر بأنفسهم لجلب الذهب التكروري.

وكذلك الفقيه المسلم، لا شيء يمكن أن يدفعه لاجتياز الصحراء بهدف نشر الإسلام بين أهلها من البربر، ومن وراءهم من القبائل التكرورية، إلا زهده في الحياة الدنيا. على أن الإسلام لا يطلب من المسلم أن يعرّض نفسه للهلاك وضياع النفس، لذلك نجد قلة من الفقهاء والدعاة المسلمين من تجشموا مصاعب الصحراء وخاطروا بأنفسهم ابتغاء مرضاة الله. وفي هذا السياق، فإننا حينما نستحضر موقف طلبة أبي عمران الفاسي، عندما رفضوا (نحو عام 427هـ) الذهاب مع يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى الصحراء إشفاقاً على أنفسهم من دخولها، فعلينا أن نقدر الموقف في إطار المعطيات التي طرحناها والشهادات التي وقفنا عندها، رغبة في ألا يزل لساننا باتهام أولئك الطلبة في دينهم.

وغني عن التذكير هنا، أن موقف طلبة أبي عمران هذا، لا يمثل حالة استثنائية، بل قاعدة عامة ومتواضع عليها عند أهل بلاد المغرب كافة. ولنتأكد من هذه الحالة، يكفي أن نستعرض الشهادات المصدرية لنتبين كم لدينا قبل مطلع القرن العاشر الهجري (16م) من فقيه ـ في مستوى عبدالله بن ياسين أو الإمام الحضرمي أو أبو الحسن النحوي ـ تحدى عواصف الصحراء وشظف العيش بها، وأقبل على العمل بالصحراء بين ظهراني أهلها؟ والسؤال الموازي الذي يمكن أن يعمق وعينا بثقل المشكل: كم لدينا من مذكرات رحالة أو جغرافيين عرب جابوا فعلاً أصقاع الصحراء، وتركوا لنا شهادتهم عنها فيما بين القرنين العاشر والسادس عشر للميلاد؟

لا غرو والحالة هذه، أن تصبح الصحراء عند أهل بلاد المغرب حكاماً ورعية، مجالاً للنفي السياسي والاجتماعي. وقد لا نتنكب الصواب، إذا قلنا إن نظرة المجتمع المغاربي خلال العصر الوسيط إزاء الصحراء كانت تماثل نظرته وتصوره عن بحر الظلمات (المحيط الأطلنتي)، وهي نظرة خوف وتهيّب. ومعطى القول، نعتقد أن تناول موضوع العلاقات بين بلاد المغرب وبلاد التكرور، تفرض علينا أن نقيم اعتباراً كبيراً للصحراء، سواء كمعطى جغرافي أو كمعطى ثقافي في ذهنية المجتمع القرسطوي.

العالم الأخضر

بين العلم والخيال

د. حنان الشرنوبي
ناقدة - مصر

عرفت شعوب شبه الجزيرة العربية وإفريقيا النباتات، واهتمت بها اهتماماً كبيراً عبر التاريخ، مثلما عرفتها شعوب البحر المتوسط، وربما يرجع هذا الاهتمام من احتياجهم الدواء والغذاء، وتوفير مواد الصباغة والدباغة، والمرعى والوقود، وليس هذا بجديد على بلادنا العربية، فشأنهم شأن أصحاب الحضارة والتراث القديم، مثل الصين وقدماء المصريين والإغريق والهند، ولقد بنيت هذه الحضارات على النباتات، وقامت على الزراعة، ثم جاء المسلمون واعتنوا بالأعشاب العطرية عناية كبيرة، مثل الكافور والقرنفل والزنجبيل والزعفران والفلفل، وغيرها من ضروب النبات التي دخلت أسماؤها المعاجم العربية، ووردت في أشعار العرب، وذكرت في مؤلفات وكتب بعض العلماء الذين حاولوا تصنيف مختلف أنواع النباتات والأعشاب، أمثال الأصمعي والسيستاني وأبو حليفة الدينوري والألبيري وابن السكيت والبيروني وابن مشحون وابن وافد والشريف الإدريسي وأبو الخير الإشبيلي وغيرهم كثير.

وقد اعتنى هؤلاء منذ القرن الثاني الهجري بمؤلفات وتراث النباتات عند الشعوب الأخرى، سواء اليونانية أو التركية والهندية والفارسية، فأقبلوا على ترجمة كل ما وصلت إليه أيديهم من الكتب إلى اللغة العربية، وعملوا على تفسير مفرداتها وشرح أسرارها ومكنوناتها، وكانت النتيجة حصولهم على معارف ومهارات طبية ونباتية مهمة، عملوا على تطويرها وصقلها، فظهر من بينهم أطباء مهرة.

ولعل القارئ يتساءل لماذا نهتم بجمع تراث النبات، وما مدى أهميته، وهل نحتاج لكل هذا المجهود في تحديد وتعقب نباتات قد لا تعني له شيئاً في هذا العصر الذي اعتاد استعمال التجارب الكيميائية في الدواء والتجميل واستخلاص الفيتامينات في كبسولات سريعة المفعول.

وللإجابة عن هذا السؤال ينبغي معرفة أمور عدة:

أولاً: إن هذه النباتات قد ظلت هي المصدر الأساسي للعلاج والتطبيب منذ فجر التاريخ حتى القرن التاسع عشر، ولايزال بعضها مستعملاً إلى الآن.

ثانياً: إن هذا التراث الضخم الذي ابتدأ مع ثيوفراسطوس وجالينوس قد حمل مشعله ثلة من العلماء المسلمين، كابن البيطار وابن سينا والإشبيلي، وبلغوا به آفاقاً عالية، ولاتزال آثارهم ومؤلفاتهم بين أيدينا، ولابد كنوع من الوفاء لهم من إجلاء ونفض الغبار عن تراثهم.

ثالثاً: إن هذه النباتات استعملت - ولاتزال - لعلاج أمراض فتاكة كالجدري والجذام وداء الكلب وغيرها... وتشير كتب التراجم والمعاجم إلى نجاح هذه العلاجات في كثير من الأحيان. ولعل أبرز الكتب الذي لايزال مشهوراً في المجتمعات الشعبية العربية كافة، باسم «تذكرة داود»، أو بالأحرى «تذكرة أولي الألباب، والجامع للعجب العجاب» لداود الأنطاكي.

رابعاً: النباتات تحمل في طياتها الكثير من الأسرار التي أودعها الله سبحانه وتعالى فيها، وتحتاج منّا إلى الاهتمام والبحث والتنقيب لعلاج أمراض العصر المستعصية، كالسرطان وارتفاع ضغط الدم وأمراض القلب والشرايين وغيرها.

ومن أبرز الأماكن التي عملت على حماية النباتات منذ قديم الأزل.. محافظة أسوان، حيث بلاد النوبة التراثية، وفيها جزيرة النباتات إحدى أهم المزارات السياحية، ومن أقدم الحدائق بالعالم، حيث تقع حديقة النباتات على جزيرة بأكملها، وتحتوي على العديد من الأشجار والنباتات النادرة، وشهدت زيارة العديد من الشخصيات التاريخية البارزة، وظلت هكذا لسنوات طويلة، فكان النوبيون يستوطنونها وسمّوْها حديقة النطرون، حتى أصبح اسمها الحالي حديقة النباتات، وتبلغ مساحتها ١٧ فداناً، وتم تقسيمها على هيئة سبعة قطاعات من الحياة النباتية النادرة والمعمرة، والتي تتم تهيئة الظروف المناخية الملائمة لها بوساطة الصوبات البلاستيكية، مثل مجموعة الأشجار الخشبية: خشب الأبنوس، الماهوجني، والصندل.

فنجد فيها أشجار الفواكه الاستوائية، مثل الباباظ والغريب فروت، والنباتات الطبية والعطرية كالسواك، التمر الهندي، الخروب، القرنفل، الحبهان، الكركدية، الزنجبيل، والبردقوش، ثم نباتات التوابل مثل الشطة والفلفل الأسمر.

أما عن نباتات الزينة، فاشتملت على الفل، الياسمين، الجارونيا، التيوليب، والبتونيا، وأخيراً النباتات الزيتية مثل نخيل الزيت، ونخيل جوز الهند، وأشجار الزيتون ومجموعة النخيل: مثل نخيل الدوم، نخيل جوز الهند، ونخيل البلح.

كما أُنشئ بداخلها متحف للأحياء النباتية التراثية النادرة، ما جعلها مقصداً للباحثين في علوم النبات وتراثه.

ومن أرض الواقع نلقي نظرة على بذور نبتت في الخيال، فإذا نظرنا إلى حياة النبات بكل تفاصيلها المثيرة، مصوغة على هيئة مادة سردية بصيغة أدبية، تأخذ القارئ في رحلة للولوج لتفاصيل حياة النباتات، نجد أنه ما يعبّر عنه كتاب «ذكاء الأزهار» لموريس ميترلينك، الحاصل على «نوبل للأدب»، ترجمة أحمد الزناتي، الذي اتسم بأسلوب مميز للغاية، ووصف لنا عبر السرد عالَماً واسعاً من الجمال.. نشعر فيه بكفاح

ونضال النبات للخروج من دفنه في التراب، ليغدو شيئاً ينضح بالجمال، وينبض بالحياة، إنه عالم النبات الذي يمكن أن نراه عادياً، ولكنه إعجاز يتضح من خلال التعمق في تفاصيله، وتأمل مراحل حياته.

حتى يصوّر الكاتب المشهد البديع لمراحل نمو النبات، بصيغة أدبية وصورة سينمائية بارعة، ويسوق أمثلة كثيرة، منها الأعشاب البحرية والنباتات المائية. كما يستعرض تشبيهات للعمليات الحيوية للنبات على أنها اختراعات أو ابتكارات وجدها الإنسان مؤخراً، بينما ولد النبات وترعرع عليها، وكأنه يعطي مثالاً حياً لتطبيقات تذهل الإنسان فور اكتشافه لها.

وهكذا عبر الأسطر السابقة تنقلنا مع عالم النباتات الأخضر بين واقع يُدرَّس، وخيال يحلّق.

ملتقى «الراوي»

في الإعلام العربي والدولي

حجاج سلامة
كاتب - مصر

حظيت فعاليات الدورة الـ23 من ملتقى الشارقة الدولي للراوي، الذي نظّمه معهد الشارقة للتراث خلال الفترة من 18 حتى 19 من شهر سبتمبر 2023، برعاية كريمة من صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، باهتمام واسع من قبل وسائل الإعلام الإماراتية والعربية والدولية، والتي أفردت مساحات واسعة، وقدمت رسائل يومية لمتابعة أنشطة الملتقى من ندوات وورش عمل وعروض وفعاليات متنوعة.

حيث اهتمت وكالة الأنباء الإماراتية (وام) بتقديم متابعة لحظية لفعاليات الملتقى منذ لحظات افتتاحه بحضور سمو الشيخ سلطان بن أحمد القاسمي، نائب حاكم الشارقة، وكذلك فعلت الصحف اليومية، ومختلف وسائل الإعلام الإماراتية من مرئية ومسموعة ومقروءة، وكانت أخبار الملتقى ومختلف أنشطته حاضرة في وسائل الإعلام قبل افتتاحه وطوال أيام فعالياته، وحتى ما بعد حفل الختام.

وعلى مستوى الاهتمام الدولي، فقد حرصت وكالة الأنباء الألمانية (د.ب.أ) على تقديم رسالة يومية لمشتركيها من وسائل الإعلام المختلفة، تتضمن متابعة شاملة لمختلف الأنشطة والفعاليات والتصريحات الصحفية لسعادة الدكتور عبدالعزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقة للتراث رئيس اللجنة العليا المنظمة للملتقى، وعائشة راشد الشامسي، مديرة مركز التراث العربي المنسق العام للملتقى، والدكتور منّي بونعامة، مدير إدارة المحتوى والنشر بمعهد الشارقة للتراث رئيس البرنامج الفكري للملتقى، إضافة إلى إبراز موضوعات الجلسات العلمية، وغير ذلك من الأنشطة التي شهدها الملتقى على مدار أيامه الثلاثة.

وتابعت وكالة الأنباء القطرية (قنا) أخبار الدورة الـ23 من ملتقى الشارقة الدولي للتراث، منذ الاستعدادات الجارية لتنظيمها، وبعد افتتاحها وحتى ختامها.

وأبرزت الوكالة في تغطياتها التي نقلتها مختلف الصحف ووسائل الإعلام القطرية، تصريحات سعادة الدكتور عبدالعزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقة للتراث رئيس اللجنة العليا للملتقى، التي قال فيها: «إن دولة قطر الشقيقة حلّت ضيف شرف الملتقى هذا العام ممثلة في الأستاذ علي شبيب آل سالم المناعي، والشخصيتين الفخريتين محمد سعيد البلوشي، وخولة محمد عبدالعزيز المناعي»، كما أشارت الوكالة إلى ما أعلنه المسلّم عن الاحتفاء بالتراث القطري والجهود المبذولة على المستويين الفردي والمؤسسي لحفظه من خلال الجلسة الافتتاحية للملتقى.

واستعرضت وكالة الأنباء القطرية، ومختلف وسائل الإعلام الصادرة في الدوحة، البرنامج الفكري للملتقى واحتفائه بالمعارف الشعبية وحملة الموروث الثقافي، وحكايات النباتات، من خلال مقاربات جادة، تسعى إلى استكشاف كنوز التراث ومكنوناته الزاخرة ومناقشة موضوعات علمية رصينة وثيقة الصلة بحكايات النباتات في الإمارات والخليج العربي والعالم العربي، بالإضافة إلى العديد من الفعاليات والبرامج والأنشطة المتنوعة، التي تؤكد كلها أهمية الإسهام في رعاية الرواة، والإيمان بقدراتهم وإمكاناتهم، وتعبر عن التقدير والوفاء لما قدموه للوطن وللأجيال الجديدة، وذلك ما سيتجلى من خلال تكريم أعلام الرواة والفائزين بجائزة

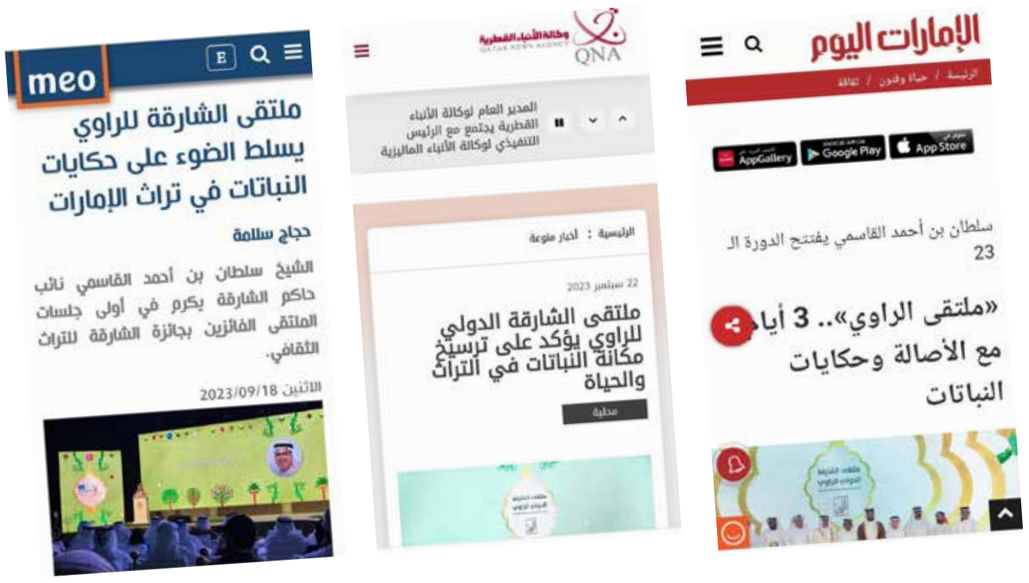

الشارقة الدولية للتراث الثقافي في دورتيها الثالثة والرابعة.

وسلّطت (قنا) الضوء على تكريم سمو الشيخ سلطان بن أحمد القاسمي، نائب حاكم إمارة الشارقة، عدداً من خبراء التراث والباحثين القطريين، وذلك بمناسبة اختيار قطر كضيف شرف بالملتقى هذا العام، ولفتت في تغطياتها إلى تكريم كل من الباحث علي شبيب آل سالم المناعي (الشخصية الفخرية لدورة الملتقى لهذا العام)، والدكتور محمد سعيد البلوشي (الشخصية الاعتبارية)، وخولة محمد عبدالعزيز المناعي.

وكان لوكالة رويترز الدولية، متابعة موسعة وشاملة لأنشطة الملتقى، وقد نقلت الكثير من الصحف العربية والدولية تلك المتابعة، التي أفردتها «رويترز» ونشرتها على صدر مواقعها ونسخها الورقية.

صحيفة العرب اللندنية، أفردت من جانبها تحقيقاً صحفياً موسعاً، شمل تغطية متكاملة لكل أنشطة الملتقى وموضوعات ورشه وندواته، والمشاركين فيه من خبراء التراث والباحثين وحملة التراث الثقافي الإماراتيين والعرب والأجانب.

وجاء التحقيق الذي نشر بالموقع الإلكتروني للصحيفة ونسختها الورقية، بعنوان «ملتقى الشارقة للراوي يجمع خبراء تراث وحكواتيين من 47 دولة»، وجاء في التحقيق:

«يعدّ الرواة حفّاظ جانب مهم من التراث البشري، ألا

وهو التراث الشفهي، الذي تناقلته الأجيال من حكايات وخرافات متنوعة، يمثل كل منها روح الشعب الذي تنشأ وتتطور فيه. واهتماماً بدور الرواة الكبير، يأتي ملتقى الشارقة الدولي للراوي، الذي صار تقليداً سنوياً راسخاً».

وفي المملكة العربية السعودية، أفردت مجلة «اليمامة» العريقة، الصادرة عن مؤسسة اليمامة الصحفية، تقريراً صحفياً شاملاً احتوى على تلخيص مختلف أنشطة الملتقى لهذا العام.

كما اهتمت مجلة «سيدتي» الشهيرة، والصادرة عن الشركة السعودية للأبحاث والنشر، بمتابعة أنشطة الملتقى المختلفة، وكذلك فعل موقع «ميدل إيست أونلاين»، الذي يقع مقره في العاصمة البريطانية لندن، حيث أفرد مساحة يومية لتغطية مختلف أنشطة الملتقى، وأبرز الموقع مختلف الموضوعات التي ناقشها خبراء التراث العرب وكل الباحثين المشاركين في الندوات العلمية والورش المتنوعة التي صاحبت الملتقى.

وفي لبنان، نشرت صحيفة «النهار» تقريراً بعنوان «ملتقى الشارقة الدولي للراوي يسرد حكايات النباتات»، أشارت فيه الصحيفة إلى أن الدورة الـ23 لملتقى الشارقة الدولي للراوي انعقدت تحت شعار: «حكايات النباتات» بمشاركة أكثر من 120 خبيراً وباحثاً من 47 دولة، من بينها قطر (ضيف الشرف)، وأن شعار تلك الدورة يأتي اتساقاً مع إعلان الإمارات عام 2023 (عام الاستدامة)، إضافة إلى ارتباط أشجار متعددة مثل النخلة والسدرة والرولة بالحكايات الشعبية والموروث الثقافي العربي.

ونوّهت الصحيفة بما شهده حفل الافتتاح من حضور وزخم كبير، والعرض المرئي الذي عبّر عن شعار الدورة حول النباتات وارتباطها بالحكايات، وتوقفت الصحيفة عن تكريم سمو الشيخ سلطان بن أحمد بن سلطان القاسمي، نائب حاكم الشارقة، للفائزين بجائزة الشارقة الدولية للتراث في دورتها الرابعة، وتكريم عدد من خبراء التراث القطريين في مناسبة اختيار دولة قطر كضيف شرف للملتقى هذا العام.

كما أضاءت الصحيفة على تصريحات سعادة الدكتور عبدالعزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقة للتراث رئيس اللجنة العليا المنظمة للملتقى، حول «الارتباط بين أهل الإمارات والأشجار يمثل أحد العناصر المهمة في الموروث الحضاري الإماراتي بمكوناته كلها، لذلك من المهم التعريف به وتوثيق كل ما يتعلق بهذا الجانب وإبرازه للأجيال القادمة».

وامتد الاهتمام الإعلامي بالدورة الـ23 من ملتقى الشارقة الدولي للراوي، إلى وسائل الإعلام في بلدان المغرب العربي بوجه عام، ووسائل الإعلام الموريتانية بوجه خاص.

وقد اهتمت الصحف والمواقع الإخبارية الإلكترونية في موريتانيا، بإبراز خبر تكريم سمو الشيخ سلطان بن أحمد بن سلطان القاسمي، نائب حاكم الشارقة، للفائزين بجائزة الشارقة الدولية للتراث الثقافي.

وأبرزت وسائل الإعلام في نواكشوط، خبر فوز موريتانيا بجائزتين اثنتين من بين جوائز الفئة العربية الثلاث، ضمن الدورة الرابعة 2023 لجائزة الشارقة الدولية للتراث الثقافي، وأشارت إلى منح جائزة أفضل البحوث والدراسات في التراث الثقافي، للدكتور ولد متالي لمرابط بن أحمد عن دراسته الموسومة: الحكاية الشعبية الموريتانية.. الرؤية والبناء السردي.

ونوّهت وسائل الإعلام الموريتانية بأن دراسة «ولد متالي» هي عمل يتناول بنية الحكاية الشعبية الموريتانية ومسارات تشكلها، مقدماً تصوراً نقدياً لقراءة هذه الحكاية، راصداً روافدها الدينية والحضارية والثقافية والاجتماعية والتراثية، وآفاق توظيفها الفني والتربوي في الشعر والسَّرد وأدب الأطفال، مقدماً مجموعة من الخلاصات والتوصيات المتعلقة بهذا النص الثقافي والأدبي.

ولفتت وسائل الإعلام الموريتانية إلى منح جائزة أفضل الممارسات لصون التراث الثقافي لمركز ترانيم للفنون الشعبية بموريتانيا، عن تجربته المتميزة في مجال المحافظة على تراث إنشاد المدح النبوي، وضمان نقله إلى الأجيال القادمة، ما أسهم في تثمين وإحياء هذا التراث الثقافي، من خلال قيام مركز ترانيم برحلات بحثية وإنتاجية إلى المناطق الداخلية بموريتانيا، لدراسة تراث فن المدح النبوي، وعمل على حصره وجرده وتوثيقه؛ ضمن مكتبة سمعية بصرية، يمكن الولوج إليها على موقع المركز على الإنترنت، تحتوي على آلاف التسجيلات من تراث المدح، تمثل حصاد 9 دورات من مهرجان ليالي المدح، بما ضمن التعريف به، وإحياءه والحفاظ عليه.

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث
خدمة مستمرة... وعطاء مستمر
JUMA AL MAJID CENTER
FOR CULTURE & HERITAGE

الرقم: 23517

التاريخ: 5 ربيع الأول 1445هـ / 20 سبتمبر 2023م.

سعادة الدكتور عبد العزيز عبد الرحمن المسلم حفظه الله

رئيس معهد الشارقة للتراث.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نهدي إليكم أطيب تحياتنا، ونرجو من الله لكم دوام التوفيق والسداد في سائر أعمالكم.

ويسعدنا أن نعرب لكم عن شكرنا الجزيل على اختياركم مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث لمنحه جائزة الشارقة الدولية للتراث الثقافي، لأفضل ممارسات صون عناصر التراث الثقافي، وتكريمه ضمن الدورة الثالثة والعشرين لملتقى الشارقة الدولي للراوي الذي ينظمه معهد الشارقة للتراث. وهو تكريم نعتز به كونه يأتي من مؤسسة يعلو لواءها **سمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة حفظه الله ورعاه.**

كما نقدر جهودكم في معهد الشارقة للتراث لنشر الثقافة التراثية، والتعريف بها من خلال الأعمال العلمية الرصينة والفعاليات التراثية المهمة في الداخل والخارج. نسأل الله لكم التوفيق في تقديم كل ما يخدم العلم وأهله.

وتفضلوا بقبول وافر الشكر والتقدير

رئيس المركز
جمعة الماجد

ص.ب: ٥٥١٥٦ – هاتف: ٢٦٢٤٩٩٩ / ٢٦٢٥٩٩٩ (٠٤) – فاكس: ٢٦٩٦٩٥٠ (٠٤) – دبي – الإمارات العربية المتحدة
P.O. BOX : 55156 - TEL : (04) 2624999 / 2625999 - FAX : (04) 2696950 - DUBAI - U.A.E.
E-mail : info@almajidcenter.org | Website : www.almajidcenter.org
www.Twitter.com/almajidcenter www.facebook.com/almajidcenter

ملتقى الشارقة الدولي للراوي
Sharjah International Narrator Forum
الراوي
20-18 سبتمبر September
حكايات النباتات 23
Tales of Plants

أيها الراوي

مُراود

بمناسبة إقامة الدورة الثالثة والعشرين من ملتقى الشارقة الدولي للراوي تحت شعار (حكايات النباتات)

رعد أمان
شاعر وإعلامي

ارو التراثَ لنا واقصُصْ (حكاويهِ)
فأنتَ خزّانُه الحاكي وراويهِ *

وأنتَ حافظُه بل أنتَ صائنُهُ
مَن ذا سواكَ مدى الأيام يُبقيهِ؟

لُقياكَ يا أيها الراوي تعيدُ لنا
ماضي الزمان وتهدينا لآتيهِ

جئنا بحيٍّ من الموروثِ تذكرُهُ
حتى نراهُ ونحيا أمسَنا فيهِ

وآتِنا من حكايات النبات بما
قال الرواةُ وراموا كُنهَ خافيهِ

إنَّ الذي يتمضَّى ناشداً غدَهُ
فليس يبلغُهُ من دون ماضيهِ

اليومَ في ملتقى الراوي يلوحُ لنا
طيفٌ من الأمس في أبهى مَرائيهِ

يلقي على الحاضرِ الزاهي عباءتَه
تندى بأنفاسِهِ والشوقُ يُدنيهِ

في المعهدِ المتجليِّ مثلَ رابيةٍ
على مغانٍ من الموروثِ تحويهِ

يدُ الرعايةِ من أسمى مراتبِها
تمدُّ بالحبِّ والتحنانِ أهليهِ

فيزهرونَ كأغصانِ الرياضِ ضحًى
ويُفتَنونَ بحسنٍ من تجلّيهِ

كذاكَ شارقةُ الدنيا تُعلّمنا
أنَّ التراثَ يدُ الإخلاص تُحييهِ

وأنَّ راويَهُ كنزٌ إذا فنيَت
كلُّ الكنوزِ فلا تفنى لآليهِ

تظلُّ تنفعُ أبناءَ الزمانِ وكم
حكايةٍ نفَعَت فانزاحَ عاديهِ

تراثُنا عزُّنا .. فنٌّ ومفخرةٌ
الأصلُ أولُهُ والمجدُ ثانيهِ

———————

* الخزّان : اللسان

المعرض الدولي للصيد والفروسية

موروث الأجداد بطريقة عصرية

عبير يونس
كاتبة - سوريا

يقال إن الصيد رياضة الملوك، والصيد بكل ما قيل عنه وما يحمله من معانٍ كان ولايزال جزءاً من الممارسات الممتعة والمهمة في المجتمع الإماراتي، فالشغف الذي يمتلكه الإماراتيون لرحلات الصيد أو القنص مازالت تحظى بالمكانة ذاتها، وفق رؤية متجددة تكرس فكرة الاهتمام بالبيئة من أجل صيد مستدام، وكان أول من طرح هذه الفكرة مؤسس الدولة المغفور له، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، من خلال تقاليد تجلت برفضه استخدام البندقية للصيد منذ عام 1930، والاكتفاء بالصيد بالصقور.

وأدى تقدير واهتمام الإمارات بهذا الجزء من الموروث الأصيل، إلى قيادتها الملف المشترك لتسجيل الصقارة على قائمة التراث الثقافي غير المادي في منظمة اليونسكو، ومن ثم أعادت تمديد التسجيل للمرة الرابعة، حيث أصبح عدد الدول المشاركة فيه 24 دولة من حول العالم، وذلك بعد انضمام 6 دول جديدة للملف. كما يظهر الاهتمام بالصقارة من خلال أنشطة وفعاليات مختلفة تقام من حين لآخر، من بينها تنظيم المعرض الدولي للصيد والفروسية الذي أقيمت دورته العشرون في أبوظبي من 2 ولغاية 8 سبتمبر الماضي، بعنوان «استدامة وتراث بروح متجددة».

الصيد المستدام:

أعاد المعرض الدولي للصيد والفروسية إلى الأذهان المؤتمر العالمي الأول للصقارة، الذي أقيم في أبوظبي في أواخر عام 1976م، وجمع للمرة الأولى بين صقاري الجزيرة العربية ونظرائهم في أمريكا الشمالية وأوروبا والشرق الأقصى. والمؤتمر الذي يعد واحداً من مبادرات المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، جاء منطلقاً حقيقياً للاستراتيجية التي وضعها لحشد جهود الصقاريين؛ ليكونوا في طليعة الناشطين وأصحاب المصلحة الحقيقية في المحافظة على الطبيعة وفق مفهوم «الصيد المُستدام».

بحلول عام 1995 عمل الشيخ زايد على التحوّل من استخدام الصقور البرية إلى الصقور المُكاثرة في الأسر، لتُصبح دولة الإمارات بعدها بسنوات قليلة البلد الأول في الشرق الأوسط الذي يعتمد كلياً على استخدام الصقور المُكاثرة في رياضة الصيد بالصقور.

وفي العام ذاته، تم الإعلان عن برنامج الشيخ زايد لإطلاق الصقور، الذي يهدف إلى المحافظة على أعداد الصقور في البرية، من خلال إتاحة الفرصة لها للتكاثر في مناطقها الأصلية. فكان الشيخ زايد، رحمه الله، يتبرع سنوياً بصقوره للبرنامج في نهاية موسم الصيد السنوي، وكان يحثّ صقاري المنطقة على التبرّع بصقورهم أيضاً، ومازال البرنامج مُستمراً بنجاح كبير لغاية يومنا هذا، ومن خلاله تم إطلاق 2211 صقراً لغاية اليوم من نوع الحر والشاهين، لتكمل حياتها في البرية. كما قامت دولة الإمارات بالتوقيع على الاتفاقيات الدولية ذات الصلة في مجال حماية البيئة والحياة البرية وصون الأنواع، ومثلما وثّق التاريخ اهتمامه بالصقارة، وثّقت الصور الشيخ زايد كصقار رائد وحامٍ لكل مفردات البيئة وعناصرها.

للمـرة الأولى عـام 2003م. حيـث وفـر المعـرض لـزواره أفضـل الدراجـات والمركبـات التـي تسـهل الرحـلات البريـة والتخييـم في الصحـراء، واسـترجاع حيـاة الآبـاء والأجـداد، ولكـن بطريقـة عصريـة، مـا يبرهـن عـلى إمكانيـة اسـتخدام التطـور التكنولوجـي مـع الحفـاظ عـلى روح الـتراث.

وظهـر التقديـر الكبـير للصيـد بـكل طرقـه في أروقـة المعـرض، مـن خـلال مشـاركة كثـير مـن الجهـات الحكوميـة، مثـل مشـاركة نـادي تـراث الإمـارات الـذي عـرض مجموعـة مـن إصداراتـه التـي تناولـت الصيـد والفروسـية، كـما بـين مـن خـلال جناحـه الخـاص جهـود النـادي في تعليـم الأطفـال والناشـئة هـذه الرياضـات والممارسـات التراثيـة، كـما أظهـرت الجهـات المحليـة الأخـرى والخليجيـة الأهـداف ذاتهـا، مثـل هيئـة البيئـة والمحميـات الطبيعيـة بالشـارقة، ومحميـة الإمـام تـركي بـن عبداللـه الملكيـة، وغيرهـا مـن جهـات تعمـل بالتناغـم ذاتـه عـلى الترويـج للـتراث وللصيـد المسـتدام والحـد مـن الصيـد غـير القانـوني، وهـو مـا يحافـظ عـلى هـذا الإرث، ويضمـن اسـتمراره للأجيـال القادمـة، وفـق تقاليـد خاصـة تسـتحضر عنـد القيـام بهـذا المـاضي الـذي عاشـه الآبـاء والأجـداد.

وتميـزت هـذه الـدورة أيضـاً بنجـاح كبـير لمـزاد الصقـور المُكاثـرة في الأسر، خاصـة مـع تقديـم مركـز «البروفالكـن» في مدينـة العـين لـ210 صقـور للمُزايـدة عليهـا، حيـث يُعتـبر المركـز الأول والأكـبر في الـشرق الأوسـط، مـن حيـث الإمكانـات وكميـة الإنتـاج، وأحـد أضخـم مشـاريع المحافظـة عـلى الصقـور في العـالم، وأفضلهـا مـن حيـث جـودة الصقـور المُنتجـة.

ومـن الفعاليـات المهمـة التـي أقيمـت في المعـرض مؤتمـر «دور وسـائل الإعـلام في صـون الصقـارة والـتراث غـير المـادي»، فقـد ناقـش المتحدثـون في المؤتمـر عـدداً مـن القضايـا مثـل «دور الإعـلام في الترويـج للمقومـات التراثيـة والثقافيـة والسـياحية للأطفـال والشـباب، وأهميـة إدراج الصقـارة في الكتـب المدرسـية، للتشـجيع عـلى ممارسـة الـتراث بعيـداً عـن الألعـاب الإلكترونيـة، إلى جانـب كيفيـة تعزيـز الوعـي المجتمعي بالعنـاصر التراثيـة، وكيفيـة مخاطبـة الجيـل الجديـد للترويـج لأهميـة إحيـاء الـتراث، ودور وسـائل التواصـل الاجتماعـي في إعـادة إحيـاء الرياضـات التراثيـة الأصليـة، وتعزيـز القيـم والعـادات والتقاليـد، ومخاطبـة الاهتمامـات البيئيـة والتراثيـة وتعزيـز الوعـي المجتمعـي لتشـكيل الـرأي العـام في حمايـة المـوروث. وهكـذا تناغمـت الجهـود المبذولـة بأكـثر مـن طريقـة مـع أهـداف المعـرض، وأثـرت جـزءاً مهـماً مـن مـوروث أصيـل، يتفاخـر بوجـوده الإماراتيـون عـلى مـر العصـور.

حماية الموروث:

في ظـل الاهتـمام الكبـير مـن قبـل العديـد مـن الجهـات المحليـة لتعزيـز رياضـة الصيـد بالصقـور، جـاء المعـرض الـدولي للصيـد والفروسـية كي يوفـر كل احتياجـات الصقاريـن والشـغوفين بـكل أنـواع الصيـد، فالمعـرض الـذي نظمـه نـادي صقّـاري الإمـارات، وبرعايـة رسـمية مـن هيئـة البيئـة - أبوظبـي، والصنـدوق الـدولي للحفـاظ عـلى الحبـارى، توزعـت في مساحته المتمـددة عـلى نحـو 65 ألـف متـر مربـع مستلزمات الصيـد مـن قبـل 1220 عارضـاً وعلامـة تجاريـة مـن 65 دولـة حـول العـالم، لتكـون هـذه المُشـاركة هـي الأضخـم في تاريـخ المعـرض، الـذي انطلـق

زايد والقنص والشعر

الشـيخ زايـد شـاعر بـارز مـن شـعراء النبـط، الشـعر التقليـدي في شـبه الجزيـرة العربيـة، وكان يحـرص عـلى تشـجيع إحيـاء الـتراث والعـادات والتقاليـد، في الوقـت الـذي كان يُديـر فيـه عجلـة التحديـث والتطويـر والمعـاصرة.

زولفيزيا(*)

شهرزاد العربي
كاتبة - الجزائر

بعد صحراء ممتدة قاحلة، لا حياة فيها، تقع أرض خضراء مغطاة بغابات كثيفة، بدت كأنها جنة، أشجارها وارفة، تعطي ظلاً ظليلاً، وزهورها مختلفة الأنواع، عبقها يزيد المكان بهجة، وفيها ينابيع مياه تجري في أحواض من المرمر، وطيور ـ بشتى الألوان ـ تملأ المكان شدواً، وهنا وهناك نصبت خيام في أجمل مكان، وكانت الصحراء سدّاً منيعاً يحميها.

كل أمراء الدنيا وملوكها كانوا قد سمعوا عنها، غير أن المكان كان يلقي الرّعب في النفوس؛ لأنه لا أحد ـ مهما كانت شجاعته وقوة جيشه ـ عاد من ذلك المكان ليقصّ حكايته، ولذا كان كل أب قبل وفاته يوصي أبناءه بعدم الذهاب إلى الصيد في تلك الأرض، وهذا ما فعله أحد الملوك، الذي كان له سبعاً من الأولاد.

عندما توفيَ هذا الملك واعتلى العرش أكبر أبنائه، ما لبث أن خالف وصية والده، وخرج في رحلة صيد مع حاشيته إلى المكان المحرم، لكنه لم يعد من هناك، فتسلّم الأخ الثاني الحكم، وبعد مدة فعل فعلة أخيه، وهكذا حتى غاب الإخوان الستة، وتسلّم العرش أصغر أبناء الملك، الذي راودته نفسه هو الآخر بالذهاب إلى الصيد.

عندما اقترب من المكان، ظهرت له ظبية، فلاحقها حتى دخلت غابة ثم اختفت.

ذهل الملك وحاشيته أمام منظر ساحر خلّاب، فطافوا في المكان جيئة وذهاباً، ودخلوا تلك الخيام، فوجدوا السماط قد مدّ، وعليه أشهى الأطعمة والأشربة المغرية.

لم يمدّ الملك يده إلى الطعام، وخرج يتجول متأملاً المكان وجماله، مستمتعاً بشدو الطيور، وخرير المياه وهي تجري في أحواض المرمر، أما من كان معه من الرجال، فقد اشتهوا الطعام، فأقبلوا عليه بنهمٍ.

عندما عاد الملك إلى الخيام، وجد بعض رجاله صرعى، وبعضهم الآخر يحتضرُ؛ لأن السمّ نفذ إلى أحشائهم، فعلم من ساعتها أن إخوته لقوا نحبهم بالطريقة نفسها، وخلَصَ إلى أن من فعل ذلك لابد أنه قادم ليرى نتيجة فعلته، لذا اختبأ وراء شجرة بندق كبيرة، وقبيل الفجر رأى جواداً أبيض يمتطيه فارس.

عندما اقترب هذا الأخير ورأى الناس صرعى، أمر من معه بأن يلقوا بهم من فوق الجرف، وأخذ ما كان معهم، وبعد أن أحصوا الجياد، وغنموا الغنائم، أمرهم بالصعود إلى التلة، وإطلاق الظبية، وتنظيف المكان، وترتيب موائد الطعام والشراب من جديد.

ثم تجول ذلك الفارس في الغابة، فرأى الجواد المربوط عند شجرة الفستق، فتنبّه إلى أن هناك رجلاً ناقصاً، وفي هذا الوقت خرج الملك من خلف الشجرة، وقال مخاطباً الفارس:

(*) ترجمة، وإعادة صياغة، بتصرف، عن كتاب:
Contes Armeniens traduit par Frederic Macler Ernest leroux Paris 1905

ـ إلى الخلف أيها الشيطان المارد، إن هذا الجواد ليِ، وليس من المروءة نصب الفخاخ للناس وتسميمهم، فلتستعد لقتالي.

غضب الفارس من هذه الكلمات، وردَّ قائلاً:

ـ يا بن آدم، إنني أسامحك، وإذا كان قلبك شجاعاً بقدر لسانك، فامتطِ حصانك والحق بي، فأنا «زولفيزيا».. اسأل عني وستجدني.

وهكذا طار الحصان بالفارس بعيداً، فلم يلمح الملك سوى أن ركوبة الفارس كانت من نار، وكان هو الآخر، أي الفارس، يضيء، وشعره ذهبي ينسدل على كتفيه.. فتساءل:

ـ هل هذه ملكة الملكات أم امرأة قاطعة طريق؟ وهل زولفيزيا كانت بالفعل فتاة؟

بعد أن أفاق الملك من ذهوله سار باحثاً عنها، وبعد مسيرة أيام وليالي وجد نفسه أمام ثلاثة قصور، تعيش في كل قصر حورية عجوز لها أربعون فتاة، وأبناؤها كانوا من العفاريت، وكانت أمهم قد علمتهم الحب والشفقة، ونزولاً عند رغبتها لم يؤذوا الملك، وأبرموا معه عقداً أخويّاً، وسألوه عن وجهته، فقال لهم:

- ذاهب للبحث عن زولفيزيا.. لقد سرقتْ، وقتلتْ إخوتي وعدداً كبير من الناس، وأنا أريد الانتقام لهم.

أراد هؤلاء العفاريت أن يثنوا الملك عن الذهاب للبحث على زولفيزيا، لكنه كان مُصرّاً على ذلك، وعندما همَّ بالمغادرة أعطاهم مقصّاً وشفرةً ومرآةً، وقال لهم:

ـ إذا رأيتم الدم على المقص والشفرة، والعرق على المرآة، فاعلموا أنني في خطر، وبحاجة إلى المساعدة.

ثم ودّعهم وسار نحو مقصده، وبعد مسيرة ليلتين رأى قصراً مضيئاً يدعو إلى العجب، وأراد الدخول فلم يجد له مدخلاً.

وبينما هو كذلك، سمع صوت شخير ينبعث من شق في السور، فتسلّل ليجد عجوزاً نائماً، واستيقظ الأخير بدخول الملك عليه، فسأله:

ـ من تكون؟ وماذا تريد؟

فأجابه الملك:

ـ أنا في طلب زولفيزيا.

أما الشيخ، فقد كان ابن الملك أتشينوماتشي، وأن زولفيزيا سجنته من عهد بعيد.

روى الملك على العجوز قصته مع زولفيزيا، وباح له بأنها ملكت قلبه بعد أن رآها بشعرها الذهبي وعينيها الناريتين وصوتها الملائكي، فتحولت الرغبة في الانتقام إلى حب، وسأله:

ـ كيف أصلُ إلى قلبها؟

أخبر العجوز الملك كيف يكسب قلبها، فنفَّذ كلامه، ورضيت زولفيزيا بحب الملك، ودعته إلى قصرها.

بعد أن تزوّجَا، طلبت زولفيزيا منه الخروج إلى الصيد؛ لأنه أصبح مسؤولاً عن إطعامها، وهي لن تخرج إلى الصيد مرة أخرى، وقدمت له جواد النَّار، وطلبت منه أن يخضع لأوامر سيده الجديد.

لكن الملك صعبت عليه مغادرة زولفيزيا، فقامتْ بأخذ خصلةً ذهبية من شعرها، ووضعتها في علبة مزخرفة، وقالت له:

ـ ضعها على صدرك قرب قلبك، وسأكون دائماً معك.

وهكذا كان الملك يذهب كل يوم إلى الصيد والعلبة بين ثيابه، وذات يوم أبصر ظبية فرت إلى النهر فلحقها، وهناك وقعت منه العلبة، وجرفها النهر بعيداً، حتَّى التقطها سقّاء لم يعرف ماهيتها، فأخذها إلى الملك الذي عرضها على وزرائه طالباً معرفة كنهها، وإلا قطع رؤوسهم، لكنهم عجزوا عن الوصول إلى جواب.

سمعت عجوز ساحرة بالأمر، فجاءتهم وساومتهم على حل اللغز، فأعطيت عطيّة مُجْزَاة، وأجابت أنها لزولفيزيا وأخبرتهم عن جمالها وذكائها، وعندما عادوا إلى ملكهم بهذه الإجابة، طالبهم بإحضار زولفيزيا هذه دون إبطاء، وسارع الوزراء إلى العجوز الساحرة، فقالت:

ـ أنا أحضرها مقابل كذا من الذهب الخالص.

أخذت الساحرة ثعابينها، واستقلت طَوْفاً جرى في النهر حتى وصل إلى حيث أراضي زولفيزيا، ثم لبست أسمالاً، وادعت الضعف، ووقفت في طريق زوج زولفيزيا، وهو عائد من الصيد، وعندما رآها أشفق عليها، فساعدها وجاء بها إلى القصر.

أحست زولفيزيا بشيء غريب تجاه العجوز، دفعها إلى القول لزوجها:

ـ أطعمها، ودعها تذهب.

لكنه تركها، وأمر الخدم بالاعتناء بها، ومرت أيام والعجوز تقصُّ على الخادمات قصصاً غريبة ينقلنها إلى زولفيزيا، وهكذا استدعتها زولفيزيا لتسمع منها، وأصبحت لا تغادرها، وتحدثها عن زوجها، وتقول لها:

ـ أنت محظوظة، إذْ لك زوج كهذا الزوج المحب.

وذات يوم سألتها:

ـ هل تعرفين سر قوة زوجك؟

أجابت زولفيزيا:

ـ لا.

فقالت لها:

ـ أي الأزواج أنتما؟ يعرف سرَّك، ولا تعرفين سرَّه.. إنه لا يحبك، وإلا كان قد أطلعك على سرّه.

وهكذا أصرت زولفيزيا على معرفة سرّ زوجها، وبعد إلحاح أخبرها أن السر يكمن في سيفه، الذي لا يفارقه ليل نهار، حتى إنه يضعه تحت وسادته عند نومه.

تسلّلت الساحرة ليلاً إلى غرفة الملك، وسحبت السيف من تحت رأسه، وألقت به في النهر، وعادت إلى غرفتها، وفي الصباح عندما لم يخرج الملك كعادته قلقت زولفيزيا، ودخلت عليه لتجده قد أزبد وشخص بصره في السقف، ولا يستجيب للنداء.

علا الصراخ والبكاء، وجاءت الساحرة على عجلٍ، ومعها ثعابينها التي استعانت بها لتسيطر على زولفيزيا، وأخذتها معها مقيَّدة، وسلمتها إلى الوزراء.

في هذا اليوم لاحظ العفاريت الذين أخبروا الملك أن المقص والشفرة ينزفان، والمرآة يسيل منها العرق، فعرفوا أنه في خطر، فخرجوا مسرعين إلى قصره، وبحثوا عن السيف، فلم يجدوه، وبعد أن تعبوا جلسوا ليأكلوا، فاصطادوا سمكاً من النهر لطعامهم، غير أنهم لاحظوا سمكة كبيرة تتخبط بعنف حتى خرج منها السيف، فسارعوا إلى أخذه، ووضعوه تحت رأس الملك، فاستيقظ واستغرب وجود العفاريت، وسأل عن زولفيزيا، فأخبروه بما حدث.

قرر الملك الذهاب للبحث عن زوجته، فركب جواد النَّار وانطلق، وبعد مدة وصل إلى مدينة، فاستضاف امرأة عجوزاً، وأغدق عليها بالمال، وعلم منها أن ملك هذه البلاد سيتزوج بعد أيام من زولفيزيا، وأن الأخيرة معتصمة في غرفتها، تهدد بشرب السم لو اقترب منها أحد.

فقال الملك للعجوز:

ـ اذهبي إلى السوق، واشتري أفخم الثياب، وضعي خاتمي هذا في إصبعك، واطلبي لقاء زولفيزيا، وهي عندما تراك ستتعرَّف إلى الخاتم، وتعرف أنني هنا.

فعلت العجوز ما طلب منها، وتعرفت زولفيزيا إلى خاتم زوجها، وقالت لها:

ـ اذهبي إلى الملك، وقُولي له: إنك استطعت إقناعي بالزواج منه، وإنني سأخرج بعد ثلاثة أيام إلى حديقة الورد، وأخبري زوجي أن يلاقيني في الزمان والمكان.

بعد ثلاثة أيام خرجت زولفيزيا في موكب عظيم، وكان زوجها ينتظرها مع جواده النَّاري، وعندما وصلت أخذها وطار بهما جواد النار بعيداً.

جمع الملك رجاله ولحقوا بزولفيزيا، وأراد زوج زولفيزيا أن يلقنه درساً، فعاد مع سيفه العجيب، فأطاح برأس الملك، والكثير من رجاله، واستسلم المتبقون منهم، ودعوه أن يكون ملكاً عليهم، وهكذا كان.

قناة بكين

هانغتشو المائية الكبرى

الكاتبة: آمنة شيوى تشيونغ شين
المترجمة: خولة هوانغ ينغ
المراجع: جمال بن علي آل سرحان

تم شق قناة بكين - هانغتشو المائية الكبرى في فترة الربيع والخريف (476-770 ق.م)، وهي أطول وأكبر قناة قديمة في العالم، كما أنها واحدة من أقدم القنوات المائية، ومشروع عظيم أنشأه الشعب العامل في الصين القديمة، وأحد رموز المكانة الثقافية للصين.

يمتد النظام المائي للقناة الكبرى لآلاف الأميال، ويمر عبر الشمال والجنوب، ليشكل نمطاً طبيعياً فريداً، كما يتمتع المشهد الثقافي والعادات الشعبية لعشرات المدن الواقعة على طول ضفتيها أيضاً بثقافات وعادات محلية رفيعة المستوى ومفهوم فني فريد.

تم بناء المباني على طول القناة، مثل مقار نقابات العمّال والموانئ النهرية والأرصفة والجسور وهويسات السفن ومكاتب النقل المائي، وغيرها من الأبنية لتلبية احتياجات الإنتاج الفعلي. ونشأت أيضاً العديد من العادات الشعبية على طول القناة، التي كشفت عن روح البراغماتية، على سبيل المثال، كان لصيادي الأسماك في مدينة هوايآن بمقاطعة جيانغسو عادات مثل «تسليم مقود السفينة» (أي

مراسم إطلاق السفينة الجديدة)، و«مأدبة ما قبل موسم الصيد» و«حفلة الحمولة الكاملة» (حفلة يصلي فيها الصياد لتنين البحر من أجل العودة المثمرة). أثناء عملية شق القناة، تم ابتكار العديد من الفنون المرتبطة بالإنتاج، مثل أنشودة القناة الكبرى. هناك أيضاً أنشودة عمال النهر، وهي أهزوجة يغنيها الناس أثناء حفر مجاري الأنهار، ورفع الطمي النهري، وبناء السدود، ودقّ الخوازيق، ودكّ الأرض. هذه الأناشيد خشنة وبسيطة، أو مهيبة وقوية، فمن ناحية يمكنها أن تلهم الروح وترفع معنويات الشعب العامل، ومن ناحية أخرى، تساعد على تنظيم العمل الجماعي وتوجهه. وفي كلتا الحالتين، فقد عكست بطبيعتها روح البراغماتية داخلياً عبر الممارسة العملية في إنتاج القناة الفعلي، وأسهمت فعلياً في الإنتاج.

مدينة هانغتشو بمقاطعة تشجيانغ هي نقطة الانطلاق الجنوبية لقناة بكين - هانغتشو المائية الكبرى، وتمر القناة المائية الكبرى القديمة عبر المدينة، وعلى ضفتيها تحتفظ بآلاف السنين من الثقافات. تسجل القناة الكبرى تقلبات العاصمة القديمة المزدهرة هانغتشو، وتنوع الحياة في مبانيها المتميزة بجدران

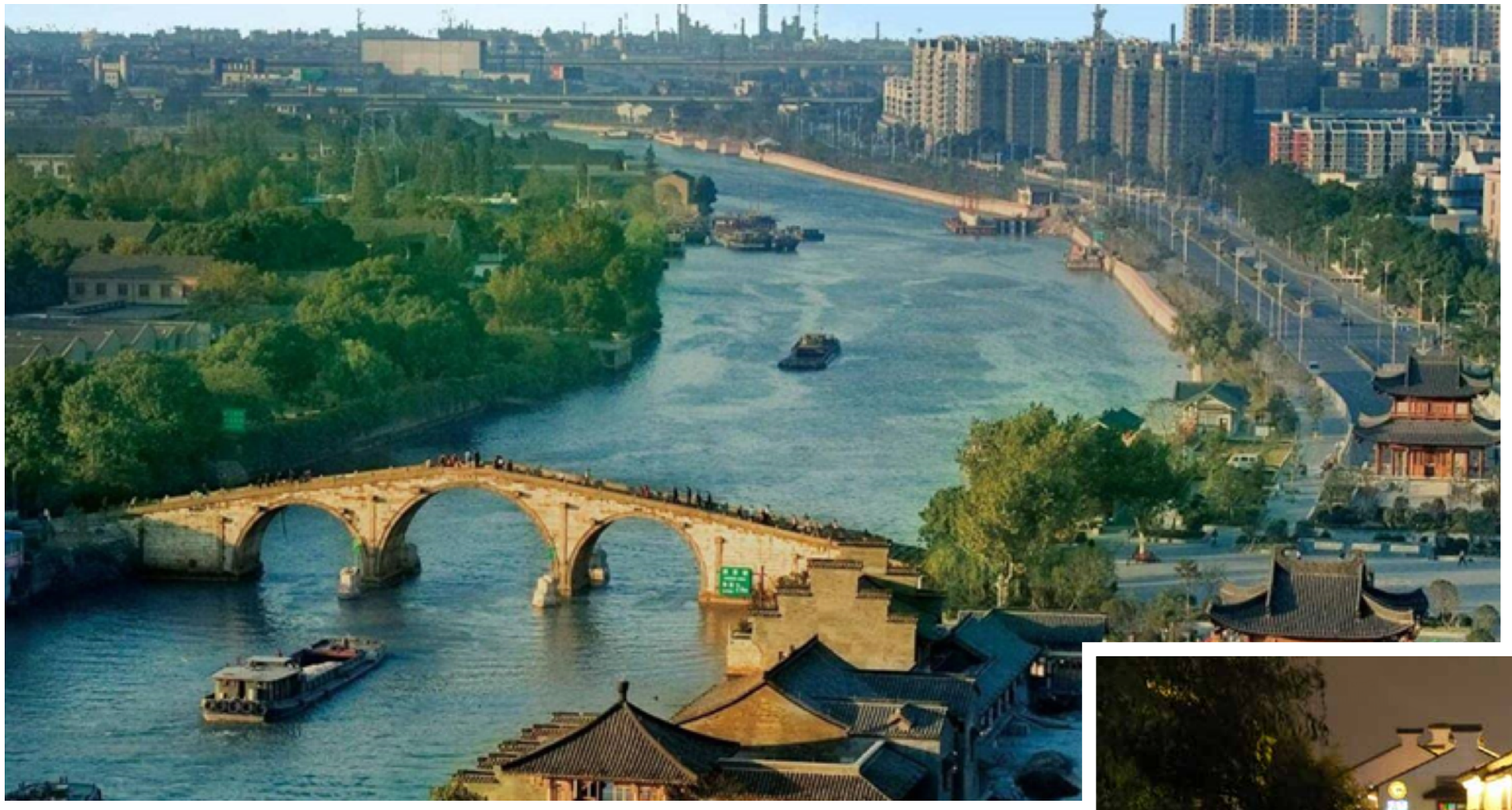

بيضاء وقرميد أسود. سواء كنت تمشي على الأقدام أو تركب القوارب أو تستقل دراجة أو تأخذ قيلولة، يمكنك أن تشعر بعظمة قناة هانغتشو، وتقدر الأناقة المنتشرة على طول القناة، وتشاهد طيور البلشون الأبيض وطيور مالك الحزين تطير وتحلق فوق القناة.

لم يتم بناء القناة الكبرى في فترة معينة من التاريخ، ولكن تم الانتهاء منها من خلال جهود أجيال عديدة. هذا المجرى المائي الطويل في الصين، الذي يرمز إلى التواصل، شهد عدداً لا يحصى من الأسر الملكية الحاكمة، والتغيرات خلال العصور، وهو ليس رمزاً للثقافة الصينية فحسب، بل هو أيضاً كنز ثمين للحضارة الإنسانية بأسرها.

د. منّى بونعامة
مدير التحرير

التراث الثقافي في الشارقة

للتراث الثقافي في إمارة الشارقة مكانة سامية ومنزلة عالية، تتجلى في العناية الكبيرة، والاهتمام الواسع من لدن صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى للاتحاد حاكم الشارقة، حفظه الله ورعاه، بهذا المجال المهم؛ ويعود ذلك الاهتمام وتلك العناية إلى فترات مبكّرة من حياة سموه، كشفت عن وعي عميق وعريق بالتراث، صوناً وحفظاً وإحياءً وتأهيلاً، وهي مرتكزات أساسية قام عليها المشروع التراثي الإحيائي لسموه؛ حيث تنبه سموه مبكراً، عن بصيرة ويقين، لقيمة العودة إلى الجذور التراثية التي تؤكد أصالة الإنسان، وتصوغ مشاعره ووجدانه، وتكوّن شخصيته، وتصون وجوده، وتحمي حاضره، وتأخذ بيده إلى مستقبل آمن في وجه الفضاء المفتوح، وسيل العولمة الجارف، وإلى ذلك يعود إلى اهتمام صاحب السمو حاكم الشارقة بالتراث، وتقديره أثره في حياة الأفراد والجماعات، واحتفائه بشتى مظاهره وأشكاله في الحياة الخاصة والعامة، وفي توجهه إلى بناء الدولة، ورعاية أبنائها. ولم يكن إحياء التراث في نظر سموه مجرد صور وأشكال، ومظاهر احتفالية تُقام في حيز من الزمان والمكان، ثم تمضي على عجل! بل كان في حسّه قانوناً يجب تطبيقه، ومنهجاً سامياً ينبغي اتخاذه، ومنهلاً عذباً لأسس القيادة الرشيدة، يمدّها بالحكمة الصائبة والرأي السديد.

والحق أن الشارقة تُعدّ من أولى إمارات الدولة التي عكفت على ترميم المعالم التاريخية والمباني التراثية؛ تنفيذاً للتوجيهات السامية لصاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى للاتحاد حاكم الشارقة، حفظه الله ورعاه، الرامية إلى المحافظة على المباني التاريخية والمواقع التراثية، وإحيائها من خلال أعمال الحماية والترميم التي طالت معالم الإمارة وبيوتها التراثية وأسواقها الشعبية ومساجدها ومدارسها، وإعادة توظيف وإحياء مناطق الشارقة القديمة؛ لمَا في ذلك من حفظ لذاكرة المكان التاريخي والتراثي في الإمارة، واستدعاء للماضي الجميل، واحتفاء بالدور التاريخي الذي لعبه هذا المبنى أو ذاك، في فترات تاريخية مختلفة، وأماكن متعددة، وبهدف تعزيز الارتباط بالمكان الإماراتي، بمعالمه وصروحه ورموزه الأصيلة.

وشملت المشروعات التي تم إنجازها معالم تاريخية، ومباني تراثية في الشارقة القديمة، وفي مدنها ومناطقها، موزعةً بحسب نمطها ونوعها وطبيعتها ووظيفتها إلى مبانٍ دفاعية؛ كالحصون والقلاع والأبراج والأسوار، ومدنية كالبيوت القديمة، وتجارية كالأسواق الشعبية، ودينية كالمساجد التراثية.

Therefore, the sustainability has become one of the most important and vital topics, because it may help overcome these risks or at least reducing their impact to ensure a safer future. This is what prompted President His Highness Sheikh Mohamed Bin Zayed Al Nahyan, to declare year of 2023 as «Year of Sustainability», to make today for tomorrow. It is an important initiative that aligns with the great efforts made by the UAE to promote sustainability and sustainable development in order to ensure the achievement of the desired goals. The Emirate of Sharjah was the incubator of the first city that achieved many successes, and bagged several international awards in recognition of its exceptional efforts in this field.

From this standpoint, we sought in this issue to search for the essence of the topic, and to examine and delve into its various aspects, under the theme «Heritage & Sustainability», in order to identify the link between sustainability and heritage in the UAE, and what is the foreseeable horizon for the future of heritage in the light of these major transformations?

This issue includes several approaches, studies and diverse visions by a group of writers, who reviewed valuable aspects of the cultural heritage elements, including the knowledge and arts.

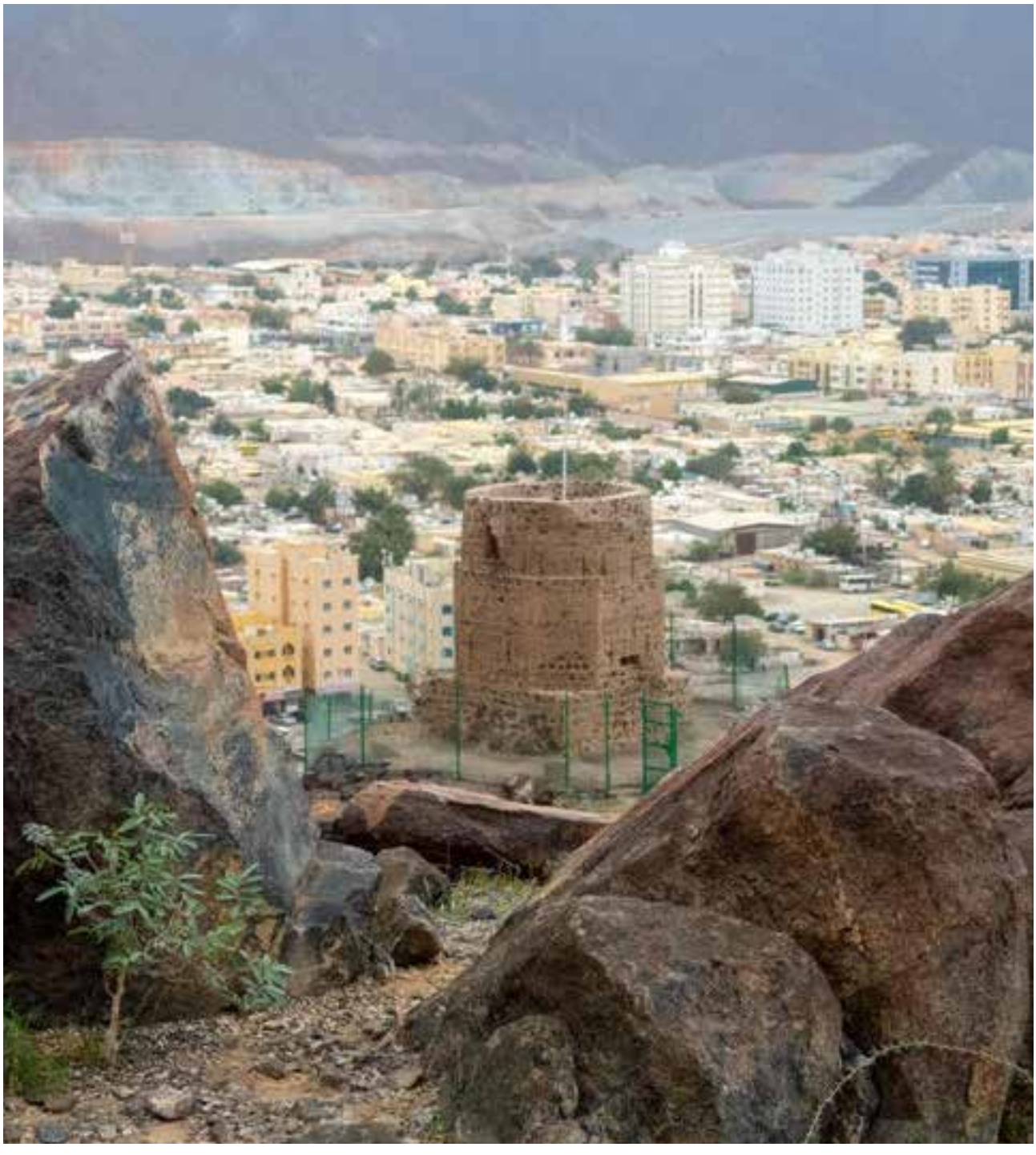

Heritage & Sustainability

Our world has recently witnessed many major transformations and changes that have affected almost everything, including heritage. Being profound changes, they generated new data that are evolving continuously, paralleling with the spread of epidemics and pollution among others, which have caused enormous human and material losses. They are in steady development, posing serious threats to the future of humanity.